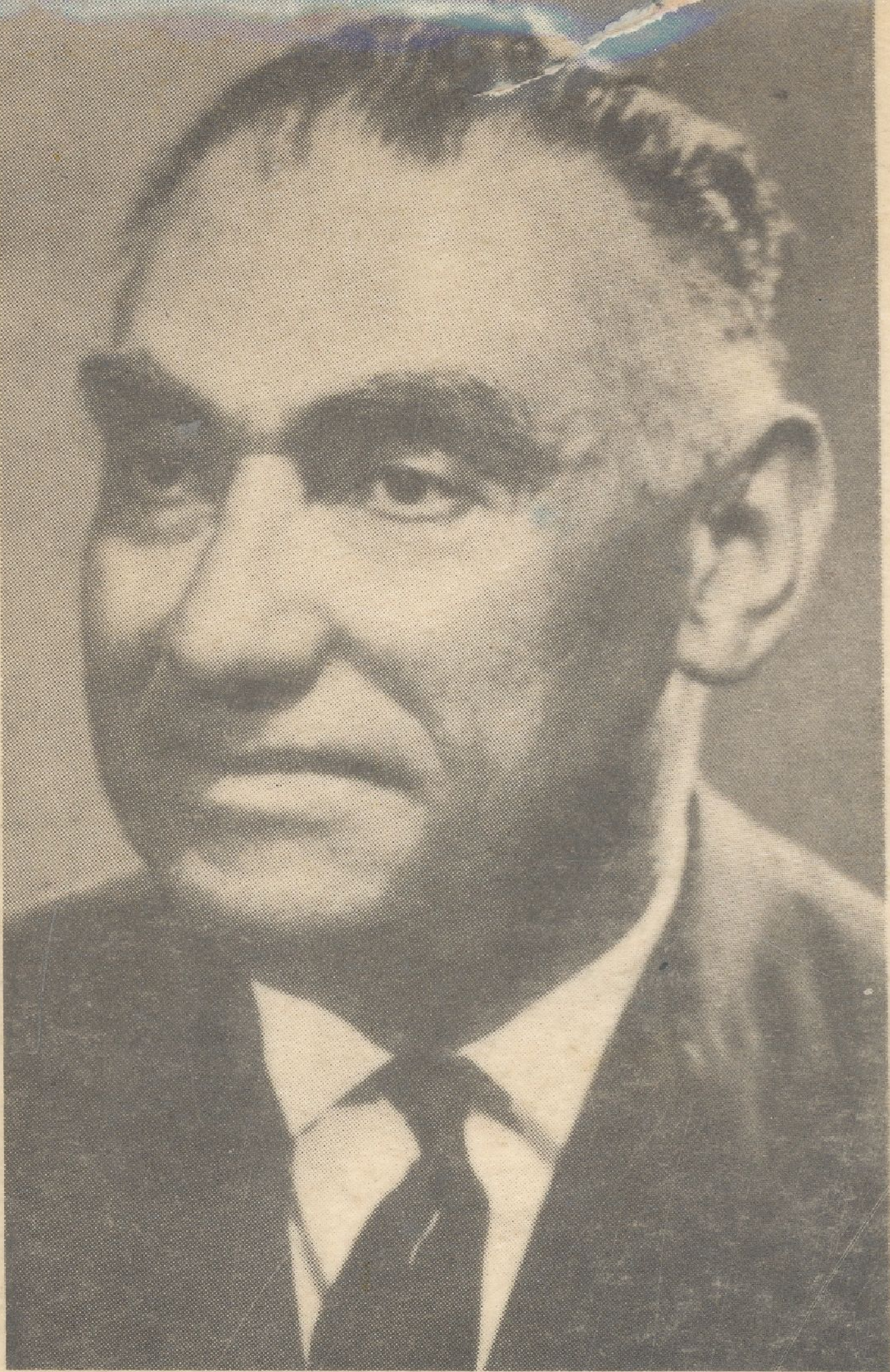
مؤلفات
محمود
كامل





حياة الظلام

وقصص أخرى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مؤلفات
محمود كامل

١

حياة الظلام
وقصص أخرى

د. محمود كامل



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٥

المحتويات

مقدمة

المتمردون

كان الدكتور محمود كامل مؤلف هذا الكتاب قد بدأ نشر قصصه القصيرة فى مجلات « دار الهلال » ، وكان اللون الغالب الذى تميزت به تلك القصص هو تصوير الجانب العاطفى من حياة الطبقة المتوسطة فى مصر ، وكان بلا شك لونا جديدا على الأدب العربى ، ولم يتنبه النقاد فعلا ، فى بادىء الأمر ، الى هذا اللون الجديد ، أو لعل جدته اختلطت فى تقديرهم بما سبقه من محاولات لارساء أدب القصة العربية القصيرة، فعندما أصدر المؤلف كتابه « المتمردون » الذى ضم احدى وعشرين قصة اخترنا منها لهذا الكتاب الذى بين يدى القارىء ثلاث قصص هى : « الدرجة السادسة » و « الشيخ خليفة يقتل » و « حضرة الباشمهندس » التى أصبح عنوانها « ابن حارة عصفور »

اكتفى أحد النقاد بأن ذكر عنـه فى مجلة « كل شىء » القاهرية :

« مجموعة قصص .. كلها تصطبغ بالصبغة المصرية ، الا أن شخصياتها .. ومشكلاتها الانسانية عالمية لا تختص بمجتمع واحد وان كانت مصبوغة بالأسلوب المصرى ، ولا تقتصر على هيئة من الهيئات وان كان واضعها قد ألبسها ثوبا من الحيـاة المصرية التى يلابس أفرادها فى مختلف النواحى ، وهذه احدى الميزات التى تشتمل عليها هذه المجموعة التى هى أشبه ماتكون بالقصص الروسية ، تلك القصص التى تحمل لواء التفوق فى هذا الفن »

ووقف ابراهيم المصرى مؤلف مسرحيـة « الأنانيـة » وعشرات الكتب فى النقد والأدب فى تحليله لكتاب «المتمردون»

أمام قصة « الدرجة السادسة » التي يضمها الكتاب الذي بين يدي القارىء اذ قرر عنها أنها :

« ترتفع بنا عن مستوى الحكايات العادية ونلمح فيها أثرا واضحا لرغبة الكاتب في انتهاج أساليب المذهب الواقعي ، وهي قصة تصف وصفا دقيقا بعض أخلاق طبقة العامة في مصر وعاداتهم وتعرض علينا في ملاحظات حية صورة أسرة بطلها جزار ..

وفي القصة صورة بديعة التخطيط لقرينة الجزار .. »

كما أن الشاعر القصصي حسين عفيف مؤلف قصة «زينات» ومسرحيتي « وحيد » و « سهير » وعشرات كتب الشعر المنثور عقب على هذا اللون القصصي بأن :

« الذي يتدبر هذا الكتاب يجد فيه تجديدا للفن القصصي المصري من جميع الوجوه ، فلقد كان الغالب في القصة المصرية أنها تعالج نقصا محليا معينا ، ومن ثم كان نطاق انتشارها مقصورا على البيئة المصرية ، كما أن بقاءها كان مرهونا ببقاء هذا النقص ، فهي اذن كانت محدودة من حيث المكان والزمان ، وفي هذا مافيه من تفويت لمزيتي الذيوع والخلود ، أما المؤلف فانه اتجه في كتابة قصصه وجهة أخرى ، فجعل الفكرة التي عني بمعالجتها فكرة انسانية عامة ، ولذا فان قصصه قابلة للخلود ، لأن القصة الانسانية تبقى مابقيت الحياة ، كما أنها

قابلة للذيوع فى الخارج لأن الفكرة الانسانية يستسيغها ذهن كل أمة ... »

ووصفت مجلة « المقتطف » قصص المؤلف بأنها :

« تمثل الجو المصرى فى صفات أشخاصها وعبارات حوارها ، وان كانت حوادث معظمها مما يصح أن يقع فى أية عاصمة من العواصم ، وقد سررنا بنوع خاص بقصة « الدرجة السادسة » فانها تحتوى على وصف بارع لطبقة من سكان العاصمة وطائفة من موظفى الحكومة وعاداتهم المنزلية لا يمكن أن تكون فى مدينة أخرى غير القاهرة أو ما يماثلها من المدن المصرية »

وهكذا أثارت قصة « الدرجة السادسة » ، احدى قصص هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء الانتباه مرة أخرى .

ولكن النقاد العرب فى الصحافة التى تصدر باللغات الاجنبية نظروا الى مجهود المؤلف من زاوية أخرى ، سلطت منها الأضواء على حقيقة اللون الجديد فى قصص المؤلف،فرأى ادجار جلاد فى صحيفة « لاليبرتيه » القاهرية التى كان يحررها :

« ان محمود كامل قد توفر على لون عسير من ألوان الأدب هو القصة القصيرة والمسرحية النثرية ذات الفكرة ،

تاركا لغيره الأشعار الخالدة التى تسير وفق النماذج القديمة ، والصور المألوفة المتسمة بطابع شعرى دارج معهود ، والنثر الباهت المضجر الذى لا تعبر فيه ألف كلمة الا عن فكرة صغيرة.

ومحمود كامل .. يكشف ، كقصصى ، عن صفات قوية، فقد تعمد أن يهجر الخرافات المصطنعة ، والعواطف الباكية الى الملاحظات المباشرة ، فالمجتمع المصرى منجم غنى بالشخصيات الفاتنة ، والعادات الأصيلة التى لا شبيه لها ، والمواقف الجديرة بالدراسة وكاتبنا يعرف كيف يستخدمها بفن ، فهو ينقلها فى قصصه بواقعية حية ، وذلك هو سر السحر العظيم الذى تمتاز به قصصه ... »

وقد ترجم المستشرق الفرنسى « هنرى بيريس » مقدمة كتاب « المتمردون » فى دراسته التى وضعها عن « مقدمات المؤلفين لقصصهم الطويلة أو لمجموعات قصصهم القصيرة(١) .

كما أشار المستشرق الألمانى « بروكلمان » فى الجزء الثالث من ملحق موسوعته عن « تاريخ الأدب العربى » الى كتاب « المتمردون » والى أن « بيريس » أشار اليه (٢) .

---

(١) « حوليات معهد الدراسات الشرقية » .
المجلد ٥ ، ١٩٣٩ – ١٩٤١ ص ١٩١ – ١٩٢ .
وقد أشار المستشرق الامريكى « جرونبوم » الى هذه المقدمة فى الفصل الذى خصصه للثقافة العربية فى كتابه « الاسلام » ص ٧٨ .
(٢) « تاريخ الأدب العربى » ابريل ، ١٩٤٢ .

وقـد ترجمت القصص الثـلاث التى اختيرت من كتاب « المتمـردون » لهـذا الكتاب الذى بين يدى القـارىء الى الانجليزية والفرنسية ونشرت الترجمة الالمانية لقصتى «الدرجة السادسة » و « الشيخ مرسى يتزوج الأرض » فى المجمـوعة المختارة من الأدب القصصى المصرى التى أصدرتها دار النشر « هورست اردمان » فى « توبنجن » عام ١٩٦٣ ، كما اقتبست قصة « الدرجة السـادسة » كمسرحية تليفزيونية فى برنامج « كاتب وقصة » وأذيعت من القاهرة .

فى البيت والشارع :

وأصدر المؤلف مجموعته القصصـية الثانية « فى البيت والشارع » ، التى تضم أربع عشرة قصة اخترنا منها قصـة « حضرة الباشمعاون » لهذا الكتاب الذى بين يدى القارىء ، وقد استرعت هذه المجموعة نظر الصف الأول من النقاد العرب فى ذلك الوقت ، فبعد أن انتقد ابراهيم عبد القادر المـازنى مؤلف « ابراهيم الكاتب » و « حصاد الهشيم » اللغة المصرية الدارجة فى حوار بعض القصص ذكر للقراء :

« من دواعى اغتباطى أن يكون فى وسعى أن أؤكد لهم انهم سيجدون فيها متعة لا يظفرون بمثلها من كل كتاب ، فان

له لبراعة فى الحبك ومهارة فى السبك ، وحذقا فى تعليق الأنفاس » .

ولقى الكتاب عناية أكبر من محمد حسين هيكل مؤلف قصة « زينب » و « هكذا خلقت » ، فكتب عنه :

« للنشأة فى الحياة والسلوك فيها أثر على الأديب أعمق الأثر ، أثر على نظره للناس وعلى تفكيره فى الحياة وعلى أسلوبه وعلى شخصيته الأدبية كلها ، ولذلك نرى فى قصص محمود كامل دنوا من الحياة الواقعية المصرية وان يكن يحاول متأثرا بقرأءاته الفرنسية أن يصبغها بصبغة التحليل النفسى ، وهذا التحليل حسن لذاته ، وهو جيد فى كثير مما يكتب محمود كامل . .. ونرجوه أن يوفق فى المشاركة فى أدب القصة بمثل توفيقه فى أدب الاقصوصة ، فنحن الآن فى أشد الحاجة الى أدب القصة ، والقصة فى حاجة الى مجهود أكثر اتصالا ولكنها على كل حال أدعى لدقة تصوير الحياة كاملة بدلا من تصوير لحظة من لحظاتها فى الأقصوصة (١) .

« الوحوش » فى تونس و « فاطمة فى لبنان » :

وكانت قصص المؤلف ومسرحياته قد أخذ يتردد ذكرها

(١) أشار « بروكلمان » فى المرجع السابق ذكره ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ الى كتاب « فى البيت والشارع » والى قصص « الحنين » و « الشك الهائل » « القاتلة » و « حالة جنون » و « الرجولة الكاملة » و « أب وابن » وكلها نشرت فى «الهلال» وضمها كتابا « المتمردون » و « فى البيت والشارع »

فى عدة أقطار عربية فافتتحت فرقة « ابراهيم الاكودى » فى تونس موسمها المسرحى بتمثيل مسرحيــة « الوحوش » التى كان المؤلف قد كتبها لفرقة يوسف وهبى ، وأخرجتها على مسرح رمسيس بالقاهرة باللغة المصرية الدارجة ، وذلك بعد أن نقل ذلك الحوار الى العربية الفصحى الأستاذ محمود بورقيبة .

وفى الوقت الذى كانت «الوحوش» تمثل فيه على مسرح البلدية بتونس كانت الجمعية المصرية فى الجامعة الأمريكية فى بيروت تمثل مسرحية « فاطمة » على مسرح وست هول ، وهى المسرحية التى كان قد كتبها لفرقة فاطمة رشدى وأخرجتها على مسرح حديقة الأزبكية .

ولم يخل مرجع علمى من مراجع المستشرقين المتوفرين على دراسة الأدب العربى الحديث من الاشارة الى هاتين المسرحيتين فمجلة مدرسة الدراسات الشرقية بلندن أشارت الى «فاطمة»(١) ومجلة « المشرق » فى بيروت أشارت اليها (٢) ، ونقل عنهـا المستشرق جاكوب لاندو فى كتابه « دراســات فى المسرح والسينما العربيين » ص ٢٣٨ بالنسبة لمسرحية « الوحوش » كما نقل عن « بروكلمان » بالنسبة لمسرحية « فاطمة »

(١) لندن ، المجلد ٨ ، ١٩٣٥ ــ ٧ ، ص ١٠٠٠ ــ وقد اشار « بروكلمان » الى هذا المرجع فى ص ٢٨٠.

(٢) « المشرق » ، مجلد ٤٣ ، ص ٢٤٩ .

القصة الطويلة « حياة الظلام » :

وعالج الدكتــور محمود كامل القصــة العــربية الطويلة فأصدر كتابه « ٨ يوليو » الذى ضم ثمانى قصص أولها قصة « حياة الظلام » التى يضمها الكتاب الذى بين يدى القــارىء كما اخترنا من نفس المجموعة قصة « الضحية الجديدة » •

وأحدث نشر هذه القصة العربية الطويلة « حياة الظلام » صدى قويا فى محيط النقد الأدبى ، فى الصــحافة العربيــة والأجنبيةوفى الاذاعة ،فذهب أحد النقاد ممن يكتبون بالفرنسية فى صحيفة « لابورص اجبسين » الى :

« ان القصة الطويلة لاتزال شيئا جديدا فى الأدب العربى ومع ذلك فانه ينتظر لها انتشار عظيم كلما اتسع نطاق التعليم وازداد عدد القراء بدرجة تكفى تشجيع الأعمال الأدبية •

ولقد نشر بعض المؤلفين أمثال طه حسين وهيكل قصصــا طويلة قوية وبديعة مثل « الأيام » و « زينب » رســما فيها موضوعات مصرية تقع فى القرية المصرية ، ومحمــود كامل فى كتابه الأخير أراد أن يعرض حياة فئة معينة من الطبقة الوسطى فبطل القصة ينهى دراسته العليا ويواجه صراع الحيــاة. وهــذا البطل شاعر يميل الى مثل أعلى فى الشعر والمسرح والفن والمرأة والحياة الاجتماعية ، وبالاختصار فهو يمثل ذلك الشباب المصرى

المثقف الذى يقتبس من المؤثرات الأدبية التى تطبع الفكر المصرى بطابعها » (١) .

وأشار زكى مبارك الى أن :

« فى قصة حياة الظلام طائفة من الصور الاجتماعية ، وهى صور صادقة مرت فى طريق المؤلف فقيدها فى براعة وحذق .

لمحمود كامل أسلوب هادىء رصين يتفق مع أسلوب القصة وكتابه الأخير « ٨ يوليو » يشهد لمؤلفه بدقة الملاحظة والاحساس بالحياة المعنوية ، وهما صفتان تستحقان الاعجاب والاهتمام ، والكتاب حسن الصياغة وموضوعه ينساق بوضوح وجلاء » .

ونشر ادجار جلاد نقدا تحليليا مسهبا للطبعة الأولى من كتاب « ٨ يوليو » جاء فيه :

« من المؤكد أن كتاب « محمود كامل » سوف يدهش قراءه الذين اعتادوا تتبع كتبه وكذلك النقد الأدبى ، ذلك أن المؤلف فى كتابه الأخير وخصوصا الجزء الاول منه قد خرج على التقاليد المرعية فى الأدب العربى لكى يصل الى نوع جديد ذلك هو التحليل النفسى الذاتى » .

---

(١) «لابورص اجبسين» ٨ من مارس ١٩٣٤ ؛ السنة ٣١ ، العدد ٥٦ ص ٧

ومن الصفحات الأولى من كتـاب « ٨ يوليـو » ترى « المشكلة معروضة أمامك وترى محمود كامل بتحليله النفسى يفتننا بتلك التفاصيل الصغيرة ٠من الملاحظات الدقيقة الصائبة، انه يحمل الينا وثيقة قيمة نافعة لرسم صورة نموذجية لجيـل بأكمله يقوم بدور هام فى الحياة القومية ، هذا الجيـل الذى يظهر فى « ٨ يوليو » هو الحد الفاصل فى وقت تاريخى معين بين عالمين ، بين مصر الأمس ومصر الغد ، وعندما نفهم هـذا الجيل فى كتاب مثل كتاب محمود كامل نعرف بسهولة سر الحركة الخالقة التى تغير بالتدريج النشاط العام للشعب » ٠

وكتب يوسف وهبى ، الممثل والمخرج والمؤلف المسرحى الكبير موجها الكلام الى مؤلف « حياة الظلام » ٠

« ما أنت سوى بركان ثائر يختفى فى رداء محام، عجيب منك أن تأخذ القارىء على غرة فى هدوء مصـطنع ثم تتركه فاغر الفاه ، محموما بعد أن هززت مشاعره هزا عنيفا ٠٠ جاءت قصصك دليل مقدرتك الفائقة على درس محيط بلادنا الخلقى الذى نعيش فيه ٠٠ دعنى أنحنى أمام خيالك ٠٠ »

وكتب محمد كريم عميد مخرجى السينما العرب :

« ليتنى ماقرأت « حياة الظلام » فقد تولدت فى نفسى الحسرة من أول صفحة ، وكلما تابعت القراءة ازداد كمـدى

وانقباضى الى أن انتهيت منها وقد تولانى الوجوم ، واحتبست الدموع فى مآقى ، حالة أجدنى فيها ، وشعور أشعر به كلما شاهدت شيئا بديعا يجل عن الوصف ، فخيل الى أن أخرجها للسينما وأظهر هذه الروعة على الستار الفضى ، مستلهما وحيى من وحيك ، ومستمدا فنى من أدبك ، وقلت انه من الاجرام آن يحرم الناس تذوق هذا النوع من القصة ... »

وكتب أحمد جلال المؤلف القصصى والمخرج السينمائى المعروف :

« ان « حياة الظلام » قصة الانسانية المعذبة ، والنفوس المتمردة ، والقضاء الساخر ، ويكفى أن تتلفت حولك فترى علوى الشاعر ، وزهيرة المرأة الغامضة ، وسوزى المرأة المستسلمة للأقدار ، تراهم فى كل مكان ، وتعرفهم بعد آن أجاد محمود كامل وصفهم ، وما كانت الانسانية لتخلو منهم يوما ما » .

زعامة مدرسة قصصية : « موباسان » وادى النيل :

وتابع المؤلف انتاجه القصصى بمعدل قصة فى كل أسبوع تنشرها مجلته « الجامعة » أو مجلته « ال ١٠ قصص » التى أصبح اسمها « ال ٢٠ قصة » وكانت تصدر نصف شهرية ثم اندمجت فى مجلة « الجامعة » ، وزاد اهتمام النقد العربى

بأدب المؤلف ، فكتب عبد العزيز البشرى مؤلف « فى المرآة» اليه بعد أن انتهى من قراءة قصة « حياة الظلام »

« أخذت ليلة أمس في قراءة روايتك على أن أسلخ منها صورا ثم أوالى القراءة فى اليوم الثانى ، وهكذا ، على أننى كلما أتممت قدرا من الصفحـات أرى أنه كاف لزاد ليلتى ثم طويت الكتاب ، أرى يدى تمتد اليه فتعيد بسطه لعينى ، حتى اذا كل نظرى واعتزمت الارجاء لغدى ألح على الشـــوق الى الموالاة وما زلت كذلك حتى أتيت على الغاية يدفعنى الشـوق وتستدرجنى اللذة ، وينسينى الجهد مااستطعت أن تشب فى نفسى من ألوان الأحاسيس ، وتستجيش فى صدرى من شتى العواطف ، وكأننى كنت الابس هؤلاء الناس وأطالع شـأنهم ، لا أننى أقرأ عن قوم من خلق الخيال » .

وكتب اسماعيل أدهم يقول :

« نالت قصص محمود كامل من الذيوع والانتشار مالم تنله قصص أى أديب آخر من أدباء العربية المعاصرين فى مصر، والحق أن محمود كامل لم ينل زعامة مدرسة قصصية فىالأدب المصرى اعتباطا ، فانتاجه الكبير وما يتسم به هذا الانتـاج من السمات الفنية هما اللذان مهدا له سبيل هذه الزعامة » .

وذهب ناقد عربى يكتب بالفرنسـية فى صحيفة مصـرية

الى وصف المؤلف بأنه « موباسان » وادى النيل وهو يستعرض « حياة الظلام » :

« انه أحد الذين خلقوا فى مصر نهضة أدبية حقا ، انه كاتب من كتاب القصة القصيرة له قدرة نادرة على تعليق أنفاس من يقرأ له تعليقا مستمرا تحت سحر قصته ، مراقب دقيق عرف — سواء فى قصصه الطويلة أو المتوسطة ، أو مسرحياته — كيف يحلل ، وهو ينفذ الى الأعماق بطريقة رائعة ، عذاب الشباب المفكر فى هذا البلد ، وخلق المرأة المصرية المثقفة المتعطشة هى الأخرى الى المثل الأعلى والى الجمال ، وكتبه الكثيرة ، برغم صغر سنه ، قد جعلت منه « موباسان » وادى النيل . » (١)

وقرر ناقد آخر فى مجلة « سفنكس » الانجليزية :

« .. متأثرا بالمدرسة الفرنسية فى الأدب الواقعى ، يتميز محمود كامل عمن عداه فى الصور القلمية التى يرسمها لشخصيات قصته .. فالتحليل النفسى للبطل يسجل بأمانة مشاعر شباب مصر العصرية وانفعالات مايصيبه من خيبة ، وما يثور فى نفسه من طموح ، واذا نظرنا اليها من هذه الزاوية نجد أن القصة قد نجحت نجاحا عظيما .. »

وعند هذا الحد من اهتمام النقد العربى بقصة « حياة

---

(١) «اكتواليتيه» ؛ القاهرة ؛ العدد ١٦٢ ؛ ٣ من مارس ١٩٤٠ ؛ الصفحة

الظلام » التي صدر بها هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء سارعت شركة مصر للتمثيل والسينما الى اخراجها سينميا .. وتولى هذا الاخراج أحمد بدرخان وقام بأدوار البطولة أنور وجدى ومحسن سرحان وأمينة شكيب .

« حياة الظلام » بالفرنسية و « الأجنحة الزرق » بالانجليزية : بين « موباسان » و « بريفو » :

وفى عام ١٩٤١ أصدرت مجلة « لاسمين اجبسين » الترجمة الفرنسية لقصة « حياة الظلام » باسم « زهيرة » مع مجموعة أخرى من قصص المؤلف وشعره المنثور ، فكتب أحمد راسم الشاعر العربى الذى ذاع صيته بما كان ينشره من شعر بالفرنسية ومن ترجمات فرنسية للأمثال العربية . فى كتابيه « عقد العجوز زومبول » و « قدت حمارى » اللذين نشرهما بالفرنسية .

« كان النقاد الاصدقاء يطمعون فى فن مصرى بحت لا بلونه المحلى فحسب بل بابداع انسيابه وبما يصوره من عادات قومية .

ويبدو اليوم أن أمنية هؤلاء الأصدقاء قد تحققت حيث اننا نرى الآن مواهب الشبان وقد اتجهت هذا الاتجاه . وكتاب محمود كامل مثل حى على صحة مانسوق ، وانى لسعيد لعثورى على كتابه ومطالعته لأنه كتاب مصرى تماما بشاعريته

التى تميز الطالب عندنا وبلونه الذى يتمشى مع ضوء هذا البلد تمشيا واضحا عاطفيا » .

ولاحظ ناقد فى صحيفة « لابورص اجبسين » :

« هذا أول كتاب يترجم الى اللغة الفرنسية لمحمود كامل الذى ألف أكثر من مائة قصة صغيرة ومتوسطة وطويلة والذى يعد من أكثر المؤلفين القصصيين الشبان نشاطا ، وقراء البورص اجبسين ، يعرفون محمود كامل من قبل ، فقد سبق أن تحدثنا عنه طويلا فى صحيفتنا مرات كثيرة بمناسبة مؤلفاته التى تصدر باللغة العربية ، وهم بمطالعة قصته « زهيرة » يستطيعون أن يقدروا نوع المواهب التى يتميز بها محمود كامل الذى يسمونه فى كل مكان « موباسان مصر » .

وسجلت الناقدة كاليبسو جارزوزى عن « حياة الظلام » :

« صيغت القصة فى خير قالب يتناسب مع موضوعها ، ورسمت حوادثها بريشة أظهر مايميزها الصدق والبراعة ، ولقد استطاع المؤلف أيضا أن ينوع فى حوادث قصته وأن يجمل فى تطوراتها بما أسبغه على أماكن عادية من جو يفيض احساسا بالجمال والشعر .

والقارىء يحس أثناء قراءة « زهيرة » أن المؤلف يمتاز بدقة الوصف تلك الدقة التى نراها فى خير الكتاب الفرنسيين »

ثم نشرت ترجمة المستشرق الانجليزى « براكنبرى » لقصة « الأجنحة الزرق » الطويلة مع مجموعة أخرى من قصص المؤلف ، وقد عنى المترجم فى مقدمة الطبعة الانجليزية بأن يستعرض العقبات التى اعترضت نشر ترجمات انجليزية لقصص عربية ومنها أن تلك القصص لايتسنى ادراكها الا للاجانب الذين عاشوا مدة طويلة فى الشرق ، وختم تلك المقدمة بأن قرر :

« بتقديم ترجمة « الأجنحة الزرق » للقارىء الانجليزى أعتقد أن العقبات لا وجود لها فان الأجنحة الزرق لا تتضمن نواحى فنية محلية تثير ذعر الأجنبى غير المقيم ، فمظهرها عصرى صميم ، وهى فكرة عالمية الهدف مستقلة عن الزمان والمكان »

وقد سجلت مجلة « المقتطف » عن هاتين الترجمتين أن :

« هذا حدث يذكر فى أدب القصة المصرية ..

واذا كان الناشرون فى انجلترا وأمريكا يترددون فى نشر ترجمات مؤلفات القصاصين المصريين للأسباب التى أوردها الأستاذ براكنبرى فالرجا أن يكون ظهور هاتين المجموعتين باعثا على تذليل بعض هذه العقبات باقناع الناشرين بأن مدار هذه الروايات والقصص يسترعى اهتمام الناس فى كل عصر ومصر ..

وهذا الذى قصدنا اليه عندما قلنا فى مستهل هذه الكلمة « وهذا حدث يذكر فى أدب القصة المصرية »

وقرر الكاتب العربى جان غانم فى صحيفة « لاباترى » الفرنسية عن « زهيرة » أن :

« الطبعة الأصلية التى صدرت باللغة العربية قد سجلت مواهب محمود كامل (أستاذ القصة المصرية) وأوحت بموضوع فيلم سينمى أخرجته شركة مصر .

سيحب القراء أدب محمود كامل ، ذلك الأدب المتئد القوى فى آن واحد ، المصرى بأسلوبه وبصوره وبألفاظه وبألوانه وروحه » .

ورأى الناقد الأدبى لمجلة « لوموند فرانسيه » الباريسية:

« ان أهم ماتنطوى عليه هذه القصة التى أخرجت فى صورة « يوميات كلاسيكية » يتمثل — فوق ماتتميز به القصة من طابع مصرى — فيما يسودها من جو كثيف ، ذلك أن تلك « العبارات اليومية » المدبجة فى غير طنطنة ولا سخرية تصور تصويرا جيدا البؤس المضنى الذى يخيم على حياة البطل ، تلك الحياة التى تتأرجح خلال القصة بين الطموح والخمول شأنها فى ذلك شأن حياة الكثيرين من الطلاب فى العالم ..

« صور سريعة لمرح شاعرى يغلب عليه طابع الرومانتيكية

ويتخذ وضعا وسطا بين أدب موباسان ومارسيل بريفو » (١) .

وفى هذه الفترة من تاريخ القصة العربية ، أى الفترة بين صـــدور مجمـــوعة « المتمردين » وفجـــر الخمســـينات كان الدكتور محمود كامل قد أصـــدر بالاضـــافة الى ما سبق ذكره من مجموعات قصصه ـ مجموعات « بائع الأحـــلام » التى ضمت ثلاث عشرة قصة اخترنا منها لهذا الكتاب الذى نقـــدمه للقارىء قصتى «الوحل» و «أرقت نعمت» ، ومجموعة «أول يناير » التى ضمت عشرين قصـــة اخترنا منها قصـــة « كبرياء امرأة » ، ومجموعة « ٣٠) التى ضمت ثلاثين قصة التى اخترنا منها قصة « حياة صفراء » كما أصدر مجموعات ، و « أنت وأنا » التى ضمت ثلاث عشرة قصة ، و « المجنونة » التى ضمت ست عشرة قصة ، و « الربيع الآثم » التى ضمت خمس عشرة قصة، و « زوبعة تحت جمجمـــة » التى ضمت أربع عشرة قصـــة ، و « عيون معصوبة » التى ضمت اثنتى عشرة قصة ، و « الرجال منافقون » التى ضمت ست قصص ، و « حطام امرأة » التى ضمت أربع قصص و « لاعبات بالنار » ست قصص ، و«فتيات منسيات » خمس قصص ، و « القافلة الضالة » ست قصص، و « آبار فى الصحراء » عشر قصص و « الهاربون من الماضى» تســـع قصص ، ولذلك فان الدكتور ســـهيل ادريس قرر فى

(١) «لوموندفرانسيه» ، باريس ؛ ديسمبر ١٩٤٦ ؛ ص ٦٨٧ .

رسالته عن « القصة العربية الحديثة » التى قدمها الى السوربون :

« ينبغى أن نولى آثار محمود كامل ، فى هذه الفترة ، اهتماما خاصا ، انه يعد من أغزر الكتاب المصريين فى باب القصة القصيرة » .. وروايته « حياة الظلام » فى رأينا تفوق أقاصيصه قيمة على الرغم من صعوبة المقارنة .. وعبر الرواية كلها تهتز لهجة ساخرة عابثة ، ويفاقم التحليل النفسى الجيد اهتمام القارىء .. شخصية البطلة مرسومة رسما دقيقا يبين الملامح والخطوط ، شخصية غريبة ولكنها حقيقية ، حية .. ويناسب الحركة القوية الحية فى الرواية أسلوب عصبى ملتهب تقطعه وقفات موحية ، وتأليف الرواية بشكل يوميات رصين ومركز »

أما الكاتب الكبير أحمد الصاوى محمد فقد وصف حياة الظلام بأنها :

« غاية فى دقةالوصف وجمال وصدق التصوير ، ومن خلال تحليل أشخاصها وسرد حوادثها نرى جميعا لمحات من صبانا هنا أو هناك .. نرى كل فرد يجرى على طبيعته دون تكلف . فالمؤلف لايكاد يصور الا من واقع المحيط الذىحولنا .. هذه هى الواقعية فى قصص محمود كامل .. الجدير بكل اعجاب وهذه هى المدرسة الفرنسية فلا عجب اذا رأى بعض النقاد الفرنسيين فى كاتبنا « موباسان ... »

حياة الظلام

حياة الظلام
فى يوميات

● ٤ أبريل مساء :

ارتفع الدم الى وجهى فجـأة عصر اليوم عقب حادثة صغيرة أثارت أعصابى الى حد كبير ، كنت جالسا فى الفضاء المجـاور لمقهى « ريجينا » بشارع عماد الدين .. الساعة حوالى التاسعة مساء ، والشارع يموج بجموع الخـارجين من دور السينمـا العديدة المتناثرة على جانبى الشارع اللاهى الذى يحيا فىالليل ويموت فى النهار ، كانت جموعا مختلفة الأجناس مختلفة الألوان، وكان أهم ما يلفت النظر فى تلك الجموع أولئك الفتيات اللاتى تتراوح أعمارهن بين الثامنة عشرة والرابعة أو الخامسة والعشرين، الفتيات اللاتى يقضين النهار جالسات على « تختة » مدرسة ، أو واقفات خلف واجهة محل تجارى ، أو متنقلات بين أقسام مخزن من مخازن الملابس ، حتى تسأم أرواحهن الشابة وتتسرب

اليها كآبة مضنية فتظمأ تلك الأرواح الى غذاء من العاطفة لا يجدنها فى جو الدراسة أو العمل ، ولكنهن يسعدن بلقياها على لوحة السينما خلال قبلة طويلة ، أو حديث غرامى مثير ، أو صفعة من ممثل يفيض رجولة على صدغ ممثلة تتهاوى أنوثة وحبا ... ان النفوس والأرواح الشابة تروى ظمأها فى ظلام قاعات السينما .

فكرت فى ذلك وأنا جالس خلف السلسلة الحديدية التى تفصل حيث كنا أنا وابن عمى الشاب وبعض أصدقائنا عن الطريق .

وكنت عندما لمحت قدوم أول سرب من أسراب الجموع المتدفقة من دور السينما قد أسرعت فى حركة آلية فأصلحت ربطة عنقى وضممت أطراف سترتى ومددت يدى الى علبة السجائر التى وضعها ابن عمى اسماعيل على المائدة فأخذت منها سيجارة بين شفتى وأشعلتها ، ووضعت ساقا على الأخرى ثم أخذت أمعن النظر فى المارين من أمامى — أو بتعبير أدق — فى المارات من طالبات المدارس وعاملات البيوت التجارية ، ولكن ابن عمى انحنى على وهمس فى أذنى قائلا :

— حاسب ياأحمد .. نعل حذاءك مخروق .. وأنت خاطط رجلا على رجل والخرق ظاهر لكل من فى الشارع ..

وأسرعت فى هدوء فأنزلت ساقى ووضعتها على الأرض ،

ولكن الدم كان قد ارتفع الى وجهى ، ويظهر أن اسـماعيل ابن عمى لاحظ أننى خجلت فعاد يهمس فى أذنى قائلا :

ـ خفت أن يرى المارة النعل فيتساءلون : ألا يحسن أن يضع لحذائه نصف نعل قبل أن يرفع الحذاء حتى ليكاد يصدم وجوه الناس ..

وتكلفت اذ ذاك ضحكة جافة ، ثم قلت له وأنا أضم شفتى وألويهما الى جهته لكى أحصر صوتى فى فضاء محدود

ـ والله عندك حق ـ وكأننى أردت أن أسـتر خجـلى فاستمررت قائلا : ولو أن الواحد لن يناله من النـاس خير ، مهما عمل فلن يرضيهم ولن يسلم من لسانهم ـ وانتهزت فرصة انشغال الجالسين فى الحديث فأطرقت الى الأرض .. أفكر ، ثم اختلست نظرة سريعة الى أحذية الجـالسين ، كان معظمهم من صغار الموظفين ، فأعلاهم مرتبة ابراهيم فوزى الكاتب بمصلحة السـكك الحديدية لا أظن مرتبه يتجـاوز عشرين جنيهـا ، والباقون كتبة بوزارتى الخزانة والداخلية ، لقد اختصروا الطريق واكتفوا بالدراسة الثانوية ، ثم التحقوا بخدمة الحكومة ، وانقضى على أحدثهم عهدا وهو ابن عمى اسماعيل عامان ، ومع ذلك فهو يتقاضى الآن أربعة عشر جنيها .

أما أنا ، فقد أتممت دراستى الابتدائية والثانوية بمدرسة « الجزويت » الفرنسية التى قدمت لمصر عددا كبيرا من رؤساء

الوزارات والوزراء وشاء أبى أن أتم دراستى الجامعية ، وهأنذا فى السنة الأخيرة من كلية الحقوق .. ولكننى أقلهم مالا .

لا يهمنى المال ، فمن المستحيل أن يتطرق الى ذهن أحدهم أننى عندما أقبلت عليهم لم يكن فى جيبى الا عشرة قروش فقط ، هى كل ثروتى عندما غادرت منزلى بالسيدة زينب ، واننى استطعت مع ذلك أن أصل الى « ريجينا » بالدرجة الأولى فى الترام لأننى أحمل اشتراك الترام المخفض الخاص بالطلبة ،ولكن حذائى .. كان حذائى أتعس أحذية الجالسين ، وحقدت على نفسى لأننى غادرت المنزل مسرعا قبل أن أنتبه الى ذلك الثقب الكبير الذى يتوسط نعل الحذاء ، والا لكنت ادعيت ورما فى قدمى واستخدمت النعل الصوفى المنزلى الذى اشترته لى والدتى عندما مرضت فى الشهر الماضى لكى أقابل به الطبيب والزوار .

مامن أحد يستطيع أن ينتقد منكوبا بورم فى قدمه اذا احتذى نعلا منزليا حتى يشفى !

وكانت جموع الخارجين من دور السينما لاتزال تمر أمام المقهى ، ورفعت بصرى أنظر الى المارات ، ولكننى أحسست فى أعماق روحى بشىء من الذلة والانكسار .. وسألت نفسى وأنا مازلت أطيل النظر الى حذائى وأحذية الآخرين : أويمكن أن تميل اليك واحدة من هؤلاء الفتيات اللاتى يتطلبن

فى الشاب أن يكون جميلا وأن يكون كل شيء فيه قويا وجميلا .. حتى نعل حذائه ؟

ولكننى لم أجدنى فى حاجة الى تردد كثير لكى أجيب بأنه لاتزال أمامى مرحلة طويلة لكى أوفق الى تحقيق آمالى الحارة العريضة التي تجول فى صدرى منذ مدة .. الآمال التى تزين لى حياة الليل فى هذه القاهرة الحاشدة بعوامل الاغراء .

وأحسست بضيق .. أردت أن أتبين اذا كان وقت مذاكرتى قد أزف أم لا ، ولكننى خجلت من أن أخرج ساعتى التىاعتدت أن أخفيها فى جيبى خشية أن يلحظ أصدقائى الجالسون معى الفرق بينها وبين ساعاتهم الذهبية التى يحملونها ، أو على الأقل بين ساعتى وساعة ابن عمى ذات السوار الذهبى العريض ، والتفت الى اسماعيل وقلت له :

ـ ساعتى كسرت اليوم يااسماعيل ، كم هى عندك ؟

ولكنه أجابنى :

ـ لم العجلة ؟.. ابق معنا .

فقلت له فى لهجة حادة:

ـ لا .. أنت عارف أننى يجب أن أعود الى البيت للمذاكرة ، قل لى : كم الساعة الآن ؟

ـ قلت لك ابق معنا هذه الليلة ، سنذهب لتناول كأس أو

كأسين فى احدى حانات شارع الألفى ، وفى عزمنا قضاء سهرة ممتعة بعد ذلك .

وضحكت ضحكة طويلة تظاهرت بها أننى أسخر من دعوته مع علمه بانهماكى فى التحضير لليسانس الحقوق ، بينما كنت فى الواقع أسخر من نفسى لأن آخر قرشين كانا فى جيبى قد انتقلا الى جيب الساقى ثمنا للقهوة ، بعد أن اشتريت صحيفة المساء ومسحت حذائى .. المثقوب .

وما كدت أعلم أن الساعة كانت التاسعة حتى اعتذرت اليهم وسرت متجها الى ميدان الخازندار لكى أركب الترام الذاهب الى السيدة زينب ، ولكننى تعمدت أن يكون سيرى بطيئا ، وأن تكون خطاى قصيرة ، حتى لا يتعرض نعل حذائى المثقوب لانظار من خلفى ، وخيل الى كلما سمعت وقع أقدام تقترب منى أن صديقا من أصدقائى سيضع يده على كتفى ليهمس فى أذنى قائلا : حط نصف نعل يااحمد ..

وفرحت عندما وصلت الى شارع الباب البحرى ، الطريق المظلم المؤدى الى ميدان الخازندار بجوار سور حديقة الأزبكية ، انه طريق هادىء فى مثل تلك الساعة المبكرة من الليل ، ولكننى تذكرت أن سوزى تعمل فى احدى حانات شارع الباب البحرى ، انها امرأة فرنسية كنت ذات مرة قد حدثتها عن غرامى بالمسرح الفرنسى وذكرت لها أسماء طائفة من مؤلفى ذلك المسرح ،

فرجتنى أن أعيرها بعض تلك القصص المسرحية ، وقد اخترت لها فعلا شيئا منها ولكننى كنت أنتظر اليوم الذى يتيسر لى فيه مبلغ يفيض عن مصروفى اليومى حتى أتوجه اليها بالقصص ، وقد لمحتها من بعيد واقفة أمام باب الحانة فى ثوب يكشف عن معظم جسمها تدخن سيجارة وتنفث دخانا كثيفا فى الهواء وهى مستندة فى تعب وملل على أحد أعمدة « البواكى » التى تقع الحانات خلفها ، كانت سوزى المارسيلية الحسناء تنتظر زائرها المجهول الذى لاتعرف له اسما ولا جنسية ولا دينا ، لكى تغريه بعينيها الواسعتين على الدخول معها الى الحانة ، ولكن يظهر أن انتظارها قد طال .. فأخذت تقتل الوقت .. وتقتل معه أعقاب السجائر .

وأسرعت الى الترام وأنا أدير رأسى نحو الحديقة لكيلا تنتبه الى . اننى أكتب هذه المذكرات وأمامى عدة كتب لم أقرأها بعد ، كتاب « القانون الدولى العام » ، وكتاب « الملكية والحقوق العينية » ولكننى مع ذلك سوف أذاكر الليلة شرح قانون الجنسية لأننى تذكرت الآن أن سوزى كانت قد سألتنى فى مستهل العام الجامعى ـ قبل أن أبدأ مذاكراتى ـ عما اذا كان زواجها من مصرى يفقدها جنسيتها الفرنسية ؟.. وعما اذا كانت تستطيع أن تسترد جنسيتها الفرنسية أم لا ؟ .. انها أحبت شابا مصريا وأرادت أن تتزوجه ولكنها تخشى أن يفقدها الزواج

من صديقها المصرى جنسيتها ، انها حريصة على جنسيتها حتى في عملها كغانية في حانات شارع الباب البحرى ..

● ٥ ابريل صباحا :

تركت حذائى الأيمن المثقوب للخادم كى يذهب به الى عبد الله اسكافى العائلة ليضع له نصف نعل ، واحتذيت النعل الصوفى بعد أن مرنت نفسى أمام المرآة على السير الأعرج لاتقان تمثيل الأثر الذى يحدثه ورم مؤلم ، وقبل مغادرتى المنزل الى الكلية شعرت بميل غريب يدفعنى الى الوقوف قليلا أمام الرف الذى وضعت عليه مجموعة المسرحيات الفرنسية التى جمعتها خلال بضعة الأعوام الماضية ، ومددت يدى فتناولت البعض الذى اخترته لأعيره لسوزى ، قصتا « الحنان » و « المرأة العارية » لهنرى باتاى و « مونمارتر » لبيير فرونديه و « الحب » لبول جيرالدى .. ولكننى أضفت اليه قصة « مايا » وهى مسرحية تدور حول امرأة من اللاتى يبعن أجسامهن لبحارة السفن التى ترسو فى ميناء مارسيليا ، على اختلاف جنسياتهم ، وألوانهم ، وأديانهم ولغاتهم .

وابتسمت عندما وضعت « مايا » قصة المؤلف الشاب سيمون جانتيون ، بين القصص التى سوف أقدمها الى سوزى ،

شعرت بنوع من زهو الانتصار ، ستتبين أننى أعرف عن نســاء مارسيليا أمورا رجحت أنها لم تكن تود أن أعرفها .

لست أدرى لم أفــكر الآن فى ســوزى قبل الذهاب الى الكلية ، انها تشغل فكرى عن تلك الجموع من الفتيات اللاتى تتراوح أعمارهن بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين ، واللاتى كن يثرن اعجابى الى أمس مساء ، مع أن سوزى قد تجــاوزت الخامسة والثلاثين . لعل السر فى هذا أننى أحس بأننى أقوى من سوزى ، فهى تكبرنى بخمسة عشر عاما على الأقل ، وقد لاحظت ذات ليلة أن حذاءها الأيسر مفتوق فتقا برز منه احد أصابع قدمها ، ثم هأنذا أثبت لها أن زميلاتها نســاء مارســيليا يذقن شظف العيش ويكافحن كفاحا تعسا من أجل حياة ذليلة ..

ماهذا الشعور الذى ينتابنى ؟.. اننى أحس بميــل قوى الى سوزى واعجاب عميق بروحها الشاعرة ونفسها الفيــاضة بالعاطفة ، ولكن تسيطر على ــ مع ذلك ــ رغبة شريرة فى أن أذلها ، أتخيلنى ، بعد بضعة أيام ، أسألها رأيها فى « مايا » وأنا جالس على مقعد فى الحانة التى تعمل فيها ، واضعا ساقا على الأخرى ، منتعلا حذائى غير المثقوب ، مطلقا دخان سيجارتى فى الهواء مبتسما ابتسامة ساخرة فأشعر براحة عجيبة ..

● ٥ ابريل ظهرا :

اعتدت أن أسلك طريق النيل سيرا على قدمى وأنا أتجه الى الجامعة صباحا ، انه طريق هادىء لايمر به ، فى ذلك الوقت المبكر ، الا خدم القصور الصغيرة المطلة على النهر الكبير ، على مقربة منى « يخت » فخم يرسو الى جانب الشاطىء قيل لى ان صاحبه شاب يمتلك أبوه أحد تلك القصور ، وان الآلة التى فيه كانت قبل ذلك آلة طائرة ثم انتزعت منها لكى توضع فى هذا « اليخت » الذى يظل معطلا ثلاثة أرباع السنة الى أن يعود صاحبه الشاب من أوروبا فيستخدمه فى جولاته الليلية على سطح النيل .

كان منظر « اليخت » جميلا ، ولكننى مع ذلك لم أرد أن أطيل النظر اليه لأننى هربت منذ بضع دقائق من مظهر آخر من مظاهر الثراء الصارخة التى أسبغها القدر على بعض زملائنا فى الكلية ، هم الزملاء الذين يمتلكون السيارات ومن بينها ثلاث أو أربع سيارات من أغلى الأنواع وأفخمها ، دعتنى الى الهرب والقدوم الى هذا الطريق حادثة صغيرة ولكن لها غرابتها ، فقد لمحت عند خروجى من الكلية سيارة صفراء مكشوفة واقفة بجانب محطة سيارات فى شارع الجيزة ، كانت تجلس فيها زهيرة ابنة المرحوم ابراهيم حلمى الذى يظهر أنه كان أحد كبار المهندسين المتقاعدين ، لم يكن وجهها غريبا عنى ، فقد رأيتها

قبل ذلك ، بل أننى أذكر بالضبط اليوم والتاريخ ، رأيتهـا فى الحفلة الراقصة التى أقامتها الجـالية الايطالية بمناسـبة عيـد رأس السنة هذا العام ، أى منذ نحو أربعة شهور ، هى سـيدة فى نحو السابعة والعشرين من عمرها ، طويلة القامة فى مهـابة رائعة ، خمرية اللون فى سخونة لاذعة ، واسعة العينين فى اغراء عميق ، ايماءتها تتناهى رشاقة فى غـلالة من الزهو والاعتزاز .. كانت تتحرك ليلتئذ كأنها أميرة ترى من واجبها أن تضع للناس ناموسا فى الرشاقة ..

أذكر الآن أن قلبى قد خفق خفقانا شديدا عندما وقع بصرى عليها ليـلة رأس السـنة .. حتى لقد تجرأت فزاحمت الى أن اقتربت منها ، ودققت النظر اليها ، ثم سمعتها تتحدث مع صديقة لها بصوت حنون أخاذ ، كانت تعلق على قطعة « تانجو » تعزفها الفرقة الموسيقية عنوانها « مى نوستالجيا » أو « حنينى » وتنتقد الذوق الذى دعا الى اختيار تلك القطعة الفنية الدقيقة النـاعمة لجمهور عربيد فى حفلة صاخبة .. ثم تقدم اليها شـاب علمت بعدئذ أنه موظف باحدى السفارات الأجنبية يدعوها الى الرقص فقبلت واختفت عن بصرى وسط الزحام الحاشد ولكن .. بعد أن تركت فى روحى أثرا عميقا ، لم أهدأ ليلتئذ حتى عرفت اسمها واسم والدها ، وانها تسكن فى احدى العمارات الكبيرة عند مدخل مصر الجـديدة .. ومع أننى علمت الى جانب ذلك أننى

لايجب أن أطمع فى أكثر من ذلك فانني خرجت من حفلة رأس السنة مسحوزا ، لم أكد أصل الى منزلى بالسيدة زينب حتى كتبت قصيدة أطلقت عليها اسم «أميرة المرقص» جعلت موضوعها يدور حول تلك السيدة المصرية التى تركت شخصيتها فى تلك الحفلة الأجنبية جوا من الجلال والروعة ، كنت معتزما أن أترجم تلك القصيدة الى الفرنسية ثم أعطيها الى أحد أساتذتى الفرنسيين لتهذيب فرنسيتها وصقل أسلوبها لكى أرسلها الى مجلة «الشعلة» الفرنسية التى كنت متصلا بقلم تحريرها .. وبدأت فعلا فى الترجمة ولكنى عدلت .. لأننى استسخفت نفسى ..

تذكرت كل ذلك الآن عندما وقع بصرى على زهيرة جالسة فى تلك السيارة الفخمة على مقربة من باب الكلية ، ولشدماكانت دهشتى عندما رأيتها تضع على عينيها نظارة ذات زجاج أسود وهى تطالع باهتمام صفحة الشعر من مجلة « الشعلة » .

وقفت على افريز الشارع أنظر من بعيد كما فعلت ليلة رأس السنة ، ولكنى انتبهت الى أننى سبق أن رأيت تلك السيارة الصفراء المكشوفة وتذكرت أنها سيارة زميلنا فى الكلية محمود الشيمى الذى ورث عن أبيه ثروة طائلة ، وقد اعتاد ألا يحضر الى الكلية الا مرة كل بضعة أيام، وأحسست عندما تذكرت ذلك بنوع من الخيبة لأننى كنت أعرف زميلنا محمود، وأعرف درجة ذكائه

ومدى قدرته على توجيه الحديث ، لم أهتد الى السر فى العلاقة، أية علاقة ، بينه وبين « أميرة المرقص »

وفيما أنا أفكر فى ذلك أقبل زميلى محمود من جهة الكلية الى السيارة ففتح بابها وجلس الى جانب زهيرة ثم تركهاتقودها لكى يعودا الى القاهرة ، وكأنها لحظت أننى كنت لا أزال واقفا وحدى على الافريز أشخص اليها فابتسمت فى اشفاق وهى تدور بالسيارة وترسل خلفهـا دخانا أسـود كثيفا ، أردت اذ ذاك أن أتظاهر بالهدوء فتكلفت ضحكة فاترة ولـكننى كنت فى الواقع أغالب رغبة ملحة فى البكاء .

البكاء .. لماذا ؟

لست أدرى .. ولكننى نظرت الى النعل المنزلى الصوفى الذى كانت قدمى تسبح فيه ، وسرت قليلا فى اتجاه النيل سيرا هادئا طبيعيا . ثم تذكرت فجأة أننى يجب أن أعرج فتلفت حولى كلص ثم عرجت وأنا لاأزال أسمع صفير السيارة الصفراءالفخمة التى تحمل زهيرة ، أميرة المرقص الفاتنة وحى قصيدتى وزميلى، الثرى .

اننى أطلت النظر الى هذه الأمواج النيلية الصغيرة التى تثيرها آلة اليخت الفخم التى كان عمـاله يديرونها اذ ذاك ، لم تتجمع هذه الأمواج عند الصخرة التى جلست عليها بجـانب

الشاطيء ؟ .. ولم يتجه بعض رذاذ الماء الى حتى يكاد يلطم وجهى ؟ يخيل الى أننى أسمع ضحكات تنطلق من قاع النهر العتيد ، ضحكات ساخرة ، ساخرة كالدخان الأسود الذى أطلقته السيارة الصفراء خلفها ، ورذاذ الماء الذى قذفت به آلة اليخت الى وجهى ..

ما ألعن الفقر ..

أهناك شك فى أن زميلى محمود انما توصل الى زهيرة عن طريق تلك السيارة الفخمة ومائتى فدان فى المنيا وثلاث عمارات فى الزمالك ؟

اننى أفكر فى أشـياء غريبة ، أشـبه بخيالات المجنون ، يقولون ان توزيع الثروات غير عادل ، ولكننى أقول أيضـا ان طريقة استغلال الثروات غير عادلة أيضا .. بل انها ظلم كبير ، فهذا « اليخت » الراسى مهجور نحو تسعة أشـهر فى السـنة لايستخدمه أحد ، لم لايسمح لى باستخدامه فأدعو زهيرة مثـلا لقضاء يوم بديع على ظهره ؟ أغلب الظن أنها لن ترفض الدعوة مادامت على ظهر هذا « اليخت » .. ثم يستخدمه شـاب آخر مثلى وثالث ورابع حتى يعود صاحبه فنسلمه له ..

ولكننى تذكرت أن الآلة الموضوعة فى « اليخت » قوية ، وأن الزيت الذى تستهلكه فى دقائق يكفى ثمنه لشراء حـذاء جديد ، فسخرت أنا الآخر من نفسى !

● ٥ ابريل مساء :

دهشت الآن عندما طالعت ماكتبته ظهر اليوم ، ماهذا كله ؟ لم أرهق نفسي كل هذا الارهاق في الكتابة عن سيدة لا تعرفني ولا تعرف حتى اسمي ، ومالي أنا وذلك النوع من النساء المغرمات بالسيارات واليخوت ، ان سوزى تنتظر هديتي المتواضعة ، مجموعة من قصص مسرحية فرنسية اشتريتها من ذلك الكتبي الذي يعيش في كهف مظلم تحت الأرض أمام البنك الأهلي ، وهو كهف لم ير قط كتابا جديدا ، هذه الكتب الممزقة التي يندر أن تجد لأحدها غلافا يستره ، بائعوها دفعتهم الحاجة الى هذا الكهف فاضطروا الى الحرمان من كتب قد يكون بعضها أعز من الأهل ، ومشتروها لم يستطيعوا شراء كتب مستورة بأغلفة أنيقة لم تمسسها يد من قبل فأقبلوا على اقتناء هذه الكتب القديمة ، كتب كاللقطاء . يتخلى عنهم الأهل بحكم الفقر والعوز ويتبناهم غرباء .. هدية لم تكلفني الا بضعة قروش ، ومع ذلك فسوزى كانت تكرر – تلطفا – أنها انما ترجوني أن أعيرها تلك القصص اعارة مؤقتة حتى تقرأها ثم تعيدها الى ، ولقد اعتادت أن تشيعني حتى الباب بقبلة ، لا بدخان أسود كثيف يملأ الجو ويسممه ..

يخيل الى أن طبقة الموظفين ذوى المرتبات الثابتة هم أكثر الناس توفيقا مع أولئك العاملات الشابات اللاتي اعتدن المرور أمام « ريجينا » في طريقهن الى محال أعمالهن أو الى السينما ،

وأن طبقة الشبان الوارثين هم أكثر الناس توفيقا مع مثيلات زهيرة من النساء اللاتى يردن الحياة جنة أرضية فيأنفن من السير على الأرض ويقنعن بلبس الثوب مرة واحدة ويتعطرن بعطر يكفى ثمن زجاجة واحدة منه لشراء مكتبة كاملة من مسرحيات فرنسية ! أما شاب شاعر خامل الذكر مثلى . فمجال توفيقه عند امرأة كسوزى تأنس الى الحديث عن المسرح والشعر ولديها من الوقت مايسمح لها بالاسترسال فى ذلك الحديث لأنه يرفعها الى جو أسمى من الجو الذى تعيش فيه .

كم أنا حاقد الليلة على هذه التلال من كتب القانون التى على أن استذكرها .. انها تمنعنى من أن أكتب قصيدة تجول فكرتها فى خيالى ، قصيدة عن سوزى المارسيلية ، تقف ساعات طويلة تنفث دخان سيجارتها مستندة الى الحائط تنظر الى الأفق نظرات حائرة مبهمة وهى تنتظر زائرها المجهول .

ان ضميرى يطالبنى بكتابة هذه القصيدة عن سوزى ، المرأة التى لم أر منها الا كل طيبة لأننى كتبت شعرا عن امرأة أخرى لم أعرفها .

لى عذرى .. يجب أن أترك كتابة الشعر ، بل كتابة هذه المذكرات ، لأتفرغ لدروسى الجامعية ، لو رسبت هذا العام لأثار رسوبى ضجة بين أفراد أسرتى ، فهم يتهموننى دائما بأن الشعر صرفنى عن دراسة القانون ولكننى سأثبت لهم أنهم مخطئون ، سأنجح .

● ٧ أبريل :

يسير استذكاري سيرا حسنا هذين اليومين ، لم أذهب الى « ريجينا » منذ حادثة الحذاء مع أننى أصلحته وأعلنت بعدئذ أن الورم قد زال وأن هناك وصفة « بلدية » تشفى أشد أنواع الأورام ازمانا ، وهى وضع الطماطم الحمراء عليه وتركه ليلة كاملة ، وهى وصفة كنت قد سمعتها حقيقة من ساقى الحانةالتى تعمل فيها سوزى ولكننى لم أستخدمها ولا أعرف أثرها .

تجمع لدى جنيه .. وسوف أذهب الليلة لزيارة سوزى واهدائها المجموعة المسرحية التى طلبتها ، وقد أضفت اليها اليوم قصة جديدة للونورمان ، هى قصة « خليط » التى تدور حول غانية تسعى جهدها فى أن تنأى بابنتها عن الوسط الشائن الذى تعمل فيه ، ولكن الابنة تنتهى الى مزاملة أمها فى عملها .

من يدرى ، ربما كانت لسوزى ابنة من زوج سابق أو زائر مجهول ، اذ ذاك تتبين أننى أدرك أشياء كثيرة عما يجول فى خاطرها نحو مستقبل ابنتها ، ألم أقرأ فى « مايا » و « مونمارتر » كيف تعيش الغانيات فى مارسيليا وباريس ، وفى « خليط » كيف يفكرن فى مستقبل فلذات أكبادهن ؟

كم هى شريرة هذه الناحية من خلقى .. أشعر دائمابراحة عندما أفكر فى اذلال سوزى !

● ٨ ابريل الساعة ٤ صباحا :

عدت منذ برهة من عند سوزى ، البرهة التى اتسعت فقط لغسل فمى بالصابون الموضوع على الحوض الذى نغسل فيه وجوهنا جميعا ، أنا واخوتى وأخواتى ، الليلة هى الأولى التى بقيت فيها خارج البيت الى منتصف الليل ، ولذا صعدت السلم على أطراف أصابع قدمى ، ثم فتحت باب الشقة ببطء شديد بعد أن خلعت حذائى ووضعته تحت ابطى ، وتوجهت توا عقب ذلك الى الحوض لأغسل فمى كى أزيل عنه الآثار التى تخلفت عليه من قبلات سوزى •

•

كانت ليلة بديعة •• أعتقد أن غيرى لايوفق الى التمتع بمثلها الا اذا دفع أضعاف مادفعت ••

كان كل مافى جيبى عندما وصلت الى الحانة خمسةوستون قرشا ، ولقد بقيت مع سوزى نتحدث نحو ساعة حتى أقبل بعض الزبائن فتركتنى بعد أن همست فى أذنى قائلة وهى تضغط على يدى : سأجلس معهم الآن برهة تشاغل أنت أثناءها يا أحمد بقراءة شىء كأننى لا أهمك •• ولا تظهر أنك تنتظرنى حتى أتخلص منهم ثم نخرج معا •

ألقت سوزى تلك الكلمات لكى أتأثر ببعضها وأفهم البعض الآخر • لقد أرادت أن تنبهنى الى أن هناك مايدعو لأن أهتم

عندما تتركنى لتجلس مع الآخرين ، أو بتعبير آخر لكى أغار ، وفى نفس الوقت أرادت أن تدعنى أفهم أننى سوف أخرج معها عقب انتهاء العمل فى الحانة ، لست أدرى اذا كانت سوزى قد وفقت فى احداث الأثر الذى أرادته أو أن ذلك الأثر كان سيحدث دون حاجة الى كلماتها ، فاننى تظاهرت بالمطالعة ، ولكننى فى الواقع كنت أختلس نظرات طويلة الى الجماعة التى جلست سوزى معها ، كان من بينها رشدى « أفندى » الذى كان ضابطا فى مدرسة المنصورة الابتدائية أيام كان والدى يشغل احدى وظائف مجلس المديرية هناك قبل نقله الى القاهرة وأيام كنت أنا طالبا بها ، لقد خفق قلبى عندما وقع بصرى عليه - لأول وهلة - وكدت أقف فى حركة آلية لأحييه تحية شبه عسكرية ، كما كنا نفعل معه أيام الدراسة ، وتحركه قدماى فعلا تأهبا للوقوف ، ولكننى تذكرت أننا فى حانة ، حانة من حانات شارع الباب البحرى لحديقة الأزبكية .

وزال خفقان قلبى فرفعت القصة المسرحية التى كانت فى يدى لأخفى بها وجهى خشية أن يرانى ، ولكننى لاحظت أنه لم ينتبه الى قط ، لم يتغير ، بقامته القصيرة ، بطنه المنتفخ .. لونه الحنطى ، وصوته الخشن الأجش ، أما أنا فقد تغيرت تغيرا كبيرا .. على الأقل طالت قامتى وستر الثوب ساقى اللتين كانتا مكشوفتين أثناء الدراسة الابتدائية ، ونبت لى شارب لم يكن

له وجود فى ذلك العهد ، ولكن شيئا واحدا تغير فى رشـدى ، أفندى «الضابط» ، لاحظت أنه كان يتلطف الى سوزى ويضحك ضحكات مرحة رقيقة لم أسمعها منه قط من قبـل فقـد كان المعروف عن رشدى خاصة أنه شديدغاية الشدة ، وأنه يتمتع بنفوذ فى المدرسة يكاد يضاهى نفوذ «الناظر» ، وكان يكفى أن ينزل الى « الطابور » المكون من ستمائة طالب لكى يسـوده النظام ولكى تخفت فيه أصوات الهمس التى لاتفلح فى اسكاتها أوامر مدرب الألعاب الرياضية ، وتذكرت حادثة أليمة حدثت لى معه ، اذ أنه وقف مرة ليناذى على « طابور » الظهر صـائحا « يمينا در » و « يسارا در » ، ولما لاحظت أنه كلما صـاح « يمينا » مال طربوشه الى اليسار ، وكلما صاح « يسارا » مال طربوشه الى اليمين ، همست فى أذن زميلى الذى كان الى جانبى: ألا يجب أن يطلب من زر طربوشه اطاعة النداء قبل أن يطلبهـا منا ؟ .. ولم يستطع زميلى أن يكتم ضحكة عالية بدرت منه ، فأقبل عليه رشدى رافعا يده ليهوى بها على صدغه ولكنه غدر بى وأفشى ماهمست به الى الضابط القاسى الذى أخرجنى من وسط الطابور أمام زملائى وهو يصيح فى لهجـة حادة عالية وصوت مرتجف مهتاج : ألست أحمد علوى ؟.. أنا عارفك ولد لعبى خسران ، طول النهار لاعمل لك الا كتابة الأزجال ، شكوى الأساتذة عامة منك ، لن تفلح الا اذا ربيتك ، اسبقنى الى غرفة الناظر .

وقد سبقته يومئذ لأتسلم عقابى الذى أوقعه «الناظر» على ، العيش الحاف أسبوعا كاملا ، والحبس ساعتين يوميا بعد انتهاء المدرسة أسبوعا آخر .

تذكرت تلك الحادثة، وتذكرت أن كل طلبة مدرسة المنصورة كانوا يلاحظون شدة الضابط رشدى ويفرجون عن ألمهم بالاجتماع فى الفسح والهمس بالأسباب التى كانت عقليتهم الطفلة تبرر بها تلك الشدة ، فتارة يقولون انه غنى وليس فى حاجة الى الوظيفة، ولذا لايعبأ بأية شكوى تقدم ضده ، وتارة يقولون انه ينقل أخبار المدرسين والطلبة الى «الناظر» ولذا فهو محل ثقته ، وتارة تطول الألسن أكثر من ذلك فتهمس فى صوت أشد خفوتا بأن رضا « الناظر » عليه قد وصل الى حد السماح له بدخول منزله والجلوس مع زوجته وأن زوجة «الناظر» تستدعيه أحيانا وتكلفه بقضاء بعض شئونها الخاصة ، وكان بعض أصدقائنا من طلبة المدارس الثانوية ينقلون الينا أخبارا عن سهرات رشدى فى حى الأزبكية بالقاهرة ليالى الجمع وفى فترات العطلة المدرسية .

تواردت كل تلك الذكريات فى مخيلتى وأنا أنظر الى رشدى جالسا الى جانب سوزى ، وقد لف ذراعه حول ظهرها وأخذ يتحدث اليها فى رقة متناهية ، وصوت حنون ، وهو يرفع الكأس بيده الى شفتيها ، أو يقدم اليها سيجارة يسرع فيشعلها لها مبتسما ابتسامة عريضة .

وطالت جلسة الجماعة التى كان يترأسها «ضابطنا» القديم ، وتكررت دعوته لسوزى الى تناول كئوس الكونياك ، وزادت ملاطفته لها الى حد رفع يديها وتقبيلهما ودفن رأسه فى صدرها والهمس فى أذنها همسا طويلا ظهر جليا الغرض منه عندما قالت له سوزى بصوت تعمدت أن يكون مرتفعا لكى أسمعه :

ــ كان بودى أن أقبل دعوتك الى هذه النزهة فى طريق الهرم ولكننى متعبة الليلة ، آسفة .

وبعد قليل استأذن رشدى ثم غادر الحانة مع اخوانه

وخيل الى اذ ذاك أن أعدو خلفه أقدم نفسى له وأصارحه بأن نبوءته عنى يوم قال لى « لن تفلح » لم تتحقق ، ولكننى عدلت خشية أن يكون قد لحظ سوزى وهى جالسة الى جانبى ثم وهى تعود الى الجلوس ..

الا أننى أحسست بنوع من الاشفاق نحو «ضابطى» القديم، وتلاشت من مخيلتى فجأة ذكريات قسوته وشدته الماضية ، حتى أن سوزى عندما عادت فجلست الى جانبى وأرادت أن تسخر من تلك الجماعة تعمدت أن أغير الموضوع .

لقد أضعت اليوم كله دون أن أستذكر حرفا واحدا مع أن امتحان «الليسانس» على الأبواب ، ولذا أحاول أن أطرد ذكرى ليلتى مع سوزى من مخيلتى ، لا أريد أن أذكر غرفتها الصغيرة

ذات الأثاث البسيط فى رشاقة ، ولا تلك الصور المنتزعة من أغلفة بعض المجلات الفنية المعلقة فى ذوق رقيق على حائط الغرفة، ولا تلك الجملة الغريبة التى ألقتها أمامى عقب دخولنا الغرفة وهى ترفع كتفها وتخفى عينيها بذراعها قائلة فى سذاجة الأطفال .

ــ أدر ظهرك يا أحمد ولا تنظر الى ، اننى أريد أن أحبك هنا ، حتى هنا ، فى جو أقرب الى خيالك ، لم لا أقلد نساء الأسر مع عشاقهن ؟

لا أريد أن أذكر ذلك ، ولا استلقاءها على وجهها تقرأ معى فصلا من « مونمارتر » ، وهى تغنى تارة ، وتغمرنى بقبلاتها تارة أخرى .

ان ضميرى يؤنبنى لأننى أهملت الاستذكار يوما كاملا من أجل امرأة كسوزى ، لا عاطفة تربطنى بها ، وأنا لاأفترق بالنسبة لها عن أى شخص آخر ، وليس هناك مايدعو أن أبقى عليها أو أفى لها .

مازال ضميرى يمعن فى ايلامى ، ولعل خير ماأفعله الآن أن أستذكر بعض ما أمامى من كتب .. رغم تعبى الشديد قرأت فصلا عن الجنون وبعض الأمراض العقلية ، بين أسباب الاعفاء من المسئولية الجنائية ، وتذكرت أشياء كثيرة عن علاقة الادمان على الخمر بالأمراض العقلية .

أحس بتعب شديد لايمكنني معه أن أستمر على القراءة، ولـكنني مع ذلك وضعت الكتـاب تحت ابطى ثم ذهبت الى الحوض وأخذت أحفر بأظافرى فى الصابون حتى أرفع الطبقة التى لامست فمى ..

لن تمكننى المقاومة الآن .. سأنام ..

● ٨ ابريل :

لم تكن علاقتى بالزميل محمود الشيمى صاحب السيارة الصفراء تعدو مجرد تبادل التحية عن بعد ، ولكننى صباح اليوم عندما رأيته يسير فى فناء الكلية أحسست برغبة قوية تدفعنى الى التحدث اليه ، لم أستطع فعلا أن أقاوم هذه الرغبة فانتهزت فرصة وقوف أحد أصدقائى معه ثم تقدمت لأحيى صديقى الذى لحظ أننى ومحمود الشيمى لانتبادل حديثا فقدمنى اليـه وهو يقول :

ــ عجبا .. فى فصل واحد ولا يعرف أحدكما الآخر ؟ .. وعندئذ وجدتنى منساقا الى القول :

ــ السيارة الصفراء الجميلة أخذته من الفصل ومنا جميعا .. وضحكت ضحكة صغيرة فهم منها الشيمى ما أرمى اليه من كلامى فقال وهو يحاول أن يتكلف البساطة وعدم الاكتراث :

ـ آه .. أمازلت تذكر يوم جاءت تلك السيدة وأخذتنى ؟
فأجبته :
ـ كيف لا أذكر ابتسامتها الساخرة وهى تقود سيارتك ؟
ـ ساخرة .. لا أظنها قصدت ذلك ، انها مثال الطيبة.. ألا تعرفها ؟

وأجبت متجاهلا :
ـ لا .. من هى ؟
ـ زهيرة ياأخى ،بنت ابراهيم حلمى ، نجم من نجوم المجتمع ، تثير الاعجاب فى كل حفلة ، انها مثار الاهتمام فى أبهاء فنادق القاهرة وسهراتها الراقصة ، اذا لم تكن تعرفها ألم تسمع عنها ؟

كدت أخبره بأن معرفتى بفنادق القاهرة لا تتعدى المرور تحت شرفاتها ، وأن أصيح به قائلا : « كيف تريد منى يا غبى أن أتردد على أبهاء تلك الفنادق .. وأن أعرض نصف النعل الجديد لأنظار روادها ! » ، ولكننى تمتمت :

ـ تصادف أننى لم أرها من قبل ـ وأحسست بالرغبة تقوى فى أن أستدرجه الى حديث مسهب عنها ، عن زهيرة ، فسألته عن أشياء كثيرة خاصة بحياتها ، بعضها خيب ظنى عنها ،

وبعضها زاد فى تقديرى لها ، ولكننى على أية حال كنت سعيدا بأن أتحدث عنها وأن أسمع غيرى يتحدث عنها ، ولو كان هذا الغير هو الذى فاز بها دونى ، بل اننى عندما رأيته يتحول بعد مدحها الى مهاجمتها اشتركت معه فى الهجوم ، أحسست براحة خفية اذ تغلبت على زهيرة ، عن طريق الطعن فيها ، والنيل من سيرتها .

ثم دق الجرس ودخلنا جميعا الى قاعة المحاضرات ، كانت محاضرة اليوم عن مبادىء المساواة فى الحقوق والواجبات بين الدول ، وقد أشار فيها أستاذ القانون الدولى الى مبادىء المساواة التى تقررها القواعد الدستورية بين الأفراد ، سمعت ذلك من أستاذنا ثم أجلت بصرى فى قاعة المحاضرات المكتظة ، كان الطلبة فى الظاهر متساوين ، المقعد الذى يجلس عليه محمود الشيمى لا يزيد على المقعد الذى أجلس عليه ، وكلنا محتشدون فى القاعة الواسعة متجاورون نستمع الى محاضرة الأستاذ ، لا تفريق بيننا ، بل ربما كان أفقرنا أكثرنا قربا من منصة الأستاذ المحاضر ، وربما كان الأستاذ أكبر عناية بالطلبة الفقراء الذين يرتدون الثياب الرخيصة التى تبدو على بعضها آثار الفتق والرتق منه بالطلبة الأغنياء ، ولكن أحقا أننا جميعا متساوون ؟

أحقا أننى أساوى محمود الشيمى فى كل شىء .. أو على

الأقل .. هل تسلم زهيرة بهذه المساواة التى تكرر ذكرها اليوم فى قاعة المحاضرت ؟

. لا أظن .

لقد ضاعت محاضرة القانون الدولى العام اليوم على بسبب التفكير فى زهيرة ومحمود الشيمى ، وهأنذا أضيع الآن الوقت فى كتابة هذه المذكرات ..

أيليق بى أن أضعف هكذا فأفكر فى امرأة لا تعرفنى ، ولا تعرف الى الآن اسمى ؟

● ١٦ ابريل :

تلقيت اليوم كلمة من سوزى تقول لى فيها :

« ماذا حدث ؟.. انك لم تمز منذ مدة طويلة ، لقدانتهيت من قراءة « الحب » لجيرالدى ، و « خليط » للونورمان ، وبدأت قراءة « مايا » أمس وأريد أن أتم قراءتها معك ، وأنت الى جانبى كما قرأنا سويا « مونمارتر » لفرونديه : هل تحضر؟ اننى فى انتظارك هل تجيب نداء التى تحبك ؟

« سوزى »

ولكننى قرأت الرسالة ووضعتها جانبا واعتزمت ألا أذهب ألم أسجل منذ أربعة أيام أننى لا يليق بى أن أضعف ؟

● ٢٠ ابريل الساعة ١٠ مساء :

تعبت اليوم من الاستذكار بعد الظهر فغادرت المنزل بفكرة السير على قدمى ، وقد حرصت على ألا ألتقى بأحد من أصدقائى خصوصا جماعة مقهى « ريجينا » ، خشية أن يغرينى بالجلوس معه فأضحى بالاستذكار الليلة ، وفى أثناء سيرى لمحت سيارة صفراء واقفة أمام احدى دور السينما بشارع عماد الدين ، شككت فى أنها سيارة زميلى محمود الشيمى وشككت فى .. أمر آخر ، خادعت نفسى : ربما كانت سيارة ثرى آخر ، فى مصر عشرات السيارات من نفس الطراز الفاخر ونفس اللون .

ولكننى عند عودتى شعرت بقدمى تقودانى الى حيث وقفت السيارة ، وتلفت حولى خشية أن يرانى أحد ثم دققت النظر الى رقم السيارة ، كان هو نفس رقم سيارة الشيمى ، الرقم الذى حفظته عن ظهر قلب ، يوم أطلقت زهيرة دخان السيارة القاتم فى وجهى تحية الوداع ..

ووقفت الى جانب السيارة أفكر ..

هل يمكن أن يكون محمود الشيمى وحده داخل السينما؟ كان فى أعماق صدرى احساس قوى بأنه لم يكن وحده وداعب خيالى اذ ذاك شبح زهيرة ، لست أدرى لماذا ؟

كانت السيارات المكشوفة وغير المكشوفة تمر مسرعة

بجانبى فخيل الى أن بين صرير عجلاتها ضحكات ساخرة ، مكتومة ، وأن عيون راكبيها وراكباتها توجه الى نظرات مشفقة.

ألست أقف أمام السيارة الصفراء أشم بأنف مفتوح رائحة امرأة لا تعرفنى ، واذا صح أنها داخل دار السينما فانها ستخرج مع غيرى، واذا التقت عيناها بعينى فسوف لا أفترق فى نظرها عن غيرى من آلاف السائرين فى الطريق الحاشد بالآمال الباسمة، أو الوجوه العابسة .

أما هم ، أما أولئك الذين يقودون سياراتهم مسرعين الى أقاصى ضواحى العاصمة ، أليسوا محقين فى سخريتهم منى اذ يروننى فى وقفتى تلك ، بينما كل منهم يقود السيارة بيد ، ويده الأخرى تداعب شعر امرأة كزهيرة ؟ وفى خجل مذل أسرعت الى الافريز الآخر ، ووقفت أمام المتجر الكبير الذى كان فيما مضى محلا لبيع السيارات ثم هجرته السيارات وتركته خاليا ، مظلما، كئيبا كقلبى ..

وانتظرت ..

انتظرت خروج الجمهور من دار السينما ، مرت على فترة قلق وحيرة وذلة وشعور أليم بما يشبه الضياع ، كنت أفكر فى كرامتى التى عرضتها للامتهان ، مراجعة كتبى التى أهملتها ، و .. وفى زهيرة ، ولكننى نسيت كرامتى ، ونسيت المراجعة ، وبقيت زهيرة ..

وفجأة تدفق جمهور السينما الى الطريق ، وتقدمت قليلا وأنا لاأزال أحاول التخفى ، فلمحت زهيرة خارجة تتأبط ذراع زميلى محمود الشيمى ثم ألقت بنفسها الى جانبه داخل السيارة التى غابت مرة أخرى عن ناظرى وسط رتل من السـيارات الأخرى •

فعدت الى منزلى وأنا أجاهد لكى أرفع رأسي •

ولم أكد أفتح أول كتاب صادفنى حتى علت منى ضحكة كضحكات المجانين •

كنت قد اعتزمت منذ أربعة أيام أن أقاوم التفكير فىزهيرة ولكن سوزى ماذنبها ؟•• انها كتبت الى تطلب أن ترانى ، لم لا أذهب ؟

الساعة تدق الآن العاشرة فى غرفة نوم أبى ، أحس برغبة هائلة فى أن •• أقوى ، وأن أثأر ، مم ، أو ممن ؟

لا أريد أن أضعف هنا •• كما ضعفت أمام باب دار السينما •

اننى واثق من أننى سأجد العزاء بين ذراعيها ••

● ١١ مايو الساعة ٥ صباحا :

منذ أسبوع فضلت أن أنقطع عن الذهاب الى الكلية وأن أبقى في منزلى لكى أتفرغ للاستذكار ، أملى الوحيد ينحصر فى الفوز بليسانس الحقوق مهما كلفنى الأمر •

أمنية جميلة ••

يداعبنى يقين قوى بأن النساء •• كثيرات من النساء سيعجبن بى لو وقعت أبصارهن على فى ساحة محكمة أو اطلعن على صورة لى فى احدى الصحف وأنا بثوب المحاماة الأسود ؟ المحاماة مهنة مثيرة فاتنة •

ومع ذلك فلتوضع نساء العالم فى أتون مستعر ، أريد أن أنجح لأبنى لنفسى مجدا ، أن أشتهر كما اشتهر غيرى من المحامين والشعراء ، وعندئذ •• سوف يكون لى مع النساء موقف آخر ••

ماهذا ؟•• اننى أهذى ، لقد وضعت نساء العالم أجمع منذ ثانية واحدة فى أتون مستعر ، لم أتحدث بعد عنهن ؟

اننى متعب ، شربت أربعة أقداح من القهوة ، وثلاثة من الشاى أيقظتنى حتى الآن •

● ١١ مايو ظهرا :

تجتاحنى رغبة ملحة فى الـكتابة .. رأيت اليوم منظرا مدهشا ؛ فقد توجهت الى الكلية للمرة الأولى منذ أسـبوع لأتحقق من موعد الامتحان ، ولشد ما كانت دهشتى عنـدما رأيت فى عودتى سوزى واقفة أمام واجهة متجر من المتـاجر الكبرى بشارع ٢٦ يوليو تشاهد مجموعة الثياب المعروضـة فيها ، وقد تجردت من اللون الصارخ الذى اعتادت أن تبدو به فى حياة الظلام التى عرفتها فيها ، لم تـكن قـد وضعت على وجهها الا قليلا من الزينة العادية البسيطة ، ولم تكن تصدر فى حركاتها الا عن رزانة وتؤدة واعتزاز كأنها سيدة من أسرة أجنبية كبيرة ، وكانت تحمل ربطة من المجلات ، وفجأة لمحت زميـلى محمود الشيمى يحوم حولها بسيارته ويفتح باب السـيارة ثم يغلقه ويتبعهـا وهو يدعوها للركوب معه ، كلمـا انتقلت من واجهة الى أخرى ، ولما يئس نزل من السيارة ثم تقـدم اليهـا ودعاها ولكنها رمقته بنظرة احتقار ، وأدارت له ظهرها ثم ابتعدت، أكانت سوزى تحس بما أحس به نحو الشيمى ؟

هل هى التى انتصرت ، أم أنا الذى انتصرت ؟

أى نصر ؟

لا .. أنا موقن ان الشيمى انهزم اليوم كما انهزمت أنا

مرتين ، وأن التى هزمته هى سوزى ، عاملة الحانة المارسيلية التى تقف على الباب ساعات الظلام الطويلة ، تنتظر زائرها المجهول ..

عدت الآن الى قراءة رسالة سوزى الأخيرة ، الرسالة التى كانت قد دعتنى فيها الى زيارتها ثم ألقيتها بأنفة فى درج مكتب مهجور ..

هذه المرأة التى أتدلل أنا فى زيارتها يسعى وراءها محمود الشيمى ، بجاهه وثروته وسيارته .. آه لو علم من هى سوزى !!

● ٦ يونيو :

أعلنت اليوم نتيجة امتحان « الليسانس » وكان اسمى بين الناجحين ، ولكن عندما وقع بصرى على اسمى فى الكشف المعلق فى بهو الكلية تظاهرت بالحزن وتكلفت نوعا من الضيق والكآبة ، لأننى لمحت بعض السعاة مقبلين نحوى يلتمسون المنحة المعهودة فى أمثال هذه المناسبات ..

.. ولقد نجحت حيلتى فانهم ماكادوا ينظرون الى وجهى الكئيب حتى اتجهوا الى غيرى ، من أين أعطيهم الآن ؟

ان « الليسانس » لاتضع النقود فى جيبى الخالى ، لابد من مرحلة أخرى غير مرحلة الدراسة لكى أستطيع أن أحصل على المال الذى أمنحه لهؤلاء السعاة ، أو أحصل به على احترام غيرهم .

ولما غادرت بناء الكلية كنت ألاحظ على الباب أقصى مظاهر الأنانية الصارخة ، كان كل منا منشغلا بمصيره ، حتى الأصدقاء الذين ماكانوا يفترقون لحظة أثناء العام الجامعى فرقتهم نتيجة الامتحان .

وظللت ، أثناء عودتى الى البيت ، منشغلا بالتفكير فى هذا المحيط الهائل من الجهاد الذى أسلمنى اليه نجاحى ، أى مستقبل ينتظرنى ياترى ؟

فيم أفكر أيضا ؟

فى سوزى ؟

لا .. هل يليق أن يفكر محام شاب فى امرأة كسوزى ؟ أى عار !

فى زهيرة ؟ .. ولا هذه أيضا .. سوف أستقبل فى المكتب الذى سأقضى فيه مدة التمرين الكثيرات ممن يفقنها جمالا وفتنة ، خير ما أفعله أن أفكر فى .. لاشىء ..

● ٨ يونيو :

ماذا أفعل ؟

لقد انتهيت من مطالعة الصحف اليومية ، ثم جلست على المقعد الطويل أستمع الى حديث بعض « بنات البلد » اللاتى

أقبلن لزيارة والدتى وتهنئتها بنجاحى ، فجلسن على الأرض وجلست هى على أريكة عالية تستمع الى أحاديثهن فى اهتمام عجيب ، وقد عرفت احداهن اننى فى الغرفة المجاورة فدخلت الى ثم قالت لى فى جرأة غريبة :

ــ ابنى ينتظر منك ثوبا حلاوة نجاحك ، العقبى لك لما تصبح مستشارا أو وزيرا قد الدنيا .

وقد وعدتها خيرا ، ولكنها لم تكد تغادر الغرفة حتى تذكرت أن خادم الحانة التى تعمل فيها سوزى كان قد طلب منى نفس هذا الطلب منذ شهر تقريبا ، ووعدته خيرا .

● ١٤ يونيو :

قدمت اليوم طلبا بادراج اسمى فى جدول المحامين بعد أن دفعت الرسم المقرر لذلك ، وعدت الى المنزل فرحا ، ولكننى بعد أن خلعت ثيابى وتمددت على « المقعد الطويل » أحسست بهدوء عجيب يسود المنزل ، لقد ذهب والدى الى « الديوان » وخرجت والدتى لزيارة خالتى فى منزلها بحدائق القبة ، وذهب أشقائى الى مدارسهم منذ الصباح الباكر ، ولم يبق فى المنزل الا خادم صغير وخادمة أسمع الآن صوتها وهى تغنى فى الحمام احدى الأغانى القديمة ، وصوت الملابس وهى تغسلها وتعصرها وتضرب بها « الطشت » النحاسى الضخم ، تضايقت فى بادىء

الأمر من صوت الخادمة .. ومن نغمة الأغنية القديمة المتشابهة المملة ، وقمت فأقفلت باب غرفتي ، وأخذت أطالع قصة فرنسية ، قصة عجيبة لست أدرى كيف سمح باصدارها في فرنسا مع أن المادة الخاصة بانتهاك حرمة الآداب العامة في قانوننا منقولة عن القانون الفرنسي ، قصة تدور حول غرام عنيف بين امرأة في السادسة والثلاثين من عمرها وابن أخي زوجها ، طفل مسلول في السابعة عشرة من عمره ، وفي القصة تفاصيل مزرية عن القبلات التي كانت تطبعها الزوجة العاشقة على فم الطفل المسلول .

وزاد ضيقي وسط الهدوء الذي كان يغمر الغرفة ، ففتحت الباب ثانية وعاد صوت غناء الخادمة يطرق سمعي،ولكنه كان هذه المرة حنونا ، جميلا .

وفكرت في أن أطلب اليها أن تغني لي أغنية كانت تنشدها عقب طلاقها من زوجها والتحاقها بخدمتنا ، واتجهت نحو الحمام ولكنني خجلت ، فعدت الى مكتبتي المضطربة أنقب عن شيء آخر أقرؤه ، وأقتل به هذا الوقت الكئيب الذي أقضيه في انتظار اجتماع لجنة قبول المحامين .

وتناولت مجموعة قصص مسرحية للمؤلف الفرنسي « رومان كولوس » ومن بينها قصة عنوانها « العجزة في الحب »

● ١٤ يونيو مساء :

ان رومان كولوس هذا كاتب مجنون ولا شك ، لقد أردت أن أهرب من مؤلف فوقعت فيمن هو ألعن منه ، ان قصة « العجزة فى الحب » فيها اقرار لمبدأ اباحى عجيب هو اتصال السادة الشبان بخادماتهم .. ما هذا التردى ؟! أى انحراف ملوث أصاب تفكير هؤلاء المؤلفين !

تذكرت الآن أن سوزى أرسلت لى قلما أزرق رشيقا كهدية بمناسبة حصولى على « الليسانس » ، لم لا أزور سوزى ؟ أليست أفضل من خادمة ؟ انها لو سارت فى الطريق لما شك أحد فى أنها سيدة من أسرة كريمة ، ألم تخدع محمود الشيمى ؟ أستطيع اذن أن أراها خارج منزلها ، ليس فى هذا ضير ، فان اسمى لم يدرج الى الآن فى الجدول .

● ١٦ يونيو :

عدت الآن من نزهة قصيرة مع سوزى شاهدنا فيها قصة فى احدى دور السينما التى تعرض برامجها فى الهواء الطلق ، كانت الدار خالية تقريبا من الجمهور ، ومع ذلك تعمدت أن أخفى وجهى بيدى حتى لا يرانى أحد ..

حاولت سوزى كثيرا اليوم أن تستمر على طريقتها القديمة فى اثارة اعجابى بالتحدث عن المسرح والشعر والقصة ، ولكنى

كنت أتكلف النظر الى اللوحة وألتفت اليها بين فترة وأخرى في ابتسامة مغتصبة ، ولما سألتني :

ـ ماذا بك هذا المساء يا أحمد ؟

أجبتها متكلفا الابتسام :

ـ لا شيء .. هل تلحظين شيئا شاذا ؟

ـ الشيء الشاذ هو أنك لست موفقا في تكلف الوقار والرزانة .

ـ من أين لك انني أتكلف ؟

فضحكت ضحكة عالية ، ضحكة من الضحكات التي اعتادت أن ترسلها في الحانة ، ثم قالت :

ـ أوه ياصديقي ، انك ولدت شاعرا ، واذا كان قد خيل اليك ان هذه « الليسانس » التي نلتها ستغير من أخلاقك فأنت واهم ، ستظل شاعرا لأن الله خلقك هكذا ، ومتى عرف الشعراء نظاما معينا في الحديث أو المأكل أو المشرب ؟ ان الشعر هو الفوضى ، واذا فكر الشاعر في أن ينظم حياته وفق ما يريده الناس فثق أنه تفكير طارىء وأنه سرعان ما يثور على نفسه وعلى النظام الموهوم الذي وضعه الناس لها .

مهما قيل في سوزى فهي امرأة ذكية ، قضت خمسة عشر

عاما فى حياة الظلام تستشف آشباح الأشياء والأشخاص أثناء الليل ، وتكشف الأسرار من خـلال همس الثقوب وهذيان السكارى وتصل الى أعماق النفوس فى وضح النهار ؟

أفكر الآن فيما قالته لى ، كانت نبرات صوتها تدل على أنها تتمنى لى الخير ، وتتوقع تطورا جديدا فى حياتى .

رغم كل مقاومة أحس بميل قوى الى النبش فى أدراجى ، الأدراج التى تحتضن أشعارى القديمة .

● ١٨ يونيو :

سهرت حتى الصباح فى تنقيح الترجمة الفرنسية لقصيدة « أميرة المرقص » ، ولما انتهيت من « تبييضها » ولم يبق الا توقيعها .. ترددت .

أود أن تقرأ زهيرة هذه القصيدة وأن تعجب بها ، وبالشاعر الذى نظمها ، أود أن أبدو قويا أمامها ، أية قوة فى أن أوقع قصيدتى بهذا التوقيع الأقرع « أحمد علوى » ؟ نكرة مجهول ، لأنتظر حتى يصبح توقيعى « أحمد علوى المحامى » ، ما يدريها اذ ذاك متى تخرجت ؟ ألا يمكن أن أكون محاميا راسخ القدم فى المهنة منذ عدة سنوات جمعت أثناءها ثروة تمكننى من شراء سيارة صفراء ؟

لأنتظر ..

● ٤ يوليو

ما أشد الضيق الذى يشمل كل هذه الحياة التى تحيطنى ••

يبدو أننى كنت مسرفا فى تخيل المستقبل الباسم الذى تعده لى « ليسانس » الحقوق ••

كل ما تغير فى حيـاتى أن والدى سـمح لى بأن أكلف « الخياط » بتفصيل بذلة جـديدة ، ففضلت أن تكون داكنة الزرقة ، كما أنه رفع مصروفى الشهرى الى خمسة جنيهات •

توجهت الى « ريجينا » اليوم بالبذلة الجديدة ، وبحذاء جديد •• وقد تعمدت أن أضع ساقا على الأخرى بمجرد أن لمحت ابن عمى اسماعيل قادما ، ويظهر أنه لحظ فضحك ضحكة ساخرة وقال :

ــ طبعا ياسيدى •• طبعا ••

وفهمت ما يرمى اليه ، فتكلفت ابتسـامة صفراء كأننى أصبحت شخصا آخر أسمى من الموجودين ، كنت أحس فعلا من أعماق نفسى بأن شيئا جديدا قد طرأ على ، وأن الجلوس مع تلك « الجماعة » لم يعد يليق بى •

وكانت احدى صحف المساء قد نشرت خبرا عن قضية هامة وبدأت مناقشة بسيطة بين الموجودين عنها فأنصت الى المتكلم

وأنا أهز رأسى فى استهتار حتى انتهى ، ثم اعتدلت فى جلستى وأخذت أشرح لهم بعض نواح فنية فى القضية كأننى ألقى درسا عويصا ، وارتفع صوتى أثناء الالقاء حتى لفت نظر القريبين من زبائن المقهى ، كنت أظن أننى بعد أن أنتهى من القاء كلامى فى تلك الحماسة الملتهبة أفوز من أفراد الجماعة بتقدير جديد ونظرة أخرى غير النظرة التى اعتادوا أن ينظروا بها الى ، ولكن لشد ما كانت دهشتى عندما رأيت أمارات سخرية خفيفة تشيع على وجوههم ويحاولون اخفاءها فى شىء من الحياء ، وتأكدت من تلك السخرية المكتومة عندما صاح أحدهم وأنا ما زلت مستمرا فى القاء محاضرتى :

ـــ أنظر البنت ذات الثوب الأزرق يا اسماعيل !

وأجابه ابن عمى اسماعيل :

ـــ أليست هى التى نقابلها خارجة من عملها عند الحلاق اليونانى فى شارع قصر النيل ، متظاهرة دائما بالحشمة ؟

ـــ أجل ، أتعرف أننى رأيتها أمس فى ساعة متأخرة من الليل ؟

ومالت الجماعة كلها تسمع فى شوق الى ما سوف يلقيه ، واستمر هو قائلا : رأيتها أمس عند فورتنيه فى شارع سليمان باشا ، واسمها آديل ..

وضحك ابن عمى اسماعيل ثم قال وهو لا يزال يلتهم العاملة المارة على الافريز الآخر من الشارع :

ــ آه .. اسمها هناك .. ولكننى لم أكن أصدق ما كان يقال عنها .. منذ ستة أشهر وأنا أحس كلما رأيتها بأن عينى ستطلع وراءها .. ــ وأحسست اذ ذاك بأنه من العبث أن أغير مرة واحدة نظرة هذه الجماعة الى ، واننى اذا كنت أريد أن أتفادى الاصطدام بهم فمن الحكمة أن أبحث لى عن جماعة أخرى يتسق تفكير أفرادها مع تفكيرى .

أكتب هذه المذكرات الآن وأمامى عدة كتب مبعثرة ، مجموعة القصص الفرنسية التى سبق أن استفزتنى احداها ، وقصة « العجزة فى الحب » ولكننى أسرعت فألقيت الكتابين تحت الفراش فى كثير من الاشمئزاز ، لقد هربت من جماعة « ريجينا » فيجب أن أهرب من هـذا الأدب المستهتر و .. سوزى ، وأقبلت على مجموعة الكتب أقلب فيها ، عثرت على قصة كنت قد اشتريتها مع مجموعة القصص المسرحية التى أهديتها الى سوزى من ذلك الرجل العجوز الذى يبيع الكتب القديمة فى كهف أمام البنك الأهلى ولكننى لاحظت أنها لا تليق بامرأة كسوزى فاستبقيتها عندى ، هى قصة مسرحية عنوانها « ايزابو » للشاعر الفرنسى « بول فور » كانت قد مثلت على مسرح الأوديون ، وأخذت أقلب صفحاتها ، ولكننى لم أستمر .

● ٧ يوليو :

شعرت اليوم بحقد عجيب على الدنيا •• وعلى المسرح •• وعلى الأدب •• وعلى الشعر وعلى « بول فور » ألم يبدأ حياته شاعرا شابا مثلي خامل الذكر ثم وفق ونجح ، وتلقى النـاس أشعاره فى فرح وتقدير واعجاب فذاع صيته حتى أصبحت قصصه المسرحية تعرض على خشـبة الأوديون ؟ ألم تتمن أجمل نسـاء باريس أن يفزن منه بابتسامة أو تحية ؟

ولكن •• هل ينتظر لى أن أنجح كما نجح هو ؟ وأن يتلقى الناس أشعارى كما تلقوا أشعاره •• وأن تمثل قصصى المسرحية على مسارح القاهرة كما مثلت قصصه على الأوديون ؟ والله •• هذا لا يستبعد •• من يدرى أى مستقبل ينتظر هذه القصائد التى كتبت فى هذه الغرفة الضيقة المطلة على حوارى السيدة زينب ؟

أما قصصى المسرحية فمن يدرى أيضا ؟ قد تمثل لى قصة فى العام القـادم ، أو الذى يليه •• خيال فيه بعض العـزاء الا أننى كنت أحس بأننى أخدع نفسى•• وأن تلك الآمال العريضة التى غذيت بها روحى على أثر الموقف الذى وقفه منى ابن عمى اسماعيل وأصدقاؤه اليوم لن تتحقق كلها على الأقل •• ولذا ألقيت بقصة « بول فور » بعيدا وأقبلت على مجموعة انجليزية

من قصص الكاتب الروسى أنطون تشيكوف •• أخذت أقلب صفحاتها بسرعة الى أن لفت نظرى فيها قصة خفق لعنوانها قلبى •• « مملكة امرأة » •• لماذا يخفق قلبى لهذا العنوان ؟

أوه •• اننى أفكر الآن فى زهيرة •• فى تلك المرأة العجيبة، ويخيل الى أن « أناكيموفنا » التى كتب عنها تشيكوف قصته ، لا يمكن أن تكون أجمل من زهيرة ولا أشد سحرا ، ومع ذلك فقد جعل لها مملكة •

وأخرجت قصيدة « أميرة المرقص » وفكرت أن يكون عنوانها « ملكة المرقص » ولكننى عدلت •• يجب أن تقنع زهيرة بأن تكون أميرة فحسب الى أن تعرفنى !

● ١٥ يوليو :

كلفت اليوم احدى المطابع أن تطبع لى بطاقة جديدة استعدادا لاجتماع لجنة قبول المحامين •

● ١٨ يوليو :

نشرت الصحف اليوم قرارات لجنة قبول المحامين ومن بينها قرار ادراج اسمى فى جدول المحامين ، كان أول ما فعلته أن أرسلت بذلتى الجديدة مع الخادمة لتكوى ، ثم مسحت حذائى •• وأخذت أنظم الكتب المبعثرة فى دولابى استعدادا لتجليدها

ونقلها الى غرفتى بالمكتب الذى سأقضى فيه مدة التمرين ، وهو مكتب الأستاذ على عبد القادر الشرقاوى أحد أصدقاء والدى منذ الصغر ، ولم تكد تعود البذلة الداكنة الزرقة حتى ارتديتها وتناولت قصيدتى « أميرة المرقص » بهدوء ثم جلست الى مكتبى وأخرجت من الدرج القلم الذى أهدته لى سوزى ، ووقعت القصيدة عند ذيل البيت الأخير هكذا :

أحمد علوى ـ « المحامى »

ولما جف المداد ثنيت القصيدة برفق وتناولت عصاى وغادرت المنزل ووجهتى ادارة مجلة « الشعلة » وأرسلت بطاقتى الى رئيس التحرير ومعها القصيدة ، بطاقتى التى تدل على مهنتى الجديدة والتى كنت قد طبعتها قبل اجتماع لجنة قبول المحامين، وقد سمح بأن يرانى بعد فترة انتظار قصيرة ولم أكد أدخل عليه حتى وقف ومد يده الى ثم هز يدى بقوة وحرارة وهو يكرر :

ـ أهنئك يا أستاذ .. لا تؤاخذنى على أننى لم أقابلك فورا ، الاسم لم أكن أعرفه ، أهذا أول شعر لك ؟

وأحسست اذ ذاك بزهو عجيب ، نسيت معه زهيرة وذكرت نفسى ، ثم أجبته :

ـ حاولت بضع محاولات وأنا بعد طالبا ، نشرتها بامضاءات مستعارة فى بعض المجلات ، ولكن هذه أول قصيدة لى بالفرنسية ، و .. ـ وعاد يقاطعنى قائلا وهو يلتهمنى بنظراته :

ـ هذه ليست قصيدة ، انها ملحمة ، مذبحة ، حقا انها شيء رائع .. ما كنت أتصور أن شابا عربيا ينظم شعرا فرنسيا بهذا الجمال .. أقسم لك أني نسيت نفسي وأنا أعيش معك وخيل الى أني أعيش مع فيرلين .

اذ ذاك تذكرت زهيرة ، وفيرلين ، لقد كان فيرلين شاعر الحب والعاطفة والغرائز المنطلقة ، أية علاقة بين شعري وشعر فيرلين ، الذي هاجمه أكثر من ناقد لتهتكه واستهتاره ، أيمكن أن أكون قد تأثرت في قصيدتي بأمثال « فيرلين » و « روماز كولوس » ؟ يخيل الى أنني اذا كنت قد ألقيت بهؤلاء المؤلفين تحت الفراش منذ بضعة أيام وأخفيت كتبهم عن بصري فذلك لأنني كنت أحس في أعماق روحي بأنني تأثرت بهم .

هذا شنيع .. ان والدي لو علم انني أنحو في شعري هذا النحو لغضب .

وفكرت في أن أسحب القصيدة ثانية ولكنني أشفقت على المجهود الذي بذلته فيها ، كما أنني كنت أوقن بأن زهيرة سوف تعجب بها اذا قرأتها .

● **١٩ يوليو :**

توجهت اليوم مع والدي الى مكتب الأستاذ على عبد القادر الشرقاوي بشارع محمد على ، وهو المكتب الذي أخطرت نقابة

المحامين بأنى سأقضى فيه مدة التمرين ، المحامى صاحب المكتب رجل فى السادسة أو السابعة والخمسين من عمره ، قصير القامة، أسمر اللون ، يبدو عليه أنه من احدى أسر الفلاحين ، يضع على عينيه نظارة تحيط بها أسلاك معدنية ملتوية ، نقد تصادف عند دخولى أنه كان يدق بعض أعقاب سيجار « توسكانا » فى « بيبة » قديمة ليستفيد من تلك الأعقاب فيما بعد بدلا من القائها ، وقد وجه الى بعض النصائح التقليدية المعروفة ، ثم صحبنى الى غرفة مجاورة فيها خمسة مكاتب وأشار الى مكتب فى ركن الغرفة قائلا :

ـ هذا مكتبك يا أستاذ أحمد .. ان دراستك الابتدائية والثانوية بالفرنسية ستعينك على التفوق فى مهنتنا . سوف يحضر لك توفيق أفندى بعض قضايا هذا الأسبوع لتطلع عليها، توفيق هو وكيل مكتبنا ، له خبرة عملية ، أنصحك أن تستفيد منها .

وتركت والدى جالسا معه فى غرفته واقتربت من المكتب، طبقة كثيفة من التراب كانت متراكمة عليه أزلتها بمنديلى ، ولم أكد أجلس على المقعد الموضوع خلفه حتى تبين لى أن احدى السيقان التى يستند عليها المكتب مكسورة .

خيبة مرة ..

أهذه هى الغرفة التى كنت أحلم بالجلوس فيها منذ أعوام بعيدة ، والتى كنت الى أمس فقط أنظم كتبى .. كتب الآداب

الفرنسية والروسية والانجليزية وأعدها للتجليد لكى أزينها بها حتى يراها زوار المكتب وزائراته ؟ أهذا هو المكتب الذى بذلت خمسة عشر عاما من حياتى فى انتظار الجلوس عليه ؟ كانت الغرفة تكاد تكون مظلمة ظلاما حالكا ، ولمحت الخادم داخلا بصينية القهوة الى غرفة الأستاذ صاحب المكتب فناديته ولكنه تمهل فى اجابته كأنه ينكر على الحق فى أن أناديه ، وأخيرا أقبل فى شيء من التضرر وهو يتمتم :

ــ نعم ــ فرجوته :

ــ من فضلك ولع النور ــ ولكنه أجابنى فى لهجة أحسست بأنها لم تخل من شماتة :

ــ الأستاذ منبه علينا ، نور السماء طول النهار ، ونور الكهرباء بعد الغروب .

ــ ولكن داخل هذه الغرفة مظلم لأنها لا تطل على الطريق، كيف يمكننى أن أقرأ هذا الملف ؟

ورفع يده فى تثاقل بعد تلك المناقشة وأدار مفتاح الكهرباء، فأضاء الغرفة مصباح قديم يرسل نورا داكنا انعكس على أرض الغرفة ، قطع كبيرة ضخمة من البلاط القديم الذى يتأرجح تحت الأقدام ، وسألت نفسى مسرعا : أيمكننى أن أستقبل سوزى فى هذا المكتب ؟ ومع ذلك فان العمل القضائى الجديد أنسانى بسرعة ما شعرت به من الضيق ، وأقبلت على قراءة الملف ، كان

خاصا بدعوى اســترداد. أخذت أعد دفاعي فيهــا وأرتب كيف أبدؤه وأحدد نبرات صوتي وأزنها ، لولا خجلي من توفيق أفندي وكيل المكتب الذي كان يختلس نظرات خبيثة الي لوقفت ومثلت لنفسي طريقة دفاعي في دعوى الاسترداد التي سوف أترافع فيها باكر صباحا أمام « محكمة السيدة زينب الجزئية » .

ولكنني اكتفيت بقراءة الملف ست مرات ثم أخذته معي بعد مغادرتي المكتب .

● ٢٥ يوليو :

قرر قاضي « محكمة السيدة زينب » اليوم تأجيل القضية قبل أن يسمع مني كلمة واحدة ، وتحسرت لأن كل ما كنت أعددته من دفاع لم يتل ولم يسمعه أحد ، ولكنني لم أكد أغادر قاعة الجلسة حتى سمعت أحد باعة الصحف ينادي على العدد الجديد من مجلة «الشعلة» ، اشتريته وقلبت صفحاته في لهفة فوقع بصري على قصيدتي « أميرة المرقص » مع كلمة تقديم رشيقة من المحرر.

لا أظن أنني كنت أحس بمثل هذا الزهو الذي غمرني لو كان قد قدر لي أن أترافع في دعوى الاسترداد مرافعة طويلة .. وأن أحصل على حكم لصلحتي فيها ، ولكنني قبل أن أتم قراءة المقدمة التي كتبها محــرر « الشــعلة » وقفت أمام الحوانيت الخشبية المتلاصقة بجوار سور المحكمة ، الحوانيت التي يجلس

فيها كتبة العرائض وسماسرة القضايا ، وساءلت نفسي : كيف أتثبت من أن زهيرة ستقرأ شعرى فى هذه المجلة ؟

فكرت فى أن أرسل لها نسخة منها ، ولكننى سرعان ماتنبهت الى أننى لم أذكر اسمها صراحة فى القصيدة ، من أين لها أن تعرف انها كانت لها وحيا ؟

واضطرمت فى صدرى آراء عديدة •• ولكننى انتهيت الى أن من الأفضل أن أقنع بنشر القصيدة وقراءتها بنفسى •• وليكن بعد ذلك ما يكون ••

● ٢٧ يوليو :

لست أدرى أى خاطر جنونى دفعنى صباح اليوم الى أن أستقل « المترو » وأذهب الى مصر الجديدة ثم أنزل عند مدخل الضاحية وأمر فى هدوء أمام باب المبنى الكبير الذى تسكن زهيرة احدى شققه العالية !

ظللت أرفع بصرى الى نوافذ الشقة •• كانت كلها مغلقة •• استنتجت أنها لا بد أن تكون نائمة •

ومر أحد باعة الصحف وأخذ يوزع بعض الصحف والمجلات على المحلات التجارية والمقاهى المتناثرة فى ذلك الحى دون أن ينتظر ثمنها ، فعرفت أنه بائع الحى ، دخل الى ذلك المبنى الذى

تسكنه زهيرة ثم غادره بعد قليل ، فكرت فى أن أعدو خلفه وأسأله عما اذا كانت ساكنة الطابق الخامس قد اشترت منه عددا من مجلة « الشعلة » •• ولكننى أحسست بأننى لو فعلت ذلك لجرحت ناحية متكبرة من نفسى الشاعرة •• فأسرعت بالعودة الى القاهرة •

● ٢٨ يوليو :

دخل والدى اليوم الى غرفتى بهدوء وجلس الى جانبى على « المقعد الطويل » الذى كنت متمددا عليه أقرأ « ايزابو » للمرة الثانية ثم سألنى فى لهجة لم تخل من تحد :

ـ ما أنت منكب على قراءته ليل نهار ، شعر ومسرح وأدب، ولا أدرى أيضا ما سواه ، أليست من ورائه فائدة ، أية فائدة يا أحمد ؟ ـ وسألته بعد أن جمعت ساقى واعتدلت :

ـ أية فائدة تعنى يا أبى ؟

ـ أعنى ماذا بعد هذه القراءات كلها ؟ عندما يضيع الرجل مثل هذا الوقت الطويل فى شىء أما يجب أن تكون هناك ثمرة ينتظرها منه ؟ ـ وفهمت ما يرمى اليه فأجبته :

ـ نعم •• ولكنى مازلت مبتدئا •• يجب أن أقرأ ، أن أقرأ كثيرا ، أضعاف ما قرأت ، قبل أن أفكر فى الارتزاق من الكتابة •

وعندئذ اعتدل والدى ورفع رأسه فى تحد ثم قال :

ـ والله ما سمعنا من قبل شيئا كهذا .. فى المحاماة مازلت مبتدئا وليس من حقك أن تقبل قضايا باسمك ، وفى الكتابة والأدب والصحافة مازلت مبتدئا ويجب أن تقرأ أربع أو خمس سنين .. لقد توظفت أنا فى وزارة الداخلية قبل أن أبلغ السابعة عشر ، كنت طفلا ، ومع ذلك كنت موظفا من موظفى الحكومة ، فتحت بيتا أنفقت عليه من عرق جبينى ، تزوجت وربيتكم ، ما كنت أحمل أجازة جامعية ولا شبه جامعية ، لا أدرى ماذا جرى فى الدنيا على أيامكم .

ألقى كلماته ثم غادر الغرفة ، وأنا أشيعه ببصرى ، وحاولت أن أتابع قراءة القصة ولكن الكتاب سقط من يدى .

وشعرت بالدموع تتجمع فى عينى ، وبرغبة قوية فى البكاء ، وقمت كالمجنون فأغلقت الباب واعتمدت رأسى بين يدى ثم بكيت .

وحاولت بكل قوتى أن أقنع نفسى بأن حديث والدى لم يكن الا حديثا من أحاديثه العادية ، ولكننى لم أستطع ، كانت تبدو على لهجته نبرة جديدة لم أعتدها منه ، نبرة الشخص الذى يشعر بأنه لم يعد مسئولا عنى والذى يريد أن أتحمل نصيبى من مسئولية الأسرة . ونفقات البيت .

أحس بخوف غريب .. بجبن غريب .. كيف أواجه الحياة وحدى اذا تخلى عنى والدى فجأة ؟

وتحقق ما ظننته اذ وصل الى سمعى صوت والدتى وهى تنتهر والدى فى همس كانت تتعمد أن يطرق سمعى :

ـ ماذا فعلت ؟ ماكنت مصمما على أن تقوله له قلته بلا رحمة ، ألم أكرر لك ليلة أمس أن أعصاب أحمد مرهقة لا تحتمل هذا الكلام الذى يوقع اللقمة من الزور ! كم انقضى من الزمن على تخرجه حتى تستحل أن تؤلمه بالحديث عن مسئوليات الحياة؟ اللهم لا تحوجنا لهم ، أربيناهم لكى نحلبهم وهم بعد فى هذه السن المبكرة .. هل استرحت الآن ؟ ماذا كسبت بعد أن سممت جسده ؟ ـ واشتدت اذ ذاك نوبة بكائى .. فحاولت أن أتجلد وأن أظهر بمظهر الرجولة خشية أن يكون أحد اخوتى الصغار قد سمع المناقشة بين والدى ووالدتى فأقبل يرى ما بى ، وقمت أقلب فى أدراج المكتب ، أخرجت كتابا يحتوى على مجموعة فكاهات فرنسية وأخذت أصطنع الضحك كأننى أقرأ فى ذلك الكتاب .. ولكن وقع بصرى فجأة على احدى رسائل سوزى الى .. أطلت النظر الى الرسالة وأنا أفكر ، هل لسوزى أب يعولها أو أم تعطف عليها وتدافع عنها ؟ ان سوزى غادرت مارسيليا منذ خمسة عشر عاما ـ ومع ذلك فقد استطاعت وحدها ، دون أب أو أم أن تكافح ذلك الكفاح الهائل .

هل سوزى أقوى منى .. ؟

● ٣٠ يوليو :

انتهزت اليوم فرصة خلو غرفة الأستاذ على عبد القادر من الزائرين ، وفاتحته فى تحديد مرتب لى عن عملى فى المكتب .. كنت فى الحق ضعيف الأمل فى أن أفوز بتحقيق طلبى ، وصح ما توقعته اذ أرسل المحامى العجوز دخان « البيبة » المتخلف من أعقاب « التوسكانى » فى هواء الغرفة الواسعة وقال لى وهو يبرم طرف شاربه الغليظ :

ـ أنا يا ابنى مقدر مجهودك ولكن .. ـ وعاد يضع « البيبة » فى فمه وأرسل ضحكة صغيرة ساخرة ثم استمر قائلا فى تردد متكلف ـ ولكن يعنى من منا أحق بأن يأخذ من الآخر ، أنا الذى أعلمك وأمرنك ، أم أنت الذى تتعلم وتتمرن ؟

وأحسست اذ ذاك بيدى تتثلجان تدريجيا ، كنت أريد أن أثور وأصيح ولكننى وجدتنى أشكره وأقره على وجهة نظره ، وغادرت الغرفة وأنا أتعثر فاصطدمت مرة فى المائدة التى تحمل عددا من « منافض » السجائر وبعض الصحف القديمة وأخرى فى « الحاجز الأمامى » الموضوع خلف باب الغرفة ؛ أظلمت الدنيا فى وجهى ، فتحت ملف احدى القضايا التى كان الأستاذ الكبير قد أوصانى بها وحاولت أن أقرأ فلم أع شيئا مما قرأت ، وعندئذ طويت الملف وغادرت المكتب .

كان شارع محمد علي اذ ذاك كعادته في مساء كل يوم مزدحما تمر به قطـارات الترام ، وسـيارات الركاب ، وعربات « الكارو » ، و « موتوسيكلات » الجزارين ، ودراجات الطلبة ، و « دوكارات » أعيان الحلمية .. كما كانت تمر أمامي كلما غادرت المكتب ، ولكنني هذه المرة خيل الى أن راكبيها كانوا ينظرون الى ساخرين ومشـمئزين ، بل اعتقدت عندما تقدمت قليلا في الشارع الآهل متجها الى العتبة الخضراء ان هناك رغبة مبيتة في الاصطدام بي .. وقتلي وسط الزحام الذي يصعب أن تحدد فيه مسئولية .

ومع ذلك .. فمن ذا الذي يطالب بعـدي بتحـديد تلك المسئولية ؟ والدي ؟ لقد خيبت آماله كلها .. وزاد ظلام الدنيا أمام ناظري .. واشتد خوفي فعلا فصـعدت الى الافريز حتى أتوارى خلف أعمدة « البواكي » الضخمة .

وفكرت اذ ذاك في سوزي ، في تلك المرأة الطيبة التي لم تسيء الى قط ولم تنتظر مني نفعا في الوقت الذي أساء العالم كله الى وطالبني بما فوق طاقتي ، حتى والدي ... أفهمني أنني مطالب بسداد ما أنفقه على ، والأستاذ على أشار الى أن من الواجب على أن أدفع له بدل أن يدفع هو لي ! ..

أما سوزي .. انها الشخص الوحيد في هذا العالم الذي استطعت أن أسيء اليه .. ولذا فكرت في أن ألجأ اليها بعد أن

شعرت أن العالم كله يسيء الى فلا أستطيع رد اساءته ، وقوى فكرة الذهاب الى سوزى احساس يشبه الخجل يمنعنى من العودة الى المنزل بعد أن خاب مسعاى لدى صاحب المكتب الذى كنت أقضى فيه فترة التمرين .

وتلقتنى سوزى فى صيحة هائلة ، قفزت وتعلقت بعنقى وأخذت تقبلنى وهى تحرك قدميها من الخلف فى الهواء كطفلة طائشة ، أمسكت بيدى وقادتنى الى داخل الحانة حيث رأيت لوحة مرسومة بالفحم تمثل سيدة تؤدى رقصة من رقصات « التانجو » وقد كتب تحتها بخط جميل « أميرة المرقص » وقالت لى وهى تضع يديها فى خصريها وترفع رأسها فى زهو عجيب :

ـ أترى ؟ رسمت لوحة تمثل قصيدتك التى نشرتها فى « الشعلة » أقسم لك يا أحمد أننى ظللت أربعة أيام أرسم هذه اللوحة ، هل تعلم كم مرة قرأت القصيدة ؟

فقلت لها وأنا أتكلف الهدوء :

ـ مرتين ؟ ثلاث مرات ؟ ـ وعندئذ مدت يدها فى رشاقة وأمسكت طرف أذنى وقالت لى :

ـ قلت لك قبل الآن لا تتكلف الوقار والرزانة .. كنت أستطيع أن أقول لك اننى قرأتها مرة أو مرتين حتى لا أزيدك غرورا ، ولكننى لا أتكلف كما تتكلف أنت الآن ..

لقد قرأت « أميرة المرقص » اثنتين وعشرين مرة ــ وسألتها في لهفة :

ــ وما رأيك ؟

ــ أترى .. ؟ انك تسألني وأنت تتهلل فرحا .. لأنك علمت أنني قرأتها ذلك العدد الكبير من المرات ــ وأشارت الى فمها وقالت :

ــ قبلني ثم اسألني : ما رأيك يا سوزى ؟ وأنا أجيبك ، وقبلتها ثم سألتها :

ــ ما رأيك يا سوزى ؟ ــ وعندئذ تناولت يدى بين يديها ، وضغطت عليهما في رفق ثم قالت لي في صوت هامس حنون وهي ترفع يدى الى صدرها المتهدج :

ــ لن يمكنك أن تتصور يا أحمد كم سعدت وأنا ألمس توفيقك المدهش في هذه القصيدة ، لا أكتمك انني دهشت من قدرتك على كتابة الشعر بذلك الأسلوب الذى يتناهى رقة وسموا وحنانا ، كنت أهوى الشعر وأنا طالبة في مدرسة الراهبات بمارسيليا .. ولكنني بعد هذه الأعوام الطويلة التي قضيتها في حياة الظلام هنا ظننت أن تأثرى بالشعر قد تبلد ، الى أن قرأت قصيدتك ، أحسست توا بأنني اكتسبت خمسة عشر عاما جديدة، وأنني عدت كما كنت شابة مثالية أتغنى بالجمال وأتذوقه .

وأنصت الى تلك الكلمات التى كانت تلقيها سوزى فى حرارة وايمان ، ملأ الزهو صدرى ، فقلت لها :

ــ ما هذا كله يا سوزى ؟ لا أظن اننى أستحق كل هذا ..

ومر بخاطرى اذ ذاك توا موقف والدى وموقف المحامى العجوز فتنهدت تنهيدة طويلة فلم أهنأ بجمال اللحظة التى استمعت فيها الى ثناء سوزى ، وكأنها لحظت ذلك فسألتنى :

ــ ماذا بك ؟ لقد تغيرت مرة واحدة.. ــ فأسرعت باجابتها وأنا أحس برغبة فى أن أصارحها بما يؤلمنى :

ــ لا .. لم أتغير ، أما كنت أقول لك اننى لا أظننى أستحق كل هذا ؟ لقد نشرت القصيدة وفازت من رئيس التحرير بمثل اعجابك وثنائك ولكن ..

ــ ولكن لم يعد ذلك النشر عليك بفائدة مادية ؟ أليس كذلك ؟

ــ أجل ، كنت أستطيع أن أنتظر لولا الظروف السيئة التى أجتازها فى حياتى العائلية ، اننى أجتاز ظروفا خاصة يا سوزى ، لا أريد أن أزعجك ، مالك أنت وما لهذه الأمور الخاصة .

وأسرعت اذ ذاك فعانقتنى ، ثم قالت لى فى حنان :

ــ لم أكن أنتظر أن تقول لى هذا يا أحمد ، لقد فكرت فى ذلك قبلك وتوجهت دون أن أخبرك الى صديق قديم لى يقوم

بالتدريس فى احدى المدارس الثانوية ويراسل من مصر مجلة « الشرق الجديد » فى بيروت ، صديق مارسيلى قديم كان يعرفنى عقب مجيئى الى مصر عندما كنت أشــتغل عاملة فى احــدى الصيدليات بميدان الأوبرا ، ثم انقطعت صلتنا وأصبحت لا أراه الا مرة كل ثلاثة أو أربعة أعوام صدفة فى القنصلية الفرنسية أو عند نافذة الرسائل الخارجية فى مكتب البريد ، وفى كل مرة أنتحل لنفسى أمامه مهنة جديدة ، انه يعتقد الآن أننى أعمل على الآلة الكاتبة فى شركة دخان مصرية وقد دهش عندما رآنى مقبلة عليه وفى يدى عدد « الشعلة » الأخير الذى نشرت فيه قصيدتك « أمير المرقص » ولكننى أفهمته أن صاحب القصيدة يهمنى شأنه لأننى سأستفيد من نسخ قصائده وكتاباته ومؤلفاته على الآلة الكاتبة ، وطلبت اليه أن يبدى رأيه فى «أميرة المرقص» فقرأها .. أقسم لك يا أحمد أنه أكد لى أن القصيدة تنم عن روح شاعر نابغ ينتظره مستقبل عظيم ، وطلب منى أن أعطيه نسخة منها لكى يرسلها الى « الشرق الجديد » ففعلت وأعطيتها له مع عنوانك وعلمت منه بعد ذلك أنه أرسلها وأنه كبير الأمل فى قبولها ونشرها و .. ودفع ثمن مناسب لها ، ثم رجانى أن أقدمك له .

ولما انتهت سوزى من حديثها كنت قد فكرت أكثر من مرة فى أن أقاطعها وأنكر عليها أن تحمل قصيدتى وأن تدعى الصلة

بى أمام من أعرفهم ومن لا أعرفهم ، ولكننى بعد أن سمعت منها فكرة ارسال القصيدة الى « الشرق الجديد » وهى مجلة الاتجاهات الجديدة فى الأدب والفن والشعر ولسان حال الطليعة من النقاد والفنانين والشعراء الذين يكتبون بالفرنسية فى الشرق الأوسط ، شعرت براحة غريبة .

وتذكرت ليلة جلست على المقعد الطويل أقرأ قصة «ايزابو» لبول فور ! وأحلم بأن يتلقى الناس أشعارى كما تلقوا أشعاره ، وأن تمثل قصصى المسرحية على مسارح القاهرة كما مثلت قصصه على مسارح باريس ؟

اننى أعرف أن بعض ما ينشر فى « الشرق الجديد » تنقله بعض المجلات الأدبية فى تونس والجزائر والمغرب .

هل يصبح ذلك الخيال .. ذلك الحلم البعيد حقيقة واقعة ؟

هل يمكن أن ينشر شعرى فى الخارج .. و .. وأن أنال عنه أجرا ؟

ولحظت سوزى أننى أفكر فعادت تقول لى فى لهجة بان فيها وفاؤها العجيب :

ــ ومع ذلك .. فلم تعتمد على صديقى مراسل « الشرق الجديدة » وحده ؟ لقد نسخت لك عناوين عدد كبير من المجلات الفرنسية احتفظت بها وسأعطيها لك ، أرسل لكل منها نسخة من القصيدة ، منها أو من غيرها ، اذا لم توفق مع مجلة ربما وفقت مع

الأخرى ، اننى أحس يا أحمد أنك ستنجح ، ستشتهر وستربح وتصبح عظيما ، أنا واثقة .. فقط لا تتكلف اذ ذاك الوقار والرزانة يا شرير ..

ودخلت الى غرفة صغيرة وراء منصة « البار » ثم عادت بعد أن غابت قليلا وقبلتنى وهى تقول :

ـ عد الى المنزل مبكرا الليلة ، فهمت منك أنك لست على وفاق مع أسرتك .. لا .. هذا لا يليق مطلقا .. عد واصطلح مع الجميع ، لا تكن شريرا مع أسرتك كما أنت معى ـ وهزت رأسها فى بطء ثم قالت وهى تضع الورقة المحتوية على عناوين المجلات فى جيبى :

ـ الى اللقاء يا أحمد ، سأذكرك كلما نظرت الى اللوحة ، لوحتك ولوحتى معا .

● ٣٠ يوليو :

لشد ما كانت دهشتى اليوم صباحا عندما استيقظت من النوم وأردت أن أغير البذلة التى كنت أرتديها أمس ، فيما أنا أقوم بنقل الأوراق التى كانت فى البذلة القديمة وجدت بين أصابعى ورقة من أوراق «البنكنوت» ذات العشرة الجنيهات .

كان منظر الورقة مثيرا لدهشتى بل لذهولى .. من أين جاءت لى هذه الورقة ، بل هذه الثروة ؟

واستعنت بذاكرتى •• لم أجد كبير عناء فى أن أذكر •• لا بد أن تكون سوزى هى التى وضعت تلك الورقة •• ولابد أن تكون قد وضعتها عندما تظاهرت بوضع القائمة المحتوية على عناوين المجلات الفرنسية التى يمكن فى نظرها أن تقبل نشر شعر من أمثالى ، وزالت الدهشة •• أو زال الذهول ، ولكن الدم تصاعد يغلى الى رأسى ، وأحسست بأننى أصبت فى صميم عزتى وأنفتى ، ان رجولتى مرغتها تلك المرأة فى الوحل •

وأسرعت الى مكتبى فسطرت لها هذه الكلمة :

« سيدتى ••

كنت أظن أن المدة الطويلة التى قضيتها فى حياة الظلام قد مكنتك من صحة الحكم على الناس وتفهم أخلاقهم ومبلغ استعدادهم لمسايرة مثيلاتك على امتهان الكرامة ، ولكن يبدو أن تلك المدة قد أحفظتك على الكرامة نفسها وخلقت فيك ميلا شريرا الى التأثير فى كل من له كرامة انسانية ومحاولة اغرائه على ابتذالها ، فقد خيل اليك ــ لأننى اشتد بى الضيق ــ أنه يمكن أن أقبل مالا من امرأة مثلك أعرف من أين لها المال •• هذا خيال من أخيلة الظلام ، ووهم من أوهام الليالى الثملة ، ولذا أرد اليك مالك مع هذه الرسالة وكل ما آسف له وأتحسر هو أننى لم أكتشف هذا المال الا الآن •• والا لما رضيت أن يتسمم به هواء غرفتى ليلة كاملة » •

وبعد أن وضعت النقود داخل المظروف وأقفلته ناديت الخادم وكلفته أن يرسل الخطاب موصى عليه •

● اول اغسطس :

لم تجب سوزى على خطابى ••

لقد خففت عن نفسى بعض الضيق والحنق اللذين انتابانى عقب العثور على النقود فى جيبى •• ولكننى أشعر الآن بأننى قسوت أكثر مما يجب وانها •• سوزى ، لا بد أن تكون قد تألمت غاية الألم عندما تلقت خطابى •

● ٥ اغسطس :

من يدرى ؟ ربما كانت سوزى حسنة النية عندما وضعت النقود فى جيبى •

لشد ما كان فرحى عندما تلقيت اليوم خطابا من محرر مجلة « الشرق الجديد » يخبرنى فيه بوصول قصيدتى «أميرة المرقص» مع توصية من مراسله فى مصر ، ويثنى فيه على القصيدة ويعدنى بنشرها فى العدد التالى ، وقد سقط من الخطاب « شيك » على أحد مصارف القاهرة بمبلغ عشرة جنيهات ، مع رجائه أن أوالى ارسال قصائدى ، من كان يتصور أن حلمى القديم يتحقق بهذه السرعة العجيبة ؟

صحت لفرط فرحي استدعى كل من في البيت وأقبل والدى ووالدتى واخواتى ولما أريتهم « شيك » المجلة اللبنانية ، اقترب منى والدى ثم سألنى فى لهجة كتاب الدواوين : من الذى توسط لك فى هذا النشر يا ابنى ؟

وتذكرت اذ ذاك أمرا كان قد غاب عنى .. سوزى .

أليست هى التى توسطت لدى صديقها مراسل « الشرق الجديد » وأوصته خيرا بقصيدتى ؟ وأحنيت رأسى خجلا .. ولكننى أردت أن أحتفظ برجولتى أمام أبى فقلت :

ـ ماتوسط لى أحد ، بعثت القصيدة للمجلة بنفسى وهى قبلتها وبعثت لى بهذا المبلغ .

وبعد أن هنأنى الجميع اختليت بنفسى .

ألم أكن قاسيا مع سوزى فى موقفى الأخير منها ؟ لم أقابل طيبتها بهذه الغلظة والشراسة ؟ نعم ، ان سوزى رغم كل ذلك طيبة والا لما فعلت كل ذلك من أجلى .

● ١١ اغسطس :

وصلنى اليوم العدد الجديد من « الشرق الجديد » وفى احدى صفحاته المتقدمة قصيدتى « أميرة المرقص » وقد أحاطت بالصفحة صورة دقيقة تمثل مرقصا صاخبا .

هل أكتب الى سوزى كلمة شكر ؟

لا داعى الآن •• يجب أن أرسل الى « الشرق الجديد » قصيدة أخرى •

وجلست أكتب •• اتجه خيالى نحو كتابة حوار مسرحى أمهد به لمأساة شعرية •• ولتكن بطلة تلك القصة امرأة تدعى •• زهيرة ••

● ١٢ أغسطس :

انتهيت من كتابة قصيدتى الجديدة وقدمت لها بأنها منظر من مأساة شعرية عربية عنوانها « زهيرة » ثم أرسلتها الى بيروت •

● ١٤ أغسطس :

قبضت اليوم قيمة « الشيك » عشرة جنيهات ، أحسست عندما غادرت باب المصرف حاملا المبلغ أننى ربحت سندا من سندات البنك العقارى •

من ذا الذى يصدق من بين قراء قصيدتى فى لبنان أو مصر أو سورية أننى أفرح هذا الفرح الشديد بالحصول على مبلغ كهذا ؟

وكان أول ما فكرت فيه وأنا أتحسس المبلغ فى جيبى •• زهيرة ••

ألم يعرفها زميلنا محمود الشيمى بماله ؟ ألست أملك الآن مبلغا من المال يوازى ايراده فى يوم واحد ، فى نصف يوم ، فى بضع ساعات مثلا ؟

لا أريد أكثر من أن أصل الى زهيرة .. أن أكون الى جانبها يوما واحدا .. وليكن بعد ذلك ما يكون ..

● ١٤ أغسطس مساء :

انتهى تفكيرى الى تفضيل الذهاب لرؤية جماعة «ريجينا» القديمة ، كنت واثقـا من أنها مازالت تجلس خلف السـلسلة الحديدية تشاهد أسراب الفتيات المتجهات الى دور السينما أو الخارجات منها ..

وتكلفت وأنا أتقدم الى « ريجينا » نوعا من الرزانة والتؤدة فى مشيتى .

ولكننى لم أكد أدنو من المقهى حتى تبينت فجأة أنى لست فى كبير حاجة الى ذلك التكلف ، فقد قوبلت مقابلة حارة .. وأسرع ابن عمى اسماعيل وفتح صحيفة أمامى فوقع بصرى فورا على رسالة بعنوان :

شاعر عربى شاب
ينال تقدير الدوائر الأدبية الفرنسية

وذكر مراسل الصحيفة فى بيروت بعد ذلك خبر نشر قصيدتى فى « الشرق الجديد » وكيف أن تلك القصيدة قد نبهت بعض الأوساط الأدبية الفرنسية الى وجوب الاهتمام بالشعر العربى الجديد باعتبار أنه لون من ألوان النهضة فى الشرق ، وجلست جماعة « ريجينا » تتحدث معى ، شعرت توا بأنها أصبحت تزهو بوجود شخص مثلى له تلك المكانة بينها .

وتذكرت ما أقبلت من أجله ، ألم أقبل من أجل التفاهم مع الجماعة عن خير الطرق للوصول الى زهيرة !

ولكننى عدت فترددت فى أن أصارحهم بذلك ، ومرت فتاة كان يبدو عليها أنها من عاملات المخازن التجارية ، ولما أطلت النظر اليها صاح بى ابن عمى اسماعيل :

ـ اترك لنا هذا الطراز ياعم ، مالك ومالها ، ستفتح الأبواب أمامك لطراز آخر لا يقطع شوارع القاهرة سيرا على الأقدام .. ستنشر صورك فى الصحف والمجلات ، شعر حب بالفرنسية لشاعر عربى شاب وسيم ، نوع تقبل عليه المحلقات بين السحب من القارئات الأجنبيات ، فرنسيات وايطاليات ويونانيات ، أو عربيات تعلمن فى مدارس الراهبات ممن يتظاهرن بأن قراءة الفرنسية أيسر ، وكلهن ينتمين الى أسر تستعصى على أمثالنا ، من منا قدك ، خلينا فى حالنا يا أحمد .

ولم أكد أسمع ذلك حتى زاد ترددى ، خجلت من أن أبسط لهم قصة زهيرة •

ولكننى وضعت يدى فى جيبى وتحسست الجنيهات العشرة مرة أخرى ؟

ماذا يفيدنى هذا المال اذا لم أصل به الى زهيرة ؟

بل كيف أستحله لنفسي أو لغيرها من نساء العالم وهو انما ثمن الوحى الذى أوحت به الى ليلة رأيتها فى حفلة الجالية الايطالية •

قاومت الرغبة الملحة فى أن التمس معاونتهم فى وضع الخطة التى أصل بها الى زهيرة ابنة المرحوم ابراهيم حلمى فلم أستطع ، وانحنيت على ابن عمى اسماعيل ثم قلت له فى صوت هامس وأنا أتكلف مظهر الاستفسار عن أمر لا يعنينى كثيرا :

ــ ألم تسمع يا اسماعيل عن واحدة اسمها سميرة أو زهيرة لا أذكر تماما ، تسكن فى أول مصر الجديدة بالمبنى الكبير المواجه لمحطة « المترو » ؟

وأطرق ابن عمى قليلا يفكر ثم أجاب :

ــ لم أتعب نفسى ؟ بعد قليل يحضر « الأوسطى » وسوف نسأله وهو الكفيل باعطائك كل المعلومات •

ودهشت أنا عندما سمعت اسم « الأوسطى » فسألته :

ـ « الأوسطى » من ؟ ـ ويظهر أن الجماعة سمعتنى وأنا أسأل ابن عمى فصاح أحدهم ضاحكا :

ـ أعرفت « الأوسطى » ؟ والله عال !

وزادت دهشتى من ذلك الجو الغامض الذى تسبغه جماعة « ريجينا » على شخصية ذلك « الأوسطى » ، أحسست أن فى الأمر دعابة خفية ، ولم تطل دهشتى اذ أنهم جميعا وقفوا فى نوع من الحفاوة المتكلفة لمقدم رجل داكن السمرة أقبل يتهادى وفى يده عصا يطوح بها ، وصاح ابن عمى :

ـ أهلا وسهلا .

ولم يكد يجلس ويتجاذب مع الجماعة أطراف حديث قصير حتى علمت من هو ذلك « الأوسطى » المزعوم ..

ومال اسماعيل على اذن الرجل الأسمر وهمس فيها حتى اذا انتهى رفع الرجل ـ الذى لم أعرف اسمه قط لأن أحدا لم يناده به ـ بصره الى وهز رأسه كأنه ينظر الى طفل ساذج ثم قال لى وهو يحفر رمل الأرض بطرف عصاه :

ـ لا تخف ، لأجل خاطر اسماعيل سأريحك ..

وأرسل فى الهواء ضحكة تفيض سخرية لاذعة ، ثم التفت الى ابراهيم فوزى أحد أعضاء الجماعة وسأله :

ـ الا تذكر يا ابراهيم السهرة التى قضيناها معا فى مصر الجديدة ، عند زهيرة « هانم » ؟

وزاد ، فجأة ، قدر ابراهيم فوزى الكاتب بمصلحة السكك الحديدية فى نظرى مع أننى كنت قبل ذلك أنظر اليه كما أنظر الى مخلوق طفيلى لا نفع منه ولا أثر له ، وجمعت قدمى فى حركة آلية وضممت أطراف سترتى وأخذت أنظر •• الى ابراهيم فوزى نظرة اعجاب واحترام ، بل خيل الى أنه أحق بالاعجاب ، والاحترام من كل حملة الأجازات الجامعية ، والشعراء والأدباء والقصصيين ••

واستمر « الأوسطى » فى كلامه الذى كان موجها الى ابراهيم :

ـ ليلة جلست زهيرة تعزف على « البيانو » وتغنى بالفرنسية وأنت تطل من النافذة الى الطريق فى غير اكتراث وتكرر : عربى ! عربى ! » ••

وهز ابراهيم رأسه كأن الأمر عنده ليس بذى بال وتمتم :

ـ نعم ، أذكرها ، ما الذى جاء بهذه السيرة ؟

فنظر الى « الأوسطى » وابتسم ••

وخيل الى أنه يسخر من خيالى ، وشعرى ، وأحلامى ، فأطرقت •• فى شعور بالخيبة !

● ١٥ أغسطس الساعة ٥ صباحا :

أكتب هذه الكلمات على ضوء خيوط الفجر المتسللة فى تردد وخجل الى ظلام غرفتى .. ترددى وخجلى وأنا أعود الى المنزل فى هــذه الســاعة ، ومــع ذلك فاننى أحس برغبــة هائــلة فى أن أكتب .. أكتب شعرا ونثرا أو أكتب للمسرح .. ولدور الكتب وواجهات المكتبات .. للناس أجمعين .. للرجال والنساء .. نساء الأسر المحافظة ونساء ملاهى الليل و .. وشارع الباب البحرى لحديقة الأزبكية ، وأكتب لنفسى ، لنفسى قبل كل هؤلاء الناس أجمعين ، فيم يهمنى الناس الآن وقد قضيت الليلة عند زهيرة .

الليلة عند زهيرة ..

يا للحلم البعيد الذى تحقق ..

عشرات الصفحات من هذه اليوميات كتبتها وأنا أعيش بوحى زهيرة .. التى لم تكن يدى قد لمست يدها ، وسبعة أشهر ونصف شهر قضيتها أحلم بزهيرة ، وأخيرا تحول الوحى الى حقيقة واقعة، أصبح الحلم سهرة ، طويلة ، ممتعة ، فى منزل زهيرة ..

أكاد أجن .. اننى سعيد .. سعيد رغم كل شىء ، رغم أن زهيرة التى كان يخيل الى أنها لا تعرف الا زميلنا محمود الشيمى فقط .. قد عرفت أمثال ابراهيم فوزى الكاتب بمصلحة السكك

الحديدية .. ماذا يهم ؟ لا يجب أن أطالب زهيرة بأن تقدم حسابا عن الصفحات السود والحمر من ماضيها .. أغلب ظني انها كانت مضطرة الى ذلك اضطرارا ، كانت تحنى رأسها لحكم القدر ، ابنة العز يرغمها ذلك القدر على أن تحيى أمثال ابراهيم فوزى وأن تبتسم له .. بل أن تجالسه وتؤنسه !

لقد عرفت فى ليلة واحدة الشيء الكثير عن حياة زهيرة ، فتحت لى قلبها ، أزاحت الغلالة الحريرية الزرقاء الخفيفة عن صدرها الخمرى الأملس وتحدثت عن آلامها ، كانت كفنان يزيح الستار عن تمثاله ، تمثال عزيز سكب فيه عصارة فنه وأحرق من أجله أعصابه ، كانت زهيرة تتحدث عن آلامها كأنها شيء عزيز ..

امرأة عجيبة ..

انني سعيد رغم تلك الخيبة فى ناحية من حلمى العزيز ، ليس من العدل أن أطالب زهيرة بأن تظهر أمام الناس بحذاء مثقوب كما كنت أظهر أنا ، انني مثلا لا يمكن أن أعترف لها بذلك الجزء من الماضى .. ماضى البذلة الواحدة ترسل الى الكواء ثم أجلس أنتظر أوبتها ، والتجول بقروش معدودة فى شوارع القاهرة اعتمادا على اشتراك الترام المخفض للطلبة ، وماضى الحذاء المثقوب ثم الحذاء ذى نصف النعل ، ولو سألتنى لأنكرت ذلك الماضى ، كما أنكرت هى معرفتها بابراهيم فوزى عندما سألتها عنه .

لتعرف ابراهيم ولتعرف بجانبه العشرات .. لا يعنينى هذا .

ولكن .. ولكن الذى يثير زهوى حقا أننى فى ليلة واحدة استطعت أن أكون شيئا الى جانب زهيرة مع أنه كان يخيل الى قبلئذ أننى سوف أتلاشى الى جانبها ، لقد عرفت زهيرة من أنا ، عرفتنى وأطلعتنى على قصيدتى عندها موضوعة تحت وسادة محشوة بريش النعام ، وبعد أن كانت تملأ الغرفة مرحا بغنائها مصحوبا بعزفها الثائر على « البيانو » سكتت وأطالت النظر الى فى شرود حالم .

فقلت لها :

ـ من هى المرأة التى تظنينها أوحت الى بهذا الشعر ؟ ـ فرفعت كتفها فى رشاقة أسقطت عنه « ثوب الغرفة » الأزرق وأجابت :

ـ من يدرى ؟ ـ فابتسمت ابتسامة خفيفة وقلت :

ـ اذن اعلمى ياسيدتى ان المرأة التى أوحت الى بذلك هى .. هى أنت ..

ورجعت زهيرة الى الخلف قليلا وهى تشهق شهقة حادة ، ثم مدت يدها الى مجلة « الشعلة » وأدنتها من عينيها ، كان ضوء الغرفة الأحمر القاتم يعكس خيالها على الحائط وهى تعيد قراءة قصيدتى « أميرة المرقص » ، كان ذلك الخيال المنعكس وحده تحفة فنية رائعة .

ـ أنا •• هل تعرفنى من قبل ؟

ـ لا ، رأيتك مرتين •• مرة فى مرقص •• وأخرى فى سيارة أحد زملائى •

ـ من ؟

ـ محمود الشيمى •

وفكرت زهيرة قليلا ثم قالت :

ـ آه •• سيارة صفراء اللون •

فسكت ، وتبينت هى أننى أتعمد تغيير الحديث فقامت وجلست الى جانبى ثم تناولت يدى واعتمدتها بين يديها وهى تقول فى صوت متهدج :

ـ تعرف •• انت مدهش •• ـ فقلت :

ـ وأنت ••• ؟

ـ لست أدرى •

ـ مدهشة أقسم لك •

ـ يا حبيبى •• ـ ثم طوقتنى بذراعها العارية وعشنا فى قبلة ، طويلة ••

وأخبرتها عن قصيدتى الثانية •• القصيدة التى أرسلتها الى « الشرق الجديد » منذ ثلاثة أيام •• وأخرجت « مسودة » القصيدة ، وفيها اسمها ، وعادت زهيرة تقول فى نشوة مجنونة :

ـ يا حبيبى ••

وأحسست أنا بكل العالم تحت قدمى ، ومع ذلك سألتها بسرعة عن ابراهيم فوزى وأنا أنتظر أن تنكر معرفته ، فلما أنكرتها فعلا اكتفيت بذلك مع يقينى بأنها تكذب •

مرة أخرى •• لا يعنينى ذلك الماضى الذى عاشته زهيرة بعيدة عنى •• ان ذلك الماضى تملكه هى دون سواها •• ومن العنت أن أحاسبها عليه •

ما هذا •• ؟ لم أكرر ذكر ماضى زهيرة وأعيد ما سبق أن كتبته مع أن خيوط الفجر المتسللة الى ظلام حجرتى تتزايد جرأة وعتوا ••

اننى منهك •• والسطور ترقص أمامى كفرقة زنجية ثملة •• ولكننى مع ذلك لا أستطيع أن أضع القلم وأنام لأستريح •• أتخيل زهيرة الآن أمامى فى الظلام •• أتخيلها تودعنى الى الباب وقد تدلى « ثوب الغرفة » الحريرى الأزرق فكشف عن كتفها ، وقد تحسست مكان محفظتى وأنا خلف زجاج الباب ولكننى لم أشعر الا وكف زهيرة تهوى على صدغى وصوت منتحب باك يقول :

ـ أنت مجنون ، لو لم تكن أصغر منى سنا بكثير لما اغتفرت لك هذا ، لست كما خيل اليك •• أو كما قيل لك •• قد أكون

كذلك بالنسبة لغيرك أيها الطفل الكبير .. أما أنت ـ ثم مدت يدها وفتحت الباب والدموع لا تزال تجرى من عينيها الواسعتين وهى تتابع قولها ـ أما انت فعد الى بيتك ، لا يجب أن تعتاد على التأخر خارج البيت الى هذا الحد يا أحمد ، الى اللقاء يا صديقى العزيز ـ وخرجت بعد أن أقفلت الباب ، وهبطت بضع درجات ، ولكننى وقفت قليلا واختلست نظرة الى الشقة التى تسكنها زهيرة ، فرأيت خيالها خلف زجاج الباب ، لم تعد الى فراشها توا بل استندت برأسـها الى الحائط ، ورفعت منديلها الصغير الى عينيها .

انها تبكى ولا شك ...

وأنا هنا أيضا أبكى ..

● ١٦ اغسطس :

كان أول ما فكرت فيه عندما استيقظت من النوم زهيرة .. تركتها فى الفجر تبكى عند باب منزلها .. بكت كثيرا وهى تسرد لى آلامها ، الآلام التى احتملتها فى شجاعة عقب خيانة زوجها من أجل صديق كانت تؤمن بنبله واجترأت على الخيانة من أجله ، ولكنه حطم حياتها وتخلى عنها ..

كم كنت متعبا منهوك القوى أمس .. كانت الناحية القوية

من شخصيتها مسيطرة على الى حد أننى لم أرد أن أسجل آلامها وعبراتها فى هذه المذكرات •

لقد بكت زهيرة وهى ثملة ، كانت ثملة عندما ذهبت لزيارتها فى الساعة السابعة مساء بعد أن مهد الرجل الأسمر الذى مازلت أجهل اسمه لذلك الموعد ، وشربنا معا ، فلما كشفت لها عن شخصيتى أحست المسكينة الى جانبها بروح صقلها الألم كما صقل روحها ، فتدفقت شجونها ، ومع ذلك ، مع كل هذه الحلقات من الخيبة فى حلمى عن زهيرة •• لم تزل أمامى قوية جبارة ، بل لقد زادت قوة عما كان يصورها لى خيالى •

ان خيال زهيرة الثملة الباكية خلف زجاج الباب فى فجر أمس أرفع قيمة عندى من شعر الانسانية كلها •• وهذا الشعر لن تلوثه ذكرى كيف « وصلت » الى زهيرة •• ولا من عرفها قبلى ••

ليقل الناس عنى ما يشاءون فأنا لا أعبأ بكلام الناس ••

اننى كشاعر مكلف بأن أضع لهم النظم التى تقوم عليها حياتهم لا أن أخضع أنا لنظمهم السخيفة ••

لم أكد أصل فى تفكيرى الى هذا الحد حتى غادرت المنزل وتوجهت الى أقرب تليفون فى صيدلية مجاورة لبيتنا وطلبت زهيرة ، أجابتنى هى بنفسها ولم تكد تعرفنى حتى صاحت :

ـــ هو آنت ؟

ـــ أجل ، هو أنا .

ـــ كيف أصبحت ؟ هل تعرف يا طفلى الكبير أننى ظللت مدة طويلة قلقة من أجلك ، ان الأطفال أمثالك يجب أن يعاقبوا اذا تأخروا خارج بيوتهم كما تأخرت أمس .. ـــ وأرسلت ضحكة ساخرة ثم استدركت قائلة فى صوت خافت ـــ أو بتعبير أصح كما تأخرت اليوم !

ودهشت أنا لهذه اللهجة التى كانت تحدثنى بها ، كأننا صديقان منذ أعوام ، وقلت :

ـــ اننى أتحدث اليك لأسأل عن صحتك ، تركتك عند الفجر فى حالة .. ـــ وقبل أن أتم كلامى قاطعتنى قائلة :

ـــ أوه ! .. لا تحكم على الشخص بحالته وهو ثمل .

وفهمت توا أنها تريد أن توهمنى بأنها اذا كانت قد بكت أو اعترفت بشىء من آلامها فانما لأنها كانت ثملة . فسكت الى أن سألتنى .

ـــ متى تحضر لأراك ؟

ـــ عندما لا يكون هناك ما يشغلك ..

ـــ ليس عندى ما يشغلنى قط .

ــ دائما ؟

ــ دائما ، وبلا استثناء ، اننى حرة أتصرف فى وقتى كما أشاء ، ليس لأحد سلطان على ••

ــ حسنا ، أأستطيع أن أرك الليلة ؟

ــ الليلة ، فى أية ساعة ؟

ــ كما تشائين •

ــ قلت لك كما تشاء أنت •

ــ الساعة التاسعة •

ــ آه •• بعد موعد مكتبك ، هذا عيب المحامين ، حسنا • الى هذا المساء يا حبيبى •

ــ الى هذا المساء •

ــ الى هذا المساء يا •• حبيبى •• ــ وضغطت على كلمة « حبيبى » ضغطا خاصا فخيل الى أننى أخطأت وتمتمت :

ــ الى اللقاء ياسيدتى ــ وعندئذ أرسلت فى التليفون ضحكة عالية وقالت :

ــ قلت لك انك طفل كبير ، ماهذه الـ « سيدتى » ياطفلى الكبير ؟ أجبنى كما أناديك ــ فخجلت وقلت لها :

ــ الى اللقاء يا حبيبتى

ماذا يجذبنى نحو هذه المرأة ؟

لقد تحقق الكثير مما كنت أحلم به ، عرفتها وعرفتني ، ومع ذلك فمجرد التفكير في أنني سأراها الليلة يخفق له قلبي خفقانا شديدا .

● ١٧ أغسطس :

صوت مؤذن مسجد السيدة زينب الداعي الى صلاة الفجر يدوي في أذني وأنا أعود الى البيت بعد أن بدأ يوم جديد ..

لقد أقبلت على حياة جديدة ، دنيا جديدة .. أثر علاقتي بزهيرة ، مافي هذا شك .

لا أحب أن أذكر تلك البؤرة التي تعيش فيها سوزي ، تلك الحانة الضيقة التي تختنق فيها الأنفاس وتزكم أنوف زبائنها رائحة روث الخيول التي تجر العربات الراكدة الى جانب أفاريز الحي ، وتلك الضجة التي تسمع بين حين وآخر خلال المشاجرات مع خادمة الحانة أو راقصة أو امرأة من نساء الظلام ، كيف يمكن أن أقارن بين تلك الصداقة السابقة وبين هذه الصداقة الجديدة مع زهيرة ؟ الشقة الهادئة في ذلك المبنى القائم عند مدخل « مصر الجديدة »، والغرفة الرشيقة الفاتنة ذات المقاعد الحمر ، و « البيانو » الأسود الجاثم في ركنها وعليه فوضى من القطع الموسيقية تحمل طائفة من أغرب العناوين كل منها يصلح أن يكون عنوانا لقصيدة .. أو مأساة شعرية ..

أحس بأنني سموت بهذه العلاقة الجديدة .

ولكن لماذا ؟ رقى الحى ، وأناقة الشقة ، ووجاهة الأثاث ؟

لا أظن .. يخيل الى أن هناك فى أعماق روحى ناحية تسعد بهذه العلاقة،فقد نشأت فى أسرة رقيقة الحال ولذا كنت أنقم على زملائى الذين أتاحت لهم ثروتهم الفوز بأمثال زهيرة من النساء ، فنقمت على زميلنا القديم محمود الشيمى ، ونقمت على ذلك « اليخت » الراسى على شاطىء النيل على مقربة من كلية الحقوق .

ثم زهيرة نفسها ، أليست ابنة المرحوم ابراهيم حلمى ؟ الم يكن والدها أغنى من والدى وأيسر حالا وأعلى مقاما ؟ ألا يتناقل الناس ان زهيرة سليلة بيت كبير ؟

ولكن .. أى فخر فى أن أعرف امرأة كسوزى ؟

● ١٩ أغسطس :

نشرت احدى الصحف اليوم برقية لمراسلها فى باريس جاء فيها : « نشرت مجلة « ميركوره فرانس » أمس قصيدة لشاعر عربى شاب يسمى أحمد علوى مقتبسة من درامة شعرية له عنوانها « زهيرة » وقد قابلتها صحف المساء بتقدير عميق » .

ما هذا النجاح السريع ؟ هذا شىء لم أكن أنتظره قط ،

لقد أعدت تلاوة الخبر عشرات المرات ، حتى دخل والدى وسألنى عما أقرأ فأجبته متكلفا الهدوء :

ــ يظهر أن قصيدتى الجديدة أثارت ضجة فى باريس ــ وظهر الدهش على وجه والدى فقال :

ــ كيف ؟ ــ وتناول الصحيفة لتصفحها فأعطيتها له دون أن أقف كما كانت عادتى ، وعندما أخذ يقرأ البرقية شعرت برغبة فى أن أنظر اليه وهو يخفى وجهه خلف الصحيفة وأن ابتسم ابتسامة المنتصر ، ولولا أننى خشيت أن يلتفت لأخرجت لسانى .

كان يلومنى ويعنفنى على أننى تأخرت فى الارتزاق من عملى القضائى ، ولكننى استطعت أن أكسب من شعرى ..

وخطرت لى اذ ذاك فكرة اعتزال المحاماة ، لا لسبب الا لأثبت لوالدى أننى لم أعد فى حاجة الى المهنة التى أعدنى لها . وفاتحته فعلا فى فكرة اعتزال المحاماة فعارضنى ، ولكننى أجبته فى لهجة لم يفته معناها :

ــ ألم تصارحنى بأن أعتمد على نفسى فى التماس الرزق ومواجهة مسئوليات الحياة ؟

ــ أجل .

ــ طيب .. المحاماة ليست لى مصدر رزق فى الوقت الحاضر ، بين يدى مهنة أخرى تعولنى وتسد حاجتى ..

وقد لحظ والدى التغير فى لهجتى فألقى بالصحيفة وغادر الغـرفة ، وعندئذ ارتديت ثيـابى وأسرعت لأبلغ زهيرة الخبر بالتليفون فعلمت أنها كانت قد سبقتنى الى قراءته ودعتنى الى تناول الغداء عندها •

● ٢٣ اغسطس ـ بعد منتصف الليل :

غادرت الآن بيت زهيرة ، لا أحس بالوقت وأنا الى جانب هذه المرأة ، كلما توثقت صلتى بها زدت ميلا اليها •

تناولنا الطعام سويا وقدمت الى أثناء الطعام بيدها كأسا من النبيذ ورفعت كأسـها بعد أن قرعت بها كأسى وشربت نخب قصتى وقصتها •• « زهيرة » •

وبعد أن انتهينا من الطعام انتقلنا الى غرفة الاستقبال ، الغرفة الهادئة ذات الأثاث الأحمر التى يقوم « البيانو » فى أحد جوانبها ، واتجهت زهيرة الى « البيانو » ثم جلست الى المقعد الذى أمامه وعزفت •• عزفت •• « تانجو مى نوستالجيا » الذى كانت ترقص على أنغامه عندما رأيتها للمرة الأولى فى حفلة الجالية الايطالية ، وظلت تعزف فى نشوة وقوة واحساس عميق كأنها تريد أن تخلق من ذلك الحلم القديم البعيد عملا فنيا حيا يضاهى العمل الذى قمت به أنا ، ثم لفت على المقعد بسرعة عقب انتهائها من العزف ونظرت الى نظرة حالمة طويلة وجو الغـرفة لا يزال

مشبعا بأنغام « تانجومى نوستالجيا » ، وبعد قليل نهضت وتقدمت الى فى بطء شديد وقد انسدل شعرها على كتفيها ثم ارتمت تضمنى وكأنها تقول :

ـ هأنذا •• أخيرا بين ذراعيك ••

والتقت شفاهنا فى قبلة نشوى هادئة كنغمة من « تانجو حنينى » ، وفيما نحن كذلك دقت الخادمة على الباب وهى تقول :

ـ يطلبونك فى التليفون ياسيدتى •

ـ من ؟

فلم تجب الخادمة ، ولكن زهيرة قالت لها :

ـ تكلمى ، من ؟

ـ واحد اسمه ابراهيم فوزى •

وخفق قلبى اذ ذاك ، ارتجفت ، والتفتت زهيرة الى تسألنى:

ـ ألم تذكر هذا الاسم أمامى ذات مرة ؟ ـ فأجبتها بابتسامة باهتة ، وعندئذ قالت زهيرة لخادمتها وكأنها لحظت اضطرابى وامتقاع وجهى :

ـ قولى له اننى لست هنا ••

واعترضت الخادمة فى لهجة تقليدية خبيثة :

ــ قلت له ياسيدتي انك هنا •

ــ قولي له انك تبينت بعد ذلك أنني خرجت •

ولما انصرفت الخادمة متأففة طوقتني زهيرة بذراعيها وأخذت تغمرني بقبلاتها وهي تقول :

ــ ليسألني أولئك الناشرون عنك •• انك طفل كبير يا أحمد •

فتمتمت :

ــ ولم ؟

ــ لأنك تغضب من لا شيء •

فضحكت ضحكة حاولت ألا تكون جافة وقلت :

ــ من قال لك انني غضبت ؟

وعندئذ رفعت زهيرة ذراعيها من حول عنقي في بطء شديد وأطرقت الى الأرض ثم ضمت عينيها حتى التقى حاجباها في أعلى أنفها الدقيق وأجابتني في صوت خافت :

ــ أو تظن ان امرأة مثلي تعجز عن أن تقرأ ما يدور في خاطر شاب مثلك ؟ ــ ورفعت رأسها قليلا ثم ألقت نظرة فاحصة على كل مافي الغرفة •• الى قطع الموسيقى الملقاة في فوضاها الرائعة على كل أثاث الغرفة •• الى اللعب الصغيرة الزاهية الألوان المتناثرة على رفوف صغيرة •• وأخيرا وقفت فجأة وقد تجهم

وجهها ثم قالت فى صوت متهدج حاولت أن تستره بجبروت وقفتها المسرحية :

ـــ ما الذى جعلك تعرفنى أو جعلنى أعرفك .. ؟ اننى أكبر منك سنا ، أكبر منك بكثير ، فقد تجاوزت الخامسة والثلاثين وأنت لم تصل الى الخامسة والعشرين ، انك شاب لا ماضى لك .. شخص يسير فى الطريق بلا ماض ، أما أنا فلى ماض طويل ، ماض حافل بالذكريات والمغامرات ، صفحات لا عدد لها من كتاب زاخر بالمآسى ، وليس هذا الحديث التليفونى الذى أزعجك الا سطرا مختفيا وسط احدى صفحاته السود .. ان من الخطأ ياصديقى أن تعرف امرأة مثلى ، ابحث لك عن أخرى لا ماضى لها ، فانك بعد قليل ستحس بعبء ماضى أنا على كتفيك الشابتين ، نعم .. مرة واحدة ستشعر وقد أصبحت تبدو أمام الناس بماض جديد .. هو ماضى الطويل الذى لم تكن لك ياصديقى المسكين يد فيه ..

وكان تهدج صوتها اذ ذاك قد وصل الى حد النحيب ، وتنازعتنى اذ ذاك عاطفتان غريبتان ، عاطفة الشفقة عليها ، وعاطفة الرغبة فى أن أبدو أمامها قادرا على أن أتحمل تبعة علاقتى بها ، وتجسمت فى خيالى فكرة أنها تنظر الى كطفل كبير ـــ على حد قولها ـــ فاعتزمت أن أتظاهر بأن ما ذكرته لى لا يعد غريبا فى

نظرى ، وأننى عندما استوحيت منها قصائدى وشعرى انما كنت أعلم عنها كل شيء ، وقلت لها :

ــ لو لم أكن معك هنا منذ الظهيرة لقلت انك ثملة .. ما هذا كله ؟ انك مع كل ذلك لم تأت بشيء جديد فيما يبدو لى .. اللهم الا انك طيبة القلب وهذا شيء كنت واثقا منه أيضا قبل الآن ..

واغرورقت عيناها بالدموع ولكنها كانت تضحك ، وسالت دموعها على وجنتيها ولكنها لم تعن بأن تجففها وظلت تضحك .. تضحك عاليا ضحكات مجنونة .. فقلت لها :

ــ لقد تصالحنا ــ فقالت لى وهى تجذبنى الى «البيانو» :

ــ سأعلمك كيف تعزف « مى نوستالجيا » على «البيانو» ، ألم أعدك بذلك يا طفلى الكبير ؟

ــ نعم .

ــ اذن اجلس ــ وجلست على المقعد الصغير الموضوع أمام « البيانو » ووقفت زهيرة الى جانبى وقد ألصقت وجهها الملتهب بوجهى ، وأمسكت بأصابعى وأخذت تحركها على أصابع «البيانو» العاجية وهى تنشد .. أغنية التانجو الايطالية بصوت عال والدموع لا تزال تنهمر من عينيها .

● ٢٤ أغسطس :

زرت زهيرة بعد أن حدثتها فى التليفون صباحا وعلمت منها أنها قضت ليلة مزعجة وأحست فى الصباح بتعب شديد ، ولكننى لم أطل المكوث لديها ، لأن الخادمة تكرر دخولها لتنبئها بأن أشخاصا يطلبونهـا للتحـدث معهم فى التليفون ، وقد تعمدت الا أبتسم أو أسخر كما فعلت أمس ، ومع ذلك كانت زهيرة تقول لها فى كل مرة :

ــ قولى له اننى لست هنا ●● ــ وفى كل مرة كنت أطلب اليها أن ترد على المتحدث ، ولكنها كانت تضع يدها على فمى وتبتسم ●●

أما الخادمة فكانت فى كل مرة تخرج متأففة وهى تختلس نظرة حقد الى ، وقد غادرت المنزل وزهيرة تلح على فى العودة لزيارتها مساء ●

سألت نفسى اليوم بعد عودتى الى منزلى بماذا أشعر نحو زهيرة ؟ وتعمدت أن أستعرض ما علمته عن ماضيها الذى أشارت اليه وأن أجسم صفحاته السود ، ومع كل ذلك كنت أجدنى مسوقا الى الاحساس بأن عاطفتى تزداد قوة وثباتا ، بل اننى أخذت أضحك بصوت عال فى غرفتى ، وأخرجت من درجى ورقا أبيض وجلست أكمل مأساتى الشعرية « زهيرة » ●

انني لم أحب قبل الآن •• كانت علاقتي بسوزى علاقة طالب فقير بامرأة من عرض الطريق ، لا يكفى أن تكون هى قد أحبتنى مادمت لم أشعر نحوها بعاطفة ، أما زهيرة فلا شك أننى أحببتها، واذا صح أنها أحبتنى كما يبدو لى فماضيها لا يعنينى •• بل ان ذلك الماضى كلما احتشد بالمآسى والتجارب دل على أننى استطعت أن أخضع امرأة أخضعت الكثيرين غيرى ، لى •• لى أنا من ماضيها شاهد على ذلك •

وضعت اسطوانة « مى نوستالجيا » على الحاكى وأدرته ، ثم جلست أكتب وأنا أحس بنشوة غريبة ••

● **أول سبتمبر :**

تلقيت اليوم رسالة انطوت على خمسة عشر جنيهـا فى مقابل نشر قصيدتى « أميرة المرقص » و « زهيرة » فى بعض المجلات التونسية والجزائرية والمغربية التى تصـدر بالفرنسـية

● **٦ سبتمبر :**

جاءنى الآن توفيق وكيل مكتب الأستاذ على عبد القادر وسألنى فى لهجة استعطاف لم أعهدها منه :

ــ أين أنت يا أستاذ ؟ الأستاذ الكبير يسأل عنك ، وكتبة

المكتب يسألون عنك ، والعملاء كلهم يتساءلون : أين الأستاذ علوى ؟

واقترب منى ثم همس فى أذنى قائلا : وبعض « الهوانم » يسألن عنك فى التليفون ..

فدهشت وسألته :

ـ من ؟

ـ سيدة يا أستاذ لم ترض أن تفصح عن اسمها ، اكتفت بأن طلبت أن نقول لك : جماعة مصر الجديدة .

وفهمت توا ، لا بد أن تكون زهيرة هى التى تحدثت الى بعد أن لحظت أننى لم أمر عليها منذ عدة أيام ، فرأت أن تتحدث الى المكتب الذى أقضى فيه مدة التمرين مادام ذلك لا يتيسر فى بيتنا .

ولكن ما الذى جعل توفيقا يهتم بالحضور الى منزلى لينقل الى هذه الرسالة التي قد تهمنى أنا ولكنها لا تهم المكتب فى شىء؟ ولكنى سرعان ما فهمت عندما قال لى :

ـ جئت لأن الأستاذ عبد القادر لزم الفراش منذ يومين لمرض طارىء ، ونسيبى شقيق زوجتى مدع فى قضية ستنظر باكر أمام محكمة الوايلى ، أرجو أن تحضر سيادتك فيها ، قضية شخصية جاهزة لها فى المكتب سنتان لا تتطلب من سيادتك

الا كلمتين ، قرأنا فى الصحف الأخبار الطيبة عن كتابات سيادتك فى المجلات ، شيء والله فرحنا له كلنا ..

ووعدته بالحضور ، ولكننى عجبت لهذا التطور فى أخلاق توفيق ، عندما كنت فى حاجة الى التمرين فى المكتب ولا عمل لى غيره كانت تساء معاملتى ، فلما انقطعت وعرف أن لى عملا آخر .. جاء الى منزلى يسعى ويرجو عودتى الى المكتب ..

ان النساء معذورات اذا ألهبهن اهمال الرجال وعدم اكتراثهم مادام الرجال .. حتى توفيق الفظ قد تطورت أخلاقه بهذه السرعة .. عندما أدرك اننى لم أعد فى حاجة الى العمل فى المكتب .. والى ارشاداته !

ولكن ، لماذا أرادت زهيرة أن تحدثنى فى مكتب الأستاذ على عبد القادر ؟

● ٧ سبتمبر :

ـ أنا سمينة أم رفيعة ؟

هكذا فاجأتنى زهيرة اليوم عندما ذهبت لزيارتها بعد أن حضرت فى قضية نسيب توفيق وكيل المكتب، وقد دهشت لذلك، ورأيتها تحضر صحيفة فى يدها ، فأجبت بسؤال آخر :

ـ لم ؟

ـ لا تسأل قبل كل شيء ، أنا سمينة أم رفيعة ؟

ـ رفيعة ...

ـ لا .. ياسيدى هذه الصحيفة ظنت أننى سمينة ، فطست من الضحك لما رأيت صورتى أمس ، أنظر ـ وقدمت لى صحيفة أسبوعية نقلت الجزء الثانى من قصتى « زهيرة » التى تنشر فى بيروت وزينتها بصورة لبطلة القصة التى خيل الى مصورها أنها بدينة مترهلة . وأحسست بزهو عجيب يملأ صدرى لاهتمام الصحيفة بنقل ذلك الفصل من مأساتى الشعرية .

ومر فى خيالى اذ ذاك طيف سوزى ، ألا يعود الفضل اليها فى هذا النجاح الذى أصبته سريعا ؟

لو لم تتحدث الى صديقها مراسل « الشرق الجديد » لما مهد السبيل أمامى بهذه السرعة ، وخيل الى أن أفضى الى زهيرة بهذا السر ، خطر لى أن أصارحها بأن اسمها الذى ترده الصحف والمجلات انما يعود الفضل فيه الى امرأة تعيش حياة الظلام فى احدى حانات شارع الباب البحرى لحديقة الازبكية ، وقد تكون واقفة الآن فى ثوب نصف عار تنتظر زائرها المجهول ..

ولكننى استبعدت الفكرة سريعا ، لم أطق أن تعلم زهيرة أن فى الوجود شخصا آخر شاركنى هذا المجد .

● ٩ سبتمبر :

تلقيت الآن رسالة من مجلة تونسية تصدر بالفرنسية تذكر فيها أنها استأذنت « الشرق الجديد » فى نشر « زهيرة » ، وقد طويت الرسالة على تحويل بمبلغ عشرين جنيها ، وطلبت فى لهجة رقيقة أن أكتب لها فصلا عن « المسرح المصرى الجديد »

ماذا أفعل بهذا المبلغ ؟

لقد أعطيت والدتى عشرة جنيهات من المبلغ الذى وصلنى أخيرا .. ولكن هذا المبلغ الجديد هل أرسل منه جزءا الى سوزى ؟

من يدرى ؟ .. لعلها فى حاجة الى المال .. انها ليست فى مقتبل العمر .. ليلة واحدة من ليالى تلك الحياة التى تعيشها تساوى فى هولها عاما من الحياة العادية التى نعيشها .. ولكننا لسنا على وفاق منذ أرسلت اليها رسالتى السابقة ، اذا كانت قد غضبت لشدة تلك الرسالة وقسوتها فأنا لست مطالبا بأن أسعى الى الصلح معها ، كانت هناك أكثر من فرصة تستطيع أن تنتهزها هى لذلك ، كان يمكن أن تهنئنى عندما نشرت قصيدتى الأولى « أميرة المرقص » ولكنها لم تفعل .

وانتهى تفكيرى الى دعوة زهيرة لتناول العشاء ومشاهدة

فرقة راقصات مجرية فى بهو أحد فنادق القاهرة الكبرى أعلنت الصحف أمس عن حضورها •

الفندق الفخم ذو الشرفة الكبيرة التى حدثنى زميلى محمود الشيمى يوما ما فى فناء الكلية انه طالما رأى زهيرة تتناول الشاى فيها •

ودون أن أشعر ألقيت نظرة مختلسة الى حذائى •• كان حذاء جديدا من الجلد اللامع ، وتذكرت حذائى القديم الذى ظل مثقوبا مدة طويلة حتى حظى بنصف نعل عقب ملاحظة ابن عمى اسماعيل ، تذكرت الأيام التى كنت أمر فيها على افريز الفندق الكبير تحت الشرفة أرفع بصرى الى أحذية الجالسين حول الموائد المطلة على الميدان الواسع وأفحص أشكالها ، وأحجامها وطرزها المختلفة •

أهناك فرق بين الحياتين ؟

لا أظن •• أنا لم أتغير •• اللهم الا أن المال قد مكننى من أن أتصل بالمرأة التى أستوحى منها عملى الفنى •• وفجأة خطر لى هذا السؤال الساذج : ولكن اذا أتممت هذا العمل الفنى هل من غضاضة فى أن أعود الى حياتى الأولى حياة الفقر •• والحذاء المثقوب ؟

من يدرى ؟

● ١٠ سبتمبر :

رباه .. هذا فظيع !

أفقت الآن من النوم .. زهيرة تغط فى نوم مضطرب وقد ذاب كحل عينيها واختلط بحمرة وجنتيها .

للمرة الأولى فى حياتى أقضى الليل كله خارج المنزل ، كان هذا أول مافكرت فيه عقب يقظتى من النوم .. وفكرت فى والدتى ووالدى .. انهما يبحثان عنى الآن بلا شك ..

ماذا حدث ليلة أمس ؟

كانت ليلة هائلة .

لست أذكر بالضبط ماذا حدث، ولكننى أذكر أننى صعدت الى شرفة الفنـدق وزهيرة متعلقة بذراعى ، كانت ترتدى ثوبا رماديا فاتنا من ثياب السهرة ..

وقد لفت دخولنا نظر الجالسين ولكن هذا لم يزعجنى كما كان يزعجنى ظهورى مع سـوزى أمام الناس ، بل بالعـكس شعرت بنوع من الفخر وزهيرة تبدو معى أمام زبائن الفندق ..

وتناولنا العشاء .. ثم شربنا .. لا أذكر كم كأسا،ولكننا شربنا كثيرا ..

وشاهدنا الفرقة المجرية التى غنت احدى فتياتها أغنية من

أغاني الغجر أثارت في نفسي احساسا غريبا •• احساسا أعادني الى الفطرة المتجردة من كل زيف •• والتفت الى زهيرة اذ ذاك فوجدتها تبكي وهي ترفع كأسها الى شفتيها وتضحك ••العجيب ان هذا الموقف •• موقف زهيرة وهي تبكي والكأس ملتصقة بشفتيها كنت قد فكرت فيه أمس ووضعته في مشهد من مشاهد قصتي « زهيرة » ••

وشيء آخر أثار دهشتي •• و •• واضطرابي في سهرة أمس ، ذلك هو دخول رشدي « أفندي » ضابطنا القديم بمدرسة المنصورة الابتدائية ، لقد أقبل ليشاهد فرقة الراقصات المجرية مع بعض أصدقائه ، ولكنني لاحظت انه كان ينظر الى زهيرة نظرات شخص له بها صلة سابقة ، ولاحظت أنها كانت تتعمد ألا توجه بصرها الى المائدة التي جلس اليها ، فسألتها :

ــ أتعرفين الرجل البدين قصير القامة الذي يجلس الى المائدة المنعزلة في أقصى اليمين ؟

فالتفتت الى حيث أشرت والى حيث كان يجلس رشدي ثم هزت رأسها وقالت :

ــ لا ، لم ؟ •• ــ ودهشت لذلك الجواب فقد كنت ، باحساسي ، شبه واثق من تلك الصلة ، وقلت :

ــ دققى النظر يازهيرة .. وعندئذ رفعت كأسها بعد أن دقت بها كأسى وقالت لى :

ــ ياطفلى الكبير ..

وظهرت اذ ذاك فرقة الراقصات ، ودوت فى أركان القاعة أنغام موسيقى مجرية عنيفة ، ولكننى رغم ذلك كنت أكثر من النظر الى رشدى « أفندى » ، ومرت فى خيالى ذكريات الطفولة فى المنصورة ، وتلك الليلة التى أقبل فيها رشدى الى الحانة التى تعمل فيها سوزى ..

وخيل الى أن سوزى كانت فى موقفها منى أصرح من زهيرة ، فقد جلست معه ثم اعتذرت وعادت الى ..

أما زهيرة فقد كنت موقنا أنها تعمدت أن تخفى عنى معرفتها برشدى ، أرادت بذلك ارضائى ولا شك ، ولكننى كنت أفضل أن تحيى أستاذى ، اذ من يدرى .. ربما عرف رشدى أننى تلميذه ، ألا يتهمنى اذ ذاك بالغباوة والسخف لأننى قبلت أن تغرر بى زهيرة فتتجاهل أصدقاءها من أجلى حتى لو كان من بين أولئك الأصدقاء أستاذى ؟

وقويت هذه الفكرة فى مخيلتى ، ولحظت زهيرة اضطرابى فأخذت تشجعنى على الشرب حتى ثملت ، ثملت تماما ثم لم أع بعد شيئا .. الى أن وجدت نفسى فى منزل زهيرة .. بين

ذراعيها .. تغمرني بقبلاتها وتدني من فمي زجاجة .. لم أدر اذ ذاك مابها .. ولكنني أفقت قليلا عقب ذلك .. ولحظت أن زهيرة كانت تستنشق مافي الزجاجة بشراهة وهي تضحك كمجنونة ، مع أنها لم تكن متعبة كما كنت ، وغلبني التعب فنمت والزجاجة لاتزال عند أنف زهيرة .. وقد اقتربت منها وهي نائمة فوجدتها لا تزال قابضة على زجاجة .. زجاجة « الاتير » .

يا الهي ..

انه « اتير » ذلك الذي شممته ليلة أمس والذي أجهزت زهيرة على زجاجته ولا تزال تمسك بها فارغة في نشوة الحلم القوية ..

لقد تذكرت ذلك كله الآن وأنا أكتب هذه السطور على مائدة التزيين الصغيرة في غرفة نوم زهيرة ، لاتزال نائمة .. صدرها الجميل العاري يتهدج في جرس وروي كقافية شعر جزل .. بل انها الآن وهي نائمة في ثوب منزلي أبيض بسيط أفتن منها ليلة الأمس وهي في ثوب السهرة ، ان هذا الوجه الذي اختلطت فيه المساحيق أجمل مما كان وهذه المساحيق في رونقها .. انها الآن ، كما أراها أمامي ، تعيد الى ذاكرتي الاغنية الغجرية ، الاغنية التي أثرت في تأثيرا عميقا ليلة الامس والتي أبكتها .. من يدري ؟.. ربما كان في دم زهيرة بقية من أصل بوهيمي قديم ، انها ابنة وجيه من سلالة أسرة عريقة

ولكنها بوهيمية النزعة الى حد كبير ، لو كنت رساما لما ترددت في أن أرسم لها لوحة تمثلها في هذا الوضع الغريب .. الأثاث المضطرب المتناثر ، والمساحيق المختلفة في وجهها ، وزجاجة « الاتير » الفارغة ، وأن أطلق عليها .. ماذا أطلق عليها ؟

لاحظت الآن أن زهيرة تتقلب في الفراش وأنها على وشك اليقظة فلأتركها الآن لأعود الى المنزل ، لو استيقظت لما مكنتني من الخروج .

خير ما أقوله لوالدى أنني استدعيت فجأة لحضور تحقيق في العياط مثلا ، وأنني لم أتمكن من اخبارهم بذلك لعدم وجود تليفون بالمنزل ..

● ١٠ سبتمبر الساعة ٤ مساء :

لم أستطع مطلقا أن أتلافى الثورة الهائلة التى قابلنى بها أبي عقب عودتي من عند زهيرة ، انهال على بكل أنواع الشتائم أمام الأسرة مجتمعة ، ولما حاولت أن أذكر له حكاية تحقيق العياط صاح بي في صوت راعد :

ــ كذاب .. لقد رأيت بعد منتصف الليل تغادر فندقا في ميدان الأوبرا مع امرأة وأنتما تتمايلان .. مالك وللفنادق الكبرى وسهرات الليل الصاخبة ؟ .. والمرأة التى كانت معك ، من هى ؟ أنقوى نحن على مثل هذا الحمل ؟ مهنتك التى أنفقت

دم قلبى لكى أعدك للارتزاق منها أهملتها ولم تعد تتردد على المكتب الذى ألحقتك به ، كل ذلك من أجل امرأة يا خائب !

ولولا تدخل والدتى لساءت عاقبة تلك الثورة .

وأحسست فى أعماق صدرى بأن والدى محق ، وتذكرت كمية الخمر التى شربتها وزجاجة « الاتير » .

واعتزمت أن أنقطع عن التردد على زهيرة ، وأن أوفق بين عملى فى المكتب وعملى الأدبى كما يفعل غيرى .

● ١٧ سبتمبر :

أسبوع كامل لم أر فيه زهيرة، عدت الى التردد على مكتب الأستاذ على عبد القادر بانتظام وظهرت ثانية فى جلسات المحاكم ولكن ..

ولكننى لم أكتب حرفا واحدا فى قصتى « زهيرة » ولا فى هذه المذكرات .

● ٢٠ سبتمبر :

جاءتنى الآن برقية من ادارة « الشرق الجديد » تستفسر عن سبب تأخرى فى ارسال الحلقة الأسبوعية من « زهيرة » وتذكر أنها اعتذرت عن ذلك التأخر من تلقاء نفسها وترجونى أن أوالى ارسال حلقات السلسلة ..

جلست الى مكتبى وحاولت أن أكتب •• ولكننى بعد ثلاث ساعات غادرت المكتب وليس على الورق غير خمسة أسطر شوهها الشطب والتغيير والتنقيح ••

هذا فظيع ••

كنت أكتب الشعر قبل أن أعرف زهيرة ، فلم عرفتها ؟

● ٢٥ سبتمبر صباحا :

لم أكد أسمع صوت زهيرة اليوم وهى تحدثنى بالتليفون فى المكتب حتى اضطربت وتثلجت يداى ، وقد حيتنى فى صوت خافت ثم قالت لى فى لهجة لم تخل من سخرية لاذعة :

ـ لا أحدثك لأسألك لم لم تزرنى طيلة الأيام الماضية ، ولكننى أحدثك كقارئة ، لقد تلقيت الآن العدد الجديد من « الشرق الجديد » وهو خال من شىء لك ، أتظن هذا لائقا ياأستاذ ؟

وقد أردت أن أجاريها فى سخريتها ولكننى لم أستطع ووجدتنى منساقا الى الاعتذار بمرضى •• ووعدتها أن أمر عليها فى المساء ••

● ٢٥ سبتمبر مساء :

عدت الآن من عنـد زهيرة •• لقـد فهمت توا أن سبب انقطاعى عن التردد عليها يعود الى الليلة التى قضيتها خارج المنزل عقب أن ثملت ، استقبلتنى فى ثوب أسـود محتشم له كمـان طويلان ، ولكننى أحسست بضيق وبأننى أعيش فى جو مسموم كله تكلف وزيف ورياء ، وقاومت فى بادىء الأمر ، ولكننى لم أستطع فقلت لها :

ـ أرجوك أن تخلعى هذا الثوب الأسـود الذى يبعث الضيق الى أكثر النفوس مرحا ـ فنظرت الى نظرة طويلة وقالت:

ـ ماذا يبعث الضيق فى ثوبى ؟

ـ كماه على الأقل ؟

وعندئذ مدت ذراعيها فى استسلام عجيب وقالت لى فى صوت هامس مثير :

ـ اذا كانا لا يروقان لك •• فها هما ••

وفجأة جذبت أطراف الثوب الحريرى فمزقتها وسط ثورة من ضحكاتها العالية •• ثم قالت لى :

ـ الآن سوف أعزف لك أنشودتنا القديمة « حنينى »

وقفزت الى البيانو تعزف قطعة « التانجو » ، وبعد قليل

كنا فى غرفة المائدة وأصوات الكئوس تتجاوب فى أصداء المنزل الهادىء •

لم أستطع العودة الى المنزل خوفا من ثورة أبى ، أكتب هذه الكلمات فى أحد فنادق شارع ٢٦ يوليو ، لقد خجلت أن أخبر زهيرة بأننى سأقضى الليلة فى فندق •

● ٢٦ سبتمبر :

لم أخرج من الفندق طول اليوم فقد قضيته فى كتابة فصل كامل من قصة « زهيرة » ثم أرسلته الى بيروت •

أحضر الى خادم الفندق صحف المساء العربية فأدهشنى ان احداها وهى جريدة «العصر» قد بدأت تترجم قصة «زهيرة» عن « الشرق الجديد » الى العربية •

● ٢٧ سبتمبر :

علمت زهيرة اليوم أننى لم أشأ العودة الى منزلنا وأننى أقيم فى الفندق فلامتنى لوما شديدا ورجتنى الى حد التوسل أن أنتقل الى منزلها •• فانتقلت •• وأخبرت « الشرق الجديد» بعنوانى •

● ٣٠ سبتمبر :

أعيش حياة عجيبة فى منزل زهيرة ، حياة لم أكن أفكر يوما فى أن أعيشها أنا وزهيرة تحت سقف غرفة واحدة .

هل كنت أحلم بذلك وأنا أنظر اليها ليلة حفلة الجالية الايطالية ؟.. هل كنت أحلم بأن أغمض عينى كل ليلة قبل النوم على موسيقى قبلة هادئة من فم زهيرة ، وأن أصحو من النوم يوما فى أن أعيشها أنا وزهيرة تحت سقف غرفة واحدة .
كل صباح على صوت سيل من القبلات العنيفة الصاخبة ؟

أكتب هنا بشراهة غريبة ، كدت أنتهى من كتابة قصة « زهيرة » وهى مأساة لاتشرح شيئا من حياة زهيرة ابنة المرحوم ابراهيم حلمى كما قد يخيل الى بعض الذين علموا سر علاقتى بها وانما تستعرض حياة ابنة احدى الجوارى البيض اللاتى كن يعشن مع بعض الأسر التى تنتمى الى أصل تركى ومغامراتها الغرامية مع مهندس شاب من مهندسى المناجم فى الصحراء الشرقية ، ومع ذلك فكلما جلست زهيرة الى جانبى تدفقت فى الكتابة ، حياتنا ، أنا وزهيرة ، متجددة أبدا ، مادامت الى جانبى ، تعزف قطعة موسيقى على البيانو ، أو تغنى لى أغنية ايطالية قديمة ، أو تتلو على قصيدة من ديوان فرنسى ممزق لاتزال تحتفظ به كذكرى لأيام دراساتها فى كهوف الراهبات،

أو تقدم لى بيدها كأسا من النبيذ تتلوه بأخرى وأخرى حتى نثمل ونرقص سويا على أنغام موسيقى اذاعية الى أن تنهمر الدموع من مآقينا ونحن فى ثورة الرقص والضحك ..

ثم أجلس بعد ذلك منهوك القوى لأكتب .. أحيانا أفيق من هذه الحياة الذاهلة فى نشوة هائلة .. أشد مايحز فى قلبى ألما أن أفكر فيما صارت اليه صلتى بأبى وأمى .. مجرد هذا التفكير يثيرنى على زهيرة والحياة معها ، وقد فكرت فى أبى اليوم فلم أشعر الا وقد وقفت أمام المرآة ودققت النظر فى قسمات وجهى ثم أخذت أقطب جبينى وأحرك حاجبى وأفتح أنفى فى محاولة مجنونة لأغير ملامحى كيلا أبدو أمام أصدقاء أبى بأننى ابنه أحمد ..

ألست أحمل اسمه الى اليوم ؟

من يدرى ماذا يقول أصدقاء والدى عن هذه الحياة التى أحياها مع زهيرة ؟

أنا نفسى يجب أن أعترف بأننى أخدع هذه النفس دون أن أحس ، هل أعرف من أين لزهيرة باقى نفقات هذا البيت الذى أعيش فيه ؟

ان ما أدفعه هنا معروف .. لم يتجاوز فى الشهر الماضى

عشرين جنيها دفعتها الى الخادمة دون أن تعلم زهيرة ، ولكن « مصروف » هذا البيت لايقل عن جنيهين فى كل يوم ، من أين لزهيرة الفرق ؟ .. انها تبقى الى جانبى طول الليل والنهار ..

ولكننى أذكر أنها استأذنت منى فى الأسبوع الماضى مرتين لزيارة ابنة عمها فى العباسية .

من يدرينى أنها كانت صادقة ؟

وهذه المحادثات التليفونية المستمرة التى أجيب عليها بنفسى أحيانا وأنا ثمل فأقلد صوت الخادمة تارة وهى ترد : «سيدتى خرجت ، عندما تجىء نقول لها من سأل ؟ » ـ أو أسمع صوت المتكلم وأنصت اليه جيدا عندما أكون واعيا لعلى أتبين فيه صوت شخص أعرفه ثم أضع السماعة فى هدوء دون أن أجيب ، فاذا تكرر دق الجرس عقب ذلك اكتفيت بأن أرفع السماعة ثم أعيدها بسرعة حتى يمل فيسكت .. هذا النمط المستهتر من الحياة لم أعهده من قبل ولم أتذوقه ولم يخطر لى قط أن القدر سيدفعنى الى ممارسته بهذه السرعة الغريبة .

وزاد حقدى على زهيرة ، فقد خرجت منذ ساعة بحجة الذهاب الى الخياطة ولم تعد ..

وارتديت ثيابى معتزما مغادرة هذا البيت الموبوء وأنا أصيح وحدى فى الغرفة كمجنون : اذا كانت هذه القصة هى

التى تربطنى بهذا البيت فاننى أمزقها •• أمزقها وأرميهاوأدوسها بقدمى ••

واندفعت الى الدرج الذى أضع فيه أصـــول « زهيرة » وفتحته بعنف ثم أخذت أبحث عن الأصول فلم أجدها ، عاودت البحث فى غيره من الأدراج لعلنى أكون قد أخطأت فلم أجدها وفيما أنا أبحث عثرت على زجاجة « الاثير » التى أدنتها زهيرة من أنفى ليلة سهرة الفندق فرفعت الزجاجة فى يدى وأطلت النظر اليها ، خيل الى أننى أعانى ألم صداع حاد ، ففتحت الزجاجة وأدنيتها من أنفى ، وعندئذ أحسست بميل شديد الى الكتابة، وتذكرت توا آخر ماتوقفت عنده أصول مأساتى كأننى أضـــع تلك الأصول أمامى ، وجلست أكتب فى انتظار زهيرة حتى تقبل وأسألها عن مكان الأصول المفقودة •

ولما أقبلت زهيرة وسألتها عنها أجابتنى أنها احتفظت بها فى دولاب ملابسها لكى تقرأها قبل ارسالها الى المجلة ، فهدأت ولم أنفذ شيئا مما كنت قد اعتزمته •

● ٥ نوفمبر :

قرأت الآن ماكتبته فى هذه اليوميات يوم ٣٠ من سبتمبر الماضى فدهشت •• دهشت لذلك التناقض الذى أتناقضـــه مع نفسى وأنا أعيش هذه الحياة الغريبة مع زهيرة ، وقد ورد لى

اليوم فى بريد واحد مبلغ من الجزائر وآخر من تونس كما أرسل لى أحد الناشرين المعروفين بشارع محمد على يفاوضنى فى شراء حقوق نشر النص العربى للقصة ، النص الذى توالى نشره جريدة « العصر » فناديت زهيرة فى لهجة لم تخل من تحد :

ـ اسمعى يازهيرة ، أريد أن أحدد موقفى هنا ـ فاقتربت منى تنساب فى ليونة رشيقة، وكأنها أحست بما أعتزمه،وتناولت وجهى بين كفيها وهى تربت بهما فى رفق كأنها تدلل طفلا ، ثم قالت :

ـ كيف ؟

ـ أود أن أتبين حقيقة الوضع فى هذا البيت ، كم ينفق فيه؟

وسألتنى فى همس :

ـ لم يا أحمد ؟

ـ ألست أعيش هنا ؟

ـ فى بيتك .

ـ ولكن بيتى هذا ألا يتطلب مالا للانفاق عليه ؟

ـ هذا المال سألتمسه عندك اذا لم يكن عندى .

ـ لا .. اذا كان الوضع كما تتصورين فاننى يجب أن أعود الى الفندق ..

وعندئذ حركت زهيرة كفيها على وجهى فى حنان وقالت :

ـ أنت محموم يا أحمد •• لابد أنك أرهقت نفسك بالعمل

ـ لا تحاولى صرفى عن هذا الموضوع الذى يسمم حياتى، لابد أن أدفع هنا مايكف يد غيرى عن الدفع ••

ألقيت هذه الكلمات الأخيرة فى صوت عال وأنا أعلم أنها ستحدث أثرها فى نفسها •• وقد صح ماتوقعته اذ أرخت زهيرة ذراعيها الى جانبيها وأطرقت ثم لمعت عيناها واغرورقتا بالدموع •• ولما انقضت فترة صـمت اقتربت منها وأمسـكت بكتفيها وسألتها :

ـ مالك؟ •• ـ فتكلفت ابتسامة مرهقة وأجابتنى فى صوت مضطرب :

ـ لا شىء •• لا شىء •• لو لم تكن طفلا لغضبت منك ، لست تلك المرأة التى تظنها يا صديقى ، ان الحياة أرادت أن تذلنى فلم أقبل أن أحنى لها رأسى بعد أن اعتاد هذا الرأس أن يبقى مرتفعا ، بأى ثمن أبيت أن أقبل حكم الحياة •• بأى ثمن مهما كان غاليا ، أنت تتحدث عن المال الذى يدفع الى •• أو بمعنى أصح الثمن الذى يدفع الى •• لا •• هذا الثمن تافه لا يعد شيئا بجانب الثمن الذى أدفعه أنا غاليا •• ان المال الذى يدفعه الآخرون ، الذين تحاول أنت لسذاجتك أن تكون أحدهم ، أنفقه

في مظاهر الترف والبذخ التي تراها لكي أحتفظ بالجو الذي كنت أحيا فيه ببيت أبي ، أما الثمن الذي أدفعه أنا .. فانني أدفعه من عمري .. من صحتي وشبابي .. من أعصابي .. تعمدت أن أحول « دولاب الفضية » الذي دخلت به بيت زوجي الى هذا « المخزن » المحتشد بزجاجات الخمر المختلفة الأنواع ، حتى أشعر دائما بالمصير الهائل الذي انحرفت اليه حياتي ، انني أسكب في جوفي كل ليلة قدرا من الخمر يكفي حيا بأسره ، أدفع في تغذية هذا الدولاب بزجاجات الخمر مبلغا كبيرا ، وأشعر براحة غريبة اذ أسلم قيادي لهذه الدوامة الثملة ، ألست أثمل لأنسى ما أنا فيه ؟ لأنسى شرور الناس ؟ انني أتقاضى من الناس الثمن الباهظ الذي أدفعه لأنسى شرورهم ، وفي المدة الأخيرة لما تبلدت أعصابي ولم يعد هذا الدولاب بما فيه كافيا : عمدت الى .. عمدت الى .. الزجاجة التي تعرفها .. زجاجة « الاتير » أغرق في حيزها الصغير همومي .. أترى ؟ .. ألست محقة عندما أقول لك انك طفل كبير اذ تعرض على في طيبة أو .. في سذاجة أن تدفع لي ما أستعين به على هذا الانتحار البطيء... ألست أنتحر الآن يا أحمد ؟ — وكان صوتها عندئذ قد تهدج وتحول الى نحيب مختنق ، ولكنها أرادت أن تتكلف الجلد وهي تذكر الانتحار ، فرفعت رأسها في حركة مسرحية وأرسلت في الهواء ضحكة جافة كأنها صادرة من تابوت مهشم في قبر مهجور ، ثم أسرعت وأخرجت زجاجة « الاتير » ، واستنشقت ما بها في شراهة مخيفة ، وعادت

الى ارسال الضحكات متتابعة ، عالية ، متقطعة ، مجنونة ، وهى تقول لى ـ أحمد .. أتريد أن تدفع لى ما أستعين به على شراء هذا ؟ أحمد .. أكرهتنى بهذه السرعة يا حبيبى ؟ أنا ؟ زهيرة .. تعيننى على أن أنتحر ؟ ـ وعادت الى الاقتراب منى وطوقتنى بذراعها اليسرى لأن ذراعها الاخرى كانت لاتزال تحمل الزجاجة، ثم قبلتنى قبلة ضعيفة متهالكة وصـدرها يتهدج ، وتمتمت ـ لا .. أنت تحبنى .. نعم تحبنى كما أحبك .

وكان التعب قد استولى عليها فاستلقت على المقعد وهى مفتوحة العينين ، وجلست الى جانبها وأنا أغالب رغبة عنيفة فى البكاء .

لقد آلمتها فى قسوة وأنا أعلم أن فى كلماتى ما يؤلم .. وألقيت على قامتها المهيبة المتمددة نظرة طويلة ، كان صدرها لا يزال متهدجا كأنها جرت شوطا بعيدا ، وأنبنى ضميرى .. أنبنى تأنيبا حادا .. كأننى ارتكبت جريمة منكرة ، وفكرت فى خير وسيلة أولم بها نفسى كما آلمت زهيرة ، وأعذب بها روحى كما عذبت روح زهيرة ، وفى حركة سريعة مددت يدى الى زجاجة « الأثير » فاستنشقت ما بقى منها فى شراهة لا تقل عن شراهة زهيرة ، ثم .. تمددت بثيابى الى جانبها ..

● ٢٢ نوفمبر :

تمر على الحياة هنا متشابهة كصفحات كتاب كبير قضي على مؤلف بائس أن يكتبه فجدب فكره ، وأفلس خياله بعد تحرير بضع صفحات منه، وأخذ يكرر ما سبق أن كتبه فيهذه الصفحات ويعيد كتابتها ، كأنه يدور حول نفسه ..

خرجت اليوم لأوقع عقد الاتفاق مع ذلك الناشر الذى أرسل لى أكثر من مرة يلح فى أن أذهب لأراه فى مكتبه بشارع محمد على ، أفهمته أننى لم أنته بعد من كتابة القصة كلها ، ولكنه أكد لى أن هذا لا يعنيه ما دمت واثقا من أننى سأنتهى منها قبل أسبوعين ، فوقعت العقد واستلمت خمسين جنيها على الحساب .

وبينما كنت سائرا فى شارع عماد الدين صادفت والدتى خارجة مع أختى الصغيرة حسنية من أحد المخازن التجارية ، لم يكد بصر والدتى يقع على حتى وقفت فى مكانها ونظرت الى ذاهلة كأنها تشاهد شبحى خارجا من كهف ، أو قبر ، ثم تلفتت حولها وقالت فى صوت مرتجف :

ـ هكذا يا أحمد .. هكذا تعمل فى نفسك هذا العمل الأسود وتشمت أولاد عمك فينا .. ألم يعد ينقصنا الا هذا الشقاء ؟

وأجبت وأنا أتعمد التظاهر بالهدوء :

ـ ماذا فعلت ؟ أبى هو الذى تسبب فى كل ما حدث ...

ففاطعتنى وهى تشهق وتضع يدها على فمها :

ـ أبوك .. بعد أن رباك تجرؤ على أن تقول عنه هذا الكلام ؟ الله يقطع الكتب والشعر والمسرح والكلام الفارغ الذى أتلف عقلك وميل حالك ، النـاس يقولون عنـك انك جننت يا أحمد .

ولحظت اذ ذاك أن أختى الصغيرة قد تراجعت الى الخلف قليلا عندما سمعت والدتها تذكر الجنون ، فضحكت ومددت يدى اليها ، ولكنها لم تقبل على بل احتمت بوالدتى وهى تقول فى ذعر ظاهر :

ـ رجل يشبه أبى قادم من هناك .

وعندئذ بدا الارتباك على والدتى ، وسحبت أختى الصغيرة يدها من يدى ثم ابتعدت عنى بسرعة ..

وتابعت أنا سيرى الى « المترو » المتجه الى مصر الجديدة.. ثم انزويت فى ركن من أركانه وبكيت ، بكيت بحرقة ...

كم تغيرت ..

اننى ألتقى الآن بأمى صدفة فى الطريق ، فاذا التقيت بها تلفتت حولها خشية أن يراها أحد ، وأختى الصغيرة « سونة » التى كانت تهابنى فيما مضى خشية أن أضربها اذا عصيت أمرا لى أصبحت تخافنى الآن وتجفل منى لأننى .. مجنون !

هل أنا مجنون حقا ؟
من يدرى ..

● ٢٣ نوفمبر :

مازلت منهوك القوى منذ أمس بعد مقابلتى لوالدتى وشقيقتى سونة ..

لا أذكرقط أننى قبلت « سونة » ولكننى أمس شعرت برغبة عجيبة جارفة فى أن أقبلها ، وأن أضمها الى صدرى ، وأربت على ظهرها ..

كنت فى حاجة الى حنان من نوع آخر غير الحنان الذى لم استشعره الى جانب زهيرة .. ولكننى لم أستطع أن آفعل ذلك لأنها جفلت منى ..

لم أكتب شيئا اليوم بسبب هذا الاضطراب .. ولذلك انتهزت فرصة انشغال زهيرة بمقابلة بعض صديقاتها واستنشقت نصف زجاجة « الاتير » فاندفعت فى الكتابة حتى أسدلت الستار على الفصل الأخير من مأساتى الشعرية « زهيرة » ..

من العجيب أننى عجزت عن أن أقاوم الرغبة فى أن أضع فى هذا الفصل موقفا عن المهندس الشاب الذى أحب زهيرة ابنة الجارية «البيضاء» وهو يتألم من أثر حنينه الى أسرته التى تمرد عليها وهجرها الى الصحراء ..

كنت أكتب هذا الفصل وأنا أبكى •• حتى تلوثت صفحات الكراسة •• فأعطيتها الى زهيرة لتبيضها بخطها الجميل •

● ٢٥ نوفمبر :

أرسلت أصول الفصل الأخير من « زهيرة » أمس مساء الى « الشرق الجديد » بالبريد الجوى وقد احتفلت أنا وزهيرة بانتهاء القصة أمس حفلة أحييناها الى صباح اليوم ••

كم أنا سعيد باتمام قصتى الأولى •• اننى حقا سعيد اليوم •• لم أحس فى يوم من الأيام بسعادة البقاء الى جانب زهيرة كما أحس بها الآن ••

لا أشعر برغبة فى النوم ، بل بالعكس أشعر بميل الى البقاء هكذا مفتوح العينين ، منتبه الحواس حتى يصل البريد القادم وأقرأ الموقف الأخير من الفصل الأخير منشورا على الناس أجمعين •

شربت أمس مع زهيرة ، لا أدرى كم شربنا •• واستنشقنا سويا قدرا كبيرا من « الاتير » •• لدى الآن قوة كبيرة على المقاومة •

● ١٦ ديسمبر :

نشرت جريدة « العصر » اليوم مساء خبرا عن تفكير أحد المسارح الكبيرة فى اخراج النص العربى لمسرحيتى « زهيرة » فى هذا الموسم ، وهو النص الذى توالى نشره تباعا كل أسبوع .

● ٢٨ ديسمبر :

تقابلت اليوم مع مدير « مسرح فرعون » واتفقنا على اخراج مأساتى الشعرية « زهيرة » فى مارس المقبل ، وتبادلنا صورتى عقد اتفقنا فيه على أن يدفع لى مائتى جنيه مقدما فى مقابل سماحى بتمثيلها .. على أن يسدد باقى الثمن أثناء قيام الفرقة باجراء التجارب ثم أثناء الاسبوع الاول لعرضها

● أول يناير :

ما هذا ؟

ان مصر تقدمت فى فن الاعلان تقدما مدهشا ، لا يخلو شارع من شوارع القاهرة من اعلان عن قرب ظهور مسرحية « زهيرة » على « مسرح فرعون » بشارع عماد الدين ، اعلانات اليد الصفر والحمر والخضر تنهال على أينما سرت تحمل اسم القصة واسمى مضافا اليه هذه الجملة « الشاعر العربى الذى أثار اعجاب ملايين القراء فى الوطن العربى وخارجه » ..

أحس الآن بفخر من نوع آخر ، فخر النجاح فى وطنى ، هذا أمر كان ينقصنى فمهما أوتيت من نجاح فى الخارج فاننى بعيد عن تذوق لذة النجاح تذوقا مباشرا أصيلا ..

● ٧ يناير ظهرا :

خرجت زهيرة اليوم مع الخادمة لزيارة ابنة عمها فى العباسية ، وفيما كنت مهتما بكتابة مقدمة للكراسة التى سنوزع على الجمهور أثناء تمثيل « زهيرة » على « مسرح فرعون » دق جرس الباب بشدة ولما فتحته تقدم الى رجل دل مظهره توا على أنه محضر ، وسألنى :

ــ بيت زهيرة حلمى ؟ ــ وفكرت قليلا خشية أن يكون المحضر قد رآنى مرة فى المحكمة ، ثم أجبت متلعثما :

ــ نعم ، خير ..

ــ حجز تنفيذى ، تاجر « البيانو » استصدر حكما بالمستحق من الأقساط فلم يتم السداد ــ ودهشت من هذه المفاجأة المؤلمة، فقد أخفت عنى زهيرة حكاية ذلك التاجر وتركت القضية تسير فى مجراها حتى انتهت باستصدار التاجر ذلك الحكم ..

تناولت أوراق التنفيذ من المحضر وألقيت عليها نظرة ، كان المبلغ المستحق عن قسط شهر أكتوبر وما يستجد ، أربعة شهور مجموع أقساطها أربعون جنيها .

وانتبهت اذ ذاك الى حقيقة غريبة ، ان زهيرة كانت ، كما اتضح من الأوراق ، مواظبة على دفع الاقساط الشهرية باستمرار قبل شهر أكتوبر ، ثم انقطعت فجأة حتى اضطر التاجر الى رفع الدعوى •

شهر أكتوبر •• أى منذ انتقلت الى بيتها وأقمت فيه ••

وأسرعت اذ ذاك فأحضرت الأربعين جنيها مع مصاريف الدعوى وأعطيتها الى المحضر وتلافيت اجراءات الحجز ••

مسكينة زهيرة •• كان مجيئى الى بيتها نكبة عليها ، ولكن أليس من المدهش أن تخفى عنى أمر تلك القضية وأنا أقيم معها فى بيت واحد ؟

كلما انقضت مدة على حياتى مع زهيرة زدت اعجابا بشخصيتها الغريبة ،خير ما أفعله الآن أن أخفى عنها خبر قدوم المحضر وسداد المبلغ حتى لا أحرجها ••

● ٧ يناير مساء :

عجبا ••

لم تحضر زهيرة الى الآن ولم تتحدث بالتليفون لتخبرنى أين هى ؟

لو كنت أعلم منزل ابنة عمها لسعيت اليه ••

هل أصابها مكروه ؟

ولكن •• أين هى ؟

● ٧ يناير ـ بعد منتصف الليل :

دق جرس التليفون الآن فأسرعت اليه معتقدا أننى سأسمع صوت زهيرة ، ولشد ما كانت دهشتى عندما وصل الى أذنى صوت رجل يقول :

ـ أليست السيدة هنا ؟ ـ فقلدت صوت الخادمة ، كعادتى، وسألت :

ـ من يسأل عنها ؟

ـ قل لها رشدى ـ وتبينت توا صوت رشدى « أفندى » ضابط مدرسة المنصـورة ، فتصبب العرق البارد من جبينى ، وخجلت •• خجلت من نفسى فى ذلك الموقف ، وفكرت فى أن أصارحه بشخصيتى ولكنه لم يمهلنى وقال فى لهجة حادة ـ قل لها أن ما فعلته مع رشدى عيب لا يليق أن تفعله مع صديق قديم ، تتركنا فى المطعم بشارع ألفى وتدعى أنها ستتغيب بضع دقائق للتحدث فى أمر هام مع ابنة عمها فى عيادة أحد الأطباء وتتركنا ملطوعين منذ ساعة فى انتظارها •• لا يليق ، أنا واثق من أنها عادت الى البيت ، انها موجودة الآن الى جانبك ، دعهـا تكلمنى ••

وفتح الباب وظهرت زهيرة ، كانت مصفرة الوجه يبدو عليها الاضطراب ، ولكنى لاحظت توا أنها ثملة فسألتها :

ــ أين كنت ؟

فأجابت وهى تخلع معطفها فى هدوء متكلف، كأن شيئا لم يحدث :

ــ أخبرتك من قبل ، كنت عند ابنة عمى ؛ ألح زوجها على فى أن أتناول الغداء ثم دعانى الى الذهاب معهما الى السينما ، فتأخرت ــ فاقتربت منها وقبضت بيدى على ذراعها العارية ثم سألتها :

ــ أى سينما ؟

ــ سينما ــ وعندئذ أمسكت بذراعها الثانية وضغطت عليهما بكل قوتى ثم صحت فى صوت مذبوح :

ــ كاذبة ! أنت كاذبة ! ــ وارتعدت زهيرة ثم حملقت الى بعينيها وأدارت وجهها ، فظللت أصيح وأنا أضحك عاليا : أجل انك تديرين وجهك لتبعدى عن أنفى رائحة الخمر التى تنبعث من فمك ، خمر حانة شارع ألفى ..

وشهقت زهيرة اذ ذاك شهقة حادة ثم تمتمت :

ــ من أين علمت ؟ ــ فأجبتها وأنا أهزها هزا عنيفا :

ـ علمت من هذا التليفون الذى شهد قذارة هذه البؤرة، عشتُ هنا مخدوعا طيلة أربعة شهور ، مخـدوعا كغـر أبله ، اعتدت فيها على حياة وضيعة ، ولكننى أخيرا أفقت •• لا أستطيع أن أعيش بعد هنا •• لا أستطيع أن أشاركك هذا الطعام الموبوء !

واغرورقت عيناها بالدموع وأجهشت قائلة :

ـ أحمد •• كنت مضطرة ، اترك ذراعى ••

ـ أريد أن أثأر •• كنت أعرف قبلك امرأة تعمل خادمة فى حانة ، أرادت يوما أن تنتفع من ذلك الرجل ، نفس الرجل ، رشدى أفندى ضابط مدرستى الابتدائية فجلسـت معه أمامى والضوء يملأ الحانة ، كنت أسمع ما يدور بينهما ، لم تكذب ولم تموه ، أما أنت فقد كذبت ، سألتك فى ليلة الفندق عما اذا كنت تعرفينه فأنكرت ، ولكنك كنت كاذبة ، كاذبة الى حد الفجر •• وظللت تكذبين على حتى اليوم ، نزلت بحجة زيارة ابنة عمك ولكنك ذهبت الى حيث كان موعدك مع أسـتاذى القـديم ، ألا تحسين ؟ هذا فظيع •• بشع •• رأسى يكاد ينفجر ••

واستمرت فى بكائها وهى تنظر الى نظرات هالعة مذعورة :

ــ أحمد ، اغفر لي هذه الزلة، أقسم لك أنني كنت مضطرة، ومع ذلك لم أستطع أن أبقى كما أرادوا ، هربت منهم ــ فعدت الى الضحك وأنا أصيح :

ــ لماذا ؟ قلت لك يا فاجرة انه أستاذى .. انه يعرفك قبلي ، ان لهذا الرجل فضلا على ، عودي اليه الآن فسوف لا أعرفك بعد الليلة ، سأعود الى بيت أبي لأتطهر ، أحس بكل ذرة من دمي وقد تلوثت وتعفنت ، أشم رائحة قذرة تتصاعد الى أنفي من أعماقي .. لقد ترديت هنا ، على يديك يا فاجرة ..

وكأن شتائمي أثارتها فأجابتني وهي تستجمع قواها :

ــ قلت لك انني كنت مضطرة يا أحمد ، كان أثاث منزلي معرضا للضياع ــ ونسيت اذ ذاك ما كنت قد اعتزمته من اخفاء أمر السداد عنها وأردت أن أولمها فصرخت :

ــ لا ، لم تكوني مضطرة قط ، قضية تاجر « البيانو » أليس كذلك ؟ لقد دفعت عنك المبلغ كله ، دفعت اليوم ذلك المبلغ لأنقذ هذا الأثاث ، لم أفعل ذلك حبا فيك ، ولكن احساسا خفيا دفعني الى ذلك ، وقد صح ما توقعته ، وفرت ذلك المبلغ على أستاذي رشدي ، أترين ؟ هذا هو الايصال الذي استلم به المحضر دين تاجر البيانو ، خذي هديتي الأخيرة ..

ونظرت زهيرة الى الايصال فى ذهول ، ثم اقتربت منى وحاولت أن تطوق عنقى بذراعها وهى تقول :

ــ أحمد ، لم أعهدك بهذا الخلق ، أهكذا تعامل زهيرة ؟

وعندئذ تصاعد الدم الى رأسى وصحت :

ــ ابعدى .. لا أريد أن تلمس يدك جسمى ، اننى ذاهب

ــ وتقدمت الى الباب الخارجى فأسرعت خلفى وأمسكت بى ولكننى دفعتها عنى بقوة فسقطت على الأرض تئن ، وخرجت من البيت دون أن أعبأ بصراخها من أعلى السلم ، ثم من نافذة الشقة .

● **٨ يناير صباحا :**

جاءتنى زهيرة فى غرفتى بالفندق الآن فلم أحسن لقاءها ، وقلت لها :

ــ أنصحك أن تعودى من حيث أتيت ، لن تجدى هذه الدموع نفعا ، لا يمكن أن أعود الى الحياة معك ..

فركعت على الأرض وتعلقت بأطراف ثيابى قائلة :

ــ واذا أبيت الخروج ؟

ــ سأضربك ، فاخرجى ــ فخرجت وكل من فى الفندق يسمع صوت بكائها ..

● ١٢ يناير :

أقبل ابن عمى اسماعيل الى الفندق يدعونى للعودة الى بيت أبى بعد أن علمت الأسرة بخبر انفصالى عن زهيرة ، ولكننى رفضت ، خيل الى أنهم يريدون اذلالى ، استيقظت فى صدرى عاطفة زهو قوية ، لقد تخلى أبى عنى لأننى عصيته وأنشأت تلك الصلة الآثمة بزهيرة ، فلأثبت له أننى تركت زهيرة طائعا مختارا ، واننى سأعول نفسى •• دون حاجة الى أحد ••

وطلبت الى ابن عمى اسماعيل أن يقبل يد والدتى وجبين شقيقتى سونة وأن يعتذر عن عدم امكانى العودة الى المنزل •• وعبثا حاول اقناعى ••

● ١٥ يناير :

وصلت اليوم الطبعة الأولى من قصة « زهيرة » الفرنسية وقد وزعت على معظم المكتبات بشارع عماد الدين وشارع قصر النيل ، طبعة أنيقة لها غلاف أزرق وقد نشرت على نفقة « الشرق الجديد » وصدرتها الدار التى نشرتها بمقدمة نقدية تحليلية عنى ، وعن اللون الجديد الذى يتميز به اتجاهى الشعرى •

● ١٧ يناير :

حاولت اليوم أن أكتب شيئا فلم أفلح ، ظللت نحو أربع ساعات أمام المائدة الصغيرة فى غرفتى بالفندق دون أن أكتب سطرا واحدا .

أحس بأننى فقدت شيئا ، شيئا هاما ينقصنى ، ينقص صميم كيانى ، أحس بفـراغ عجيب فى روحى ، بغياب حاسـة من حواسى .

● ٢٠ يناير ـ فجرا :

لا أكاد أقوى على كتابة هذه السطور ، كدت أجن اليوم عندما قرأت ما كتبته فى الصباح فوجدته سخفا يزرى بموضوع من مواضيع الانشاء فى مدرسة ثانوية .

وغادرت غرفتى بالفندق هائما ، وأنا أتساءل ..

« ما الذى حدث لى » ؟

خيل الى أننى كنت أستوحى شعرى من زهيرة ، واننى لما تركت زهيرة تركنى الشعر ، فتصاعد الدم الى رأسى وأخذت أنظر الى وجهى فى كل واجهة زجاجية مررت بها فى الطريق لأتبين هل تغيرت ملامحى .... بريق عينى .. قسمات وجهى ؟ هل تشوهت عقب تركى لزهيرة ؟

وظللت أجوب طرقات القاهرة ، مررت فى سيرى بميدان الأوبرا وفجأة وجدتنى أمام سور حديقة الأزبكية على رأس شارع الباب البحرى ، فوقفت برهة أفكر ، ثم عدوت .. عدوت خشية أن ترانى سوزى كأننى كنت موقنا بأنها علمت بالحادث الذى فصل بينى وبين زهيرة فخجلت من أن ترانى ، وعند منتصف الليل أحسست بصداع شديد فى رأسى فتوجهت الى الصيدلية التى كنت أشترى منها « الاتير » لزهيرة واشتريت منها زجاجة عدت بها منذ برهة الى غرفتى بالفندق وأخذت أستنشق مابها .. حتى أتيت عليها .

وزال الدوار من رأسى ولكننى لم أنم .. حتى الآن ..

● ٢٢ يناير :

تقابلت اليوم صدفة مع توفيق وكيل مكتب الأستاذ على عبد القادر وقد فاجأنى فى لهفة قائلا :

ــ أين أراضيك يا أستاذ ، اننى أبحث عنك .

فسألته : لم ؟

وعندئذ اقترب منى وهمس فى أذنى :

ــ الأستاذ علي عبد القادر غضب لأنك انقطعت عن التردد على المكتب ، وأبلغ النقابة بأنك لم تواظب على التمرن وأنك تسببت باهمالك فى شطب بعض القضايا .

واستمعت الى ذلك فى برود لم أعهده من نفسى ، وأطرقت الى الأرض ثم سألته :

ــ وماذا يمكن أن يترتب على ذلك ؟

ــ من الجائز أن يشطبوا اسمك ، يجب أن تتدبر الأمر فانه خطير ، مستقبلك كله .

لم أجبه بل هززت رأسى ثم تركته وانصرفت دون اكتراث .

ماذا يهم ؟ لقد استطعت أن أترك زهيرة التى ارتبطت بها حياتى ، فصدمات الحياة بعدها لا تهزنى ..

ولكننى فى نفس الوقت فكرت .. اذا شطب اسمى من جدول المحامين فكيف أواجه الحياة ؟

ألا يجب أن أمهد لحياتى الأدبية كشاعر محترف ؟ وجسم الفكرة فى خيالى أن النقود التى كانت معى قد نفدت ، لم يبق فى جيبى الا قروش معدودة لا تكفى حتى لسداد حساب الفندق ، وجلست أكتب فلقيت نفس المشقة فى الكتابة ، خطرت زهيرة فى خيالى ، فأخذت أهز رأسى وأنا عابس الوجه كأننى أطرد خيالها ولكننى لم أستطع ، ذكريات حفلة الجالية الايطالية ، سهرة الفندق ، ليلة الاحتفال بانتهائى من كتابة أصول « زهيرة » ، طاردتنى فى قسوة وألحت على فى أن أخلق حولى لونا من ألوان الجو الذى كنت أعيش فيه معها .

فهبطت الى الشارع وعدت بزجاجة من الكونياك وبعض «اتير» واسطوانة «مى نوستاليجا» وشربت ، ووضعت اسطوانة « حنينى » على حاك استعرته من جارة ايطالية فى احدى غرف الفندق ، ولما انطلقت فى غرفتى أنغام « التانجو » أخذت أدور وأنا ثمــل فى وســط الغرفة ، والدموع تنهمر من عينى فى غزارة .

ثم وضعت زجاجة « الاتير » على أنفى وكتبت ، كتبت قصيدة جعلت عنوانها « شاعر يتردى » ، كنت أحس بلذة قوية وأنا أكتبها ، ثم أرسلتها الى مجلة « الشعلة » .

● ٢٧ يناير :

اشتريت اليوم بكل مابقى فى جيبى زجاجة «أتير» وعدت الى غرفتى بالفندق أستنشقها .

ان هــذه الزجاجة ذات الرائحة العنيفة تمثــل لخيــالى زهيرة بشخصيتها الجبــارة ، اننى أكثر شراهة فى اســتنشاق « الاتير » من ذى قبل .

● ٢٨ يناير :

قرأت اليوم فى صحيفة « العصر » التى كانت توالى نشر قصتى « زهيرة » كلمة عن قصيدتى الجديدة « شاعر يتردى » التى نشرتها مجلة « الشعلة » دهش فيها كاتبها من انحطاط مستوى الذى ناظمها ووجه الى كلمات قارصة مؤلمة جاء فيها :

« اذا كان الشاعر أحمد علوى قد أحس حقا بأنه يتردى فقد كان واجبا عليه أن ينزوى وألا يردى معه فنا جميلا .. هو الشعر » .

هل حقا أن مستواى قد انحط ؟

يا للهول .. أبهذه السرعة يطلب الى النقاد أن أنزوى ؟

وشعرت برغبة قوية فى أن أبكى .. كانت خير وسيلة لاستدرار بكائى أن أستعير حاكى جارتى الايطالية وأن أسمع موسيقى « حنينى » .

ان هذه الموسيقى تثير حنينى الى الأيام التى كان فيها خيالى خصبا وروحى الشاعرة فياضة بالمعنى الجزل ، ولكن « حنينى » يجب أن تكملها زجاجة « الاتير » والا ظلت ناقصة .. أو مشوهة كالنغمة الناشزة .

وبحثت فى جيبى عن نقود أشترى بها « اتير » فلم أجد

•• كدت أجن ، خطر لى أن أطلب من مدير « مسرح فرعون » الذى أعلن عن اخراج مسرحيتى « زهيرة » فى أول مارس القادم مبلغا ، وأسرعت الى التليفون فأجابنى كاتب المسرح قائلا :

ــ لقد دفعنا لسيادتك كل مقــدم ثمن المسرحية ، مائتى جنيه ، أليس كذلك يا أستاذ ؟

كنت متذكرا اذ ذاك أننى قبضت المبلغ كله ، ولكننى لم أشعر الا وأنا أقول له :

ــ لا ، أظن اننى مازلت أستحق بعض هذا المقدم •

وارتجفت بعد أن قلت ذلك ، كنت أحاول أن أستحل مالا حق لى فيه ، وترك الكاتب سماعة التليفون وهو يقول :

ــ عن اذنك ياأستاذ •• سأراجع حساباتى

ولما كنت موقنا من نتيجة بحثه أعــدت سماعة التليفون فى بطء وخوف كأننى ارتكبت جريمة ••

وعدت أدور فى الغرفة كمجنون ، حتى نسيت أن أغلق باب الغرفة خلفى •

ومرت جارتى الايطالية اذ ذاك فرأتنى على هذا الحال ، رأتنى أقف أمام المرآة وأفتح أنفى كأننى أتلمس هواء آخر غير هواء الغرفة ، ولم أشعر الا وهى تقترب منى وتقول :

ــ ان الاسطوانة تدور الآن على الجزء الأملس منها أيها الشاب ، ألم تشعر بذلك ؟

فرفعت اليها بصرى وسكت ، وعندئذ هزت رأسها ورفعت يدها الى فمها ثم مرت بها على أنفها مرا بطيئا وهى تتمتم قائلة :

ـ الآن •• ستستريح •• أصاب أحيانا بمثل هذه الحالة العصبية ولا ينقذنى منها الا جرعة •

وقد أحسست فعلا بعد ذلك براحة فاسترخيت وتمددت على الفراش كأمير فى قصة خرافية ••

● ٤ فبراير :

لا أكاد أستطيع كتابة هذه الكلمات ، قابلت اليوم بشارع عماد الدين أحد زملائى الذين تخرجوا معى فى نفس الدفعة ، لمحنى أتسكع أمام باب كل صيدلية ، وكنت فى حاجة قصوى الى قدر من « الاتير » وقد وضع زميلى يده على كتفى ثم سألنى وهو ينقل بصره بين أجزاء ثيابى :

ـ مالك يا أحمد ؟

ففتحت فمى وقلت : ماذا يثير عجبك ؟

ـ وأى عجب •• اسمك يملأ الاسماع ويدوى فى الدنيا وأنت تهيم على وجهك كمتشرد أبله •• ما هذه الثياب المتهدلة الرثة ؟ ـ ثم رمقنى بنظرة حادة واستمر قائلا : لقد سمعت أن النقابة على وشك شطب اسمك •

فضحكت ضحكة جافة وقلت :

ـ أمعك جنيه سلفة ؟ ـ وحاولت أن أتذكر اسمه فلم أفلح، كانت ذاكرتى أضعف من أن تعى اسم زميل الدراسة ، وأعطانى الجنيه ثم انصرف مسرعا وهو ينظر الى كما لو كان ينظر الى مجنون ..

ولما عدت الى غرفتي بالفندق كانت في جيبي زجاجة «الاتير» استهلكتها كلها قبل أن أتذكر أن معدتي خالية واننى لم أتناول طعاما منذ أمس صباحا عندما دعتنى جارتى الايطالية لتنـــاول الطعام معها .

● ٢٢ فبراير :

طردنى مدير الفندق أمس بعد أن يئس من الحصول على أجرة فندقه المتأخرة التي وعدت بسدادها مرارا وماطلت .

جبت شوارع القاهرة سيرا على قدمى طول الليل ، وصلت الى آخر المعادى بعد الغروب ، تســاقط على ندى الفجـــر وأنا مستند الى الســـور الحجرى المطل على النيــل عند روض الفرج .

ومع ذلك لم أشعر بتعب .. ولكننى أحس أحيانا برغبة فى الضحك ، ألحت على هذه الرغبة منذ برهة عندما كنت أطالع

هذه المذكرات وأقلب صفحاتها ، انها تاريخ حياة قصيرة حافلة بمجموعة عجيبة من المتناقضات ، لست أدرى لم أفكر فى أن أعهد بحفظها الى تلك السيدة الايطالية المقيمة بفندق شارع ٢٦ يوليو ، وقد ضحكت فعلا وأنا أخفي وجهي بهذه المذكرات ، ثم خيل الى أن رجلا من حي بولاق ، الذى مررت به عند الضحى تقريبا أثناء عودتى من روض الفرج ، كان ينظر الى ويضحك ، فتوجهت اليه وسألته : لم تضحك علي ؟ — ولكن الرجل شملنى بنظرة ذاهلة وهز رأسه وقال : يافتاح ياعليم .. الله يشفيك يابنى : ثم لوى وجهه وانصرف .

● ٢٥ فبراير :

التقيت بابن عمى اسماعيل اليوم واقترضت منه خمسين قرشا ولما ابتعد عنى سمعته يكرر نفس الجملة التى سمعتها من ذلك الرجل المجهول فى بولاق :

— الله يشفيك يا أحمد ..

حتى اسماعيل ابن عمى الذى لم تنته بعد الحزازات بين أبيه وبين أبى قد رثى لحالى .

أبى ؟

هل لى أب ؟ وأنا المتشرد المنبوذ ؟

أليست العودة الى بيت أبى خير من التسكع ضالا فى الطرقات ؟ .. ولكن كيف أعود ؟ .. أأخرج من بيت أبى تملأ شهرتى الصحف ويفتح المستقبل ذراعيه لاستقبالى ثم أعود بهذه الثياب القذرة والصحف تصيح فى وجهى بأن مستواى انحط ؟

لا .. أى شيء يهون الا أن ترانى والدتى وشقيقتى الصغيرة سونة على هذه الحالة .

شقيقتى سونة ..

مسكينة .. انها تنتظر من « أبى » أحمد هدية .. علبة حلوى .. أو بعض شطائر الفطير .

أجهدنى التفكير .. ولم أجد خيرا من التماس العزاء فى زجاجة « الاتير » .

وجدت أثناء خروجى من الصيدلية اعلانا ضخما من اعلانات الحائط يشير الى أن « زهيرة » ستعرض للمرة الأولى على « مسرح فرعون » يوم ١٥ مارس القادم .

زهيرة ؟ .. أوه .. كدت أنسى أن لى قصة بهذا الاسم !

أضحك الآن فى الشارع المظلم المؤدى من ميدان عرابى الى شارع رمسيس .. أضحك وأنا ألتهم « الاتير » التهاما بأنفى .. أضحك .. عاليا .. وأردد مع الآخرين : « الله يشفيك يا أحمد الله يشفيك يابنى » .

● ١٦ مارس :

ما ألعن الجوع !

طالما سمعت من والدتي ــ وأنا بعد طفل ــ ان الذين يكثرون من النظر الى المرآة يصابون بالجنون ، واعتدت منذ طفولتي أن أدير بصرى كلما التقيت بمرآة في الطريق . ومنذ برهة لمحت وجهي في مرآة فذعرت وأخذت أتلفت حولى ، خيل الى أن المرآة خلفى .. تطاردنى .. فأسرعت السير . كدت أعدو ..

وقد أنهكنى السير الحثيث ولهثت فجلست على افريز احدى الطرقات الضيقة المتفرعة من شارع عماد الدين، ولكن .. ولكننى أشعر بالجوع .. بجوع شديد .. أيمكن أن يجوع المجانين ؟

وتقدمت الى واجهة مكتبة كانت قريبة منى ، ووجدت خلف زجاج الواجهة نسخة من قصة « زهيرة » الفرنسية .

كانت الساعة التاسعة مساء .. والنور الكهربى يلقى بضوء أحمر خافت على غلاف القصة الأنيق .

ولكن .. ماذا يفيدنى هذا الطبع الأنيق .. اننى أعانى جوعا شديدا .

وأخذت أطيل النظر الى ثمن قصتى « زهيرة » ، ٥٠ قرشا ، ليس منها فى جيبى قرش واحد .

وخطر لى أن أغافل عامل المكتبة فأمد يدى وأخطف نسخة من القصة ، قصتى ، لأبيعها لأى مار بأى ثمن .

وخرج العامل مرة ليتحدث مع أحد عمال المحل المجاور له ، ففكرت فى أن أقتحم المكتبة وأسرق أى مبلغ من الخزانة المفتوحة التى كنت أراه يضع فيها نقوده .

وفجأة دخلت الى المكتبة سيدة ترتدى ثوبا رشيقا ، وسمعتها تطلب من البائع نسخة من « زهيرة » .

كان الصوت مألوفا لدى ، ولما دققت النظر اليها كدت أشهق فقد كانت هى .. كانت سوزى ، اشترت نسخة من قصتى « زهيرة » ثم خرجت .

وأطرقت برأسى الى الأرض .. ثم عدلت عن فكرة سرقة خزانة المكتبة ..

ألم أرفض المال من سوزى منذ عام ؟ لم أقبله منها الآن ؟

وأسرعت فاختفيت فى الشارع الهادىء خشية أن ترانى سوزى ، عدت أهيم على وجهى كما كنت ، والجوع يطاردنى .. كحيوان هائج .

كنت أعلم أن « مسرح فرعون » يمثل مسرحيتى للمرة الأولى فى هذه الليلة ، وكنت معتزما ألا أقترب من المسرح

خجلا من الثياب التى كنت أرتديها ، ولكن قدماى حملتنى اليه حملا ، لم أستطع أن أقاوم •

ولما اقتربت من المسرح كان الهتاف الحاد ينطلق من داخله ، ووقفت خلف مخزن من المخازن التى تضم مجموعة من أسلاك الكهرباء أتفرس فى وجوه الداخلين والخارجين من المسرح أثناء الاستراحة ، وسمعت أصوات الجمهور تحمل عبارات الاعجاب العميق •

وفجأة خرجت من صدرى شهقة حادة ، فقد لمحت السيارة الصفراء واقفة الى جانب افريز المسرح •

وعاد الجمهور الى داخل المسرح وانتظرت فى مكانى ، لم يكن يهمنى التصفيق الحاد الذى كان يدق أذنى بين كل فترة وأخرى • فهذا الجمهور جمهور مجنون لأنه يصفق لمؤلف ميت ، انما كان يهمنى أن أعرف من الذى قدم بتلك السيارة الصفراء •

انتظرت •• انتظرت خلف ذلك المخزن المربع الذى يحتوى على مجموعة الأسلاك الكهربية ، كان المطر يهطل على جسمى حتى بلله ، كنت أنتفض من قسوة البرد •

وأخيرا خرج الجمهور المجنون من الجنسين الذى أقبل ليشاهد القصة بأحدث الأزياء ، أزياء الشتاء التى تقى من البرد أفضل من وقاية الجدار الزنكى لمخزن أسلاك الكهرباء •

ومددت عنقى أتفرس وجوه الخارجين ، فشاهدتها ، شاهدت زهيرة ابنة المرحوم ابراهيم حلمى خارجة من المسرح بعد مشاهدتها القصة تتأبط ذراع زميلى القديم محمود الشيمى •

وتصاعد الدم ، الدم الباقى فى عروقى بعد الجوع الطويل، الى رأسى ، وهجمت على الجمهور الخارج من المسرح كمظاهرة وأنا أضحك ، أضحك عاليا ، واعترضت زهيرة ومحمود الشيمى رافعا كلتا يدى فى وجهيهما وأنا مازلت أتابع ضحكاتى العالية وأصيح :

ــ اسمعوا •• أنا مؤلف القصة • كلكم مجانين ، كتبت هذه القصة لما كنت مع زهيرة هذه ، ولكننى هجرتها ، أنا الذى هجرتها ، توسلت الى أن أبقى فأبيت ، لا يغرنكم مظهرها ، لا تصدقوا حرفا واحدا مما كتبته فى هذه القصة ، كنت مخدوعا ••

وقد رأيت دمعة تسيل من عين زهيرة جففتها بمنديلها الحريرى ، وأسرع محمود الشيمى فدفع بها الى السيارة التى انطلقت بهما وهى ترسل خلفها دخانها الكثيف الأسود •

وتجمع الجمهور حولى يستمع الى صياحى وضحكاتى ، ولكنه بعد قليل انصرف ، ووصلت الى أذنى أصوات خافتة تهمس: مجنون •• مجنون ••

مجنون ؟

هل أنا حقا مجنون ؟

واذا كنت مجنونا أليسوا هم مجانين اذ يتكبدون مشـــقة المجيء لمشاهدة قصـــة مجنون ؟ ويهتفون ذلك الهتـــاف الحاد لمجنون ؟

من يوميات المؤلف

● ٨ يوليو :

احتفلت اليوم بعيد ميلادى ودعوت الى الحفلة صديقا لى يقوم بتدريس الرسم فى مدرسة الفنون الجميلة وقد تلقى دراسته فى روما ، ولما أقبل الى الحفلة صحب معه سيدة ايطالية فى العقد الثالث من عمرها ، وقد قدمها الى صديقى المدرس على أنها تمثل فى مصر بيتا من البيوت التجارية الايطالية الكبرى وأنها تنزل أحد الفنادق بشارع ٢٦ يوليو .

وكانت صحف المساء قد نشرت اليوم خبر حفظ النائب العام للشكاوى المقدمة ضد زميلنا الأستاذ أحمد علوى المحامى نظرا لاصابته بخلل فى قواه العقلية نقل من أجله الى مستشفى الامراض العقلية ، ولما أخذت أتحدث الى صديقى عما كان ينتظر ذلك الزميل الشاب من مستقبل لاحظت أن السيدة الايطالية تتابع الحديث باتتباه شديد فسألتها :

ـ أتعرفين أحمد علوى ياسيدتى ؟ ـ وعندئذ أغرورقت عيناها بالدموع وأجابتنى :

ـ أجل يا سيدى ، كان مستأجرا الغرفة المجاورة لغرفتى فى الفندق ، وقد ترك عندى شيئا أود أن أستأمنك عليه ، بشرط أن تجيبنى عن سـؤال واحد أوجهه اليك ـ فزادت دهشـتى وسألتها :

ـ ما هو ؟

ـ هل تعرف سيدة مصرية تدعى زهيرة .. ابنة شخص كان يدعى ابراهيم حلمى ؟

فتبادلت مع صديقى نظرة ثم أجبتها :

ـ أجل ، توفيت هذه السيدة فى الأسبوع الماضى .. قيل أنها تناولت قدرا كبيرا من مخدر .. هذا خبر تتحدث عنه بعض الأوسـاط الاجتماعية فى القاهرة ـ وعندئذ نهضت السـيدة الايطالية واقفة وهى تقول :

ـ اذن تعال معى لأسلمك ما استأمننى عليه الشاعر الشاب أحمد علوى ، لقد اشترط فقط ألا يقرأ النـاس ما تضمه هذه الأوراق الا بعد .. بعد أن تموت زهيرة ..

وبعد ساعة كانت مذكرات زميلنا أحمد علوى بين يدى ، كما هى بين يدى القارىء .

الشيخ مرسي يتزوج الأرض

حاول عبد الصبور مرارا أن يتولى عمدية ناحيةاسطنها بمركز قويسنا فلم يوفق لأن عقبة معينــة كانت تعترض ترشيحه فى كل مرة ، وهذه العقبة أنه كان قد اتهم منذ أكثر من عشرة أعوام بقتل والده المرحوم الشيخ عسران عمدة اسطنها الأسبق ، ولكن القضية حفظت لعدم كفاية الأدلة ، ولو أن أهل اسطنها ــ الذين لم يشكوا لحظة فى أن عبد الصبور هو قاتل أبيــه ــ التمسوا لعبد الصبور أكثر من عذر مخفف ، فقد تزوج العمدة السابق الشيخ عسران بعد أن تجاوز الثمانين من عمــره فتاة لم تكن قد تجاوزت العشرين من أهل البرادعة وهى قرية تابعة لمركز قليوب ، ولما حملت الزوجة الشابة تهامس أهل اســطنها بأن العمدة الشيخ عسران يعتزم أن يبيع عشرة أفدنة من الأرض

التى توارثتها أسرة عسران أبا عن جد فى ناحية اسطنها لــكى يشترى بثمنها أرضا باسم زوجته الشــابة فى بلدتها البرادعة حتى يدرأ عنها مالا بد أن يثيره ولداه ــ من زوجته الأولى ــ عبد الصبور وأحمد من مشاغبات ، كان يتوقع المرحوم الشيخ عسران أنهما لن يمكنا زوجته الجديدة من الانتفاع بحصــتها وحصة ابنها الصغير منه فى تركته لو أن هذه التركة ظلت أرضا بناحية اسطنها ، وزاد فى عطف أهل اسطنها على عبد الصبور أن والده العمدة السابق كان قد تفــاوض فى بيع الفــدادين العشرة مع بقال يونانى جاء الى مركز قويسنا قبل ذلك ببضعة أعوام مهاجرا لا يملك من حطام الدنيا شيئا ، ثم جمع ثروة من اقراض قرويى المنطقة بالربا الفاحش ، فلما وجد الشيخ عسران ذات صباح مقتولا بعيار نارى فى حقل الذرة الذى كان يعتزم بيعه الى البقال اليونانى ترحم أهل اسطنها عليه . الا أن النيابة لم تجد شاهدا واحدا يشهد بأنه رأى عبد الصبور فى محــل الحادثة أو على مقربة منه ، بل أجمع الكل على أنه كان فى وقت ارتكاب الحادثة بالقاهرة لزيارة ابنه الأصغر مرسى الذى كان يتلقى العلم بالجامع الأزهر .

ولما انقضت أيام مأتم المرحــوم الشــيخ عسران اجتمعت لجنة شياخات مديرية المنوفية واختارت احمد عسران ابن العمدة القتيل عمدة لناحية اسطنها بعد أن استبعدت من قائمة المرشحين

اسم عبد الصبور ابنه الأكبر ، مع أنه كان أحق بالاختيار لولا التهمة التى وجهت اليه بشأن قتل أبيه .

وقبل أحمد منصب العمدية بعد استئذان أخيهعبدالصبور على أن يعاود عبد الصبور السعى للفوز بذلك المنصب عند ما يسدل النسيان ستاره على الحادث .. وانقضت بضعة أعوام أخرى . ولما حج عبد الصبور عسران الى بيت الله أعد أحمد عسران عمدة اسطنها العدة لاستقبال أخيه الأكبر عبد الصبور عند عودته من الحجاز ، فوقفت موسيقى انقرية على جسر الترعة المؤدى الى « دوار العمدة » أو « السراى » كما اعتاد أهل القرية أن يسموه ، ولمامر موكب « الحاج » عبد الصبور بين زغاريد النسوة على مقربة من المكان الذى وجدت فيه جثة المرحوم الشيخ عسران العمدة السابق صباح يوم من أيام الصيف تهامس عجائز القرية :

ــ زار بيت الله لينال مغفرته فى الآخرة ، وبقى الآن أن ينال موافقة لجنة شياخات المديرية على تعيينه عمدة ..

وصح ما توقعه عجائز قرية اسطنها ، فقد جدد عبد الصبور السعى لدى المديرية ولكن سوء حظه أن وكيل النيابة الذى كان قد حقق تهمة قتل أبيه المرحوم الشيخ عسران عمدة اسطنها السابق منذ أكثر من عشرة أعوام قد عين محافظا للمنوفية ، فلما عرضت عليه أوراق الترشيح وفيها تنازل من

العمدة أحمد عسران لأخيه الأكبر واعتذاره عن تولى العمدية لأسباب صحية أشر على الورق بالرفض وهدد باختيـار مرشح آخر من أسرة أخرى منافسة لأسرة عسران ، فخشى عبدالصبور من هذا التهديد الذى لو نفذ لجـردت أسرة عسران من كل مظاهر سطوتها : اذ أنه لولا بقاء « العمدية » فى الأسرة لمـا سمى بيت الاسرة « السراى » ، ولما عين ابن عمه شيخا للخفراء ، ولما عين ابن أخيه عاملا للتليفون يتلقى اشارات المركزالتليفونية فتعرف الأسرة الأنباء قبل غيرها ، ولما بقى « السلاحليك » أى مجموعة الأسلحة النارية الخاصة بخفراء القرية فى بيت الأسرة رمزا لسطوة الحكومة التى يمثلها العمدة ، ولما استطاعت الأسرة أن تتخلص من خصـومها بادراجهم فى كشف الخطرين على الأمن العام الذين كانت الحكومة تنفيهم الى « جبل الطور » تنفيـذا للقوانين العرفية التى صـدرت أثناء الحرب العـالمية الأخيرة .

وكان عبد الصبور عسران قد تقدم فى السن .. فاتجـه تفكيره الى اعداد ابنه الأكبر قطب لكى يفوز بالعمدية التى تولاها عمه أحمد بعد أن حرم هو ، عبد الصبور ، منها بسبب الحرص على أرض أجداده، وأعد عبد الصبور لكل شىء عدته ..

كان ابنه الأصغر « الشيخ » مرسى عبد الصبور قد انتهى من دراسته الدينية بالجـامع الأزهر وعين واعظا لأحد مراكز

محافظة المنوفية ، فسعى عبد الصبور بواسطة نائب الدائرة ، الذى ساعدته أسرة عسران مساعدات جمة فى الانتخابات،حتى نقله واعظا لمركز قويسنا ليكون على مقربة من بلدته اسطنها

وذات يوم من أيام الصيف الماضى خرج عبد الصبور مع ولديه قطب و « الشيخ مرسى » من « الدوار » بعد صلاة العشاء وأخذ الثلاثة يسيرون على جسر الترعة متجهين الى خارج البلدة ، وتوقف عبد الصبور ــ دون أن يشعر ــ عند رأس حقل الذرة الذى وجدت فيه ذات يوم جثة أبيه المرحوم الشيخ عسران وقد أصيب بعيار نارى من ... مجهول ..

كانت عيدان الذرة قد تكاثفت وارتفعت حتى تجاوزت قامة الرجال الثلاثة ، وكان نسيم الليل يهب على تلك العيدان فتتماوج فى رقة وهى تتهامس فى حفيف كأنها تخشى أن تكشف سرا رهيبا تحرص عليه فى جوفها ..

ونظر عبد الصبور عسران الى عيدان الذرة .. كانت كعهده بها كثيفة لا يمكن للمار على الجسر أن يرى المختفى بينها .. ولو كان على مقربة منه .. وسادت فترة صمت ثم قال :

ــ عرفتما ولا شك أننى حاولت أن أحل محل أبى فى عمدية بلدتنا فلم يرد الله ذلك ، وبقى أن تنال أنت ياقطب هذا

الحق بعد عمك أحمد ، وقد فكرت فى أن أرشحك شيخاللبلدة تمهيدا لاختيارك عمدة فيما بعـــد ، ولما كان من الضرورى أن تكون مالكا لخمسة أفدنة فاننى اعتزمت أن أبيع لك خمســة أفدنة مما أملك فى هذا الحوض تسجل باسمك وينتقل تكليفها اليك ، ولكن الأعمار بيد الله ياولدى ، وأنا أخشى أن يدخل الشيطان بينكما بعد وفاتى ، ولذلك رأيت أن أبيع لأخيك مرسى خمسة أفدنة أخرى فى نفس الحوض حتى لايحس أحدكمـــا بأننى فضـــلت الآخر عليه ، وحتى لاتزعم زوجة أحدكما بأن أولادها أعز لدى من أولاد الآخر ، عليك يامرسى أن تعد أنت صورة العقد الابتدائى وأن تتولى اتمام اجراءاته ..

ولما عاد الثلاثة الى القرية ليلتئذ كان النسيم لا يزال يهز عيدان الذرة فى رفق ، وكانت تلك العيدان لاتزال تتهامس فى حفيف خافت لم يزعج القرية النائمة ..

(٢)

وسارت الحياة فى بيت عبد الصـــبور عسران بعد ذلك عادية لم يعكرها شىء اللهم الا مظاهر الغيرة بين نظلة زوجة قطب شيخ البلد الجديد وخديجة زوجة أخيه «الشيخ» مرسى واعظ المركز ، فقد تحرشت نظلة بســلفتها ذات يوم بعد أن لاحظت أن حماها عبد الصبور قد أعجب بصنف من أصـــناف

الحلوى أعدته خديجة بيدها كانت قد تعلمت طهيه فى القاهرة عندما كان زوجها يتلقى دراسته فيها ، اذ مرت نظلة أمام باب غرفة خديجة بعد أن خرج زوجاهما الى عملهما وقالت فى لهجة ساخرة :

ــ اذا كنت وزوجك قد استطعتما أن تأكلا عقل الرجل العجوز فاعلمى أنه لن يخلد ..

فسألتها خديجة مندهشة :

ــ ماذا تقصدين ؟

فأجابت الأخرى وهى تقتحم غرفة سلفتها وتشير من نافذتها الى حوض الذرة الذى باع حموها نصفه لزوجهاونصفه الآخر الى أخيه :

ــ بأى حق يستحل زوجك هذه الفدادين الخمسة ؟

ــ ألم ينل زوجك مثلها ؟

ــ لم ينلها هبة أو حسنة كما نالها زوجك بل نالها بعرق جبينه ، لقد اشتغل فى هذه الأرض منذ طفولته ، زرعها ورواها وحرثها وطالما ذرعها خلف الماشية من مطلع الفجر حتى غروب الشمس بينما كنت أنت وزوجك فى القاهرة تنعمان بحياتها .

ــ لم يختر مرسى هذه الحياة لنفسه بل اختارها أبوه له

كما تعرفين فلم تريدين أن يحرم من نصيبه فى أرض أبيه ؟.. ومع ذلك لقد أصبح حمونا يعتمد على زوجى كل الاعتماد فى الكثير من شئونه ، مرسى هو الذى يعد العقود التى يكلفه أبوه بها أو ما تكلفه الأسرة به ، اليوم مثلا سافر الى القاهرة خصيصا لاستحضار بعض أدوية لعمه العمدة أشار مفتش صحة المركز عليه بتعاطيها بعد أن اشتدت عليه وطأة المرض ، مسكين مرسى .. لو أوقد أصابعه شموعا لما أرضاكم .

ـ منذ متى جاءتك هذه الجرأة على مهاجمتى .. عندما جئت من القاهرة كنت تعجزين عن التمييز بين شجرة الطماطم وشجرة الكرنب .. ولكنك الآن تستحلين لزوجك أن ينال نصيبا مماثلا لنصيب زوجى .

وأمسكت نظلة بخصلة من شعرها فانكشف وشم أخضر دق عند أعلى صدغها وهزت الخصلة فى يدها وهى تقسم بها ـ وحياة هذه لأرينك النجوم فى الظهر .. سترين ان هذا البيت بعد موت العجوز لن يسع الا واحدة منا نحن الاثنتين ..وثقى أن التى ستبقى هى التى لم ير أهل اسطنها وجهها حتى الآن ، لا التى عرضت وجهها لكل عابر سبيل فى شوارع القاهرة !

وخشيت خديجة أن تتطور هـذه المناقشة الى شجار فارتدت ثوب الخروج ، وأسدلت على وجهها النقـاب الذى

اعتادت أن تسدله منذ جاءت من القاهرة ؛ ثم ذهبت الى سراى العمدة أحمد عسران لعيادته .

ولما أقبل « الشيخ » مرسى من القاهرة لم تشأ خديجة أن تخبره بما دار بينها وبين سلفتها ، ولكنه لاحظ أن السراى قد اكتظت بأهل اسطنها الذين أقبلوا للاطمئنان على صحة عمدتهم ، وعلموا من ستيتة زوجة العمدة أن العمدة لم ينتظر عودة ابن أخيه مرسى من القاهرة بالأدوية التى نصح مفتش صحة المركز له بتناولها بل استدعى حلاق الصحة الذى رأى أن يفتح الخراج الذى كان يشكو العمدة منه .

ولم تكد تنقضى بضع ساعات حتى ظهرت أعراض التسمم على العمدة ، واستدعى مفتش الصحة من قويسنا فلما فحص المريض لوى شفته وهز رأسه ثم غادر البيت ..

ولما أقبل مساء ذلك اليوم كان أحمد عسران عمدة اسطنها قد أسلم الروح ، فارتفع فى سماء القرية الوادعة نواح النسوة وعويلهن ..

وفى الصباح بينما كان الرجال يصلون على جثمان العمدة الراحل فى جامع القرية كانت مصبغة القرية قد أرسلت كمية من « النيلة » الزرقاء المخصصة لصبغ الملابس لكى تلطخ بها نساء أسرة عسران وجوههن علامة على الحزن ، فلما انتهين من

ذلك هبطت نظلة الى فنـاء الدار وجمعت حفنـة من التراب أضافتها الى « النيلة » على وجهها وهى تنظر الى سلفتها خديجة شامتة وتقول فى صوت تكلفت فيه النواح على الميت :

ــ لو وضعت تراب أرض اسطنها كلها على رأسى لما برد حزنى عليك ياسيدى ، لقد تيتمت بعدك ياعمى : مت وتركتنى لمين يا سبعى ! ..

كان الكلام موجها الى الميت الراحل ولكن نظرتها كانت موجهة الى خديجة ، وكان باقى النسوة المشتركات فى النواح يعلمن أن آخر من يبكى لموت عمدة اسطنها هى نظلة، لأن زوجها قطب شيخ البلد هو المرشح الوحيد الذى سيحل محل العمدة الراحل ..

(٣)

فى نهاية ليلة الأربعين التى تليت فيها سور من القرآن ترحما على روح المرحوم أحمد عسران عمدة اسطنها السابق ، وايذانا بانتهاء أيام الحداد ، وقف عبد الصبور عسران على باب بيت أخيه الراحل يتلقى مع ولديه قطب ومرسى تعازى المعزين، فلما خرج آخر معز تقدم عبد الصبور الى جسر الترعة وسار الى خارج القرية فتبعه ولداه .. كان صامتا لايتكلم ولـكن

ولديه أحسا بأنه يعتزم أمرا ما •• وظل سائرا حتى وقف عند رأس الحوض الذى يضـم الفدادين العشرة التى ترك ولديه يملكانها وهو لايزال على قيد الحياة ، وخط بعصـاه الأرض عند المكان الذى وجدت فيه جثة أبيه المرحوم الشيخ عسران عمـدة اسطنها الأسبق •• وقد أصيب بعيـار نارى من ••• مجهول ! ثم قال بصوت أجش :

ـ من مات مات فليرحمه الله وليجعل نصيبه الجنة،علام نويت ياقطب ؟

فارتعد قطب شيخ البلد وسأل أباه ، وهو ينظر الى العصا التى كان عبد الصبور لا يزال يخط بها الأرض :

ـ ماذا تقصد ياأبى ؟

والتفت عبد الصبور الى ابنه الأكبر وحدق فى عينيه ثم أجاب والعصا تهتز فى يده :

ـ هذه القطعة تضم عشرين فدانا ورثناها أنا والمرحوم أخى عن أبينا •• نلت أنا منها عشرة أفدنة تركتكما ترثانها وأنا على قيد الحياة •• ونال المرحوم أحمد العشرة الأخـرى التى تبدأ من هذا المكان • هذا هو الحد الفـاصل بين أرض •• أستغفر الله أرضكما وأرض عمكما المرحوم ، وقد مات أحمد عن زوجته ستيتة وهى صبية فى الثلاثين من عمرها وعن ولد

وبنتين ، وستيتة كما تعلمان ليست من اسطنها ، بل ليست من المنوفية كلها ، انها كما تعلمان من محافظة البحيرة ، فاذا بقيت أرملة فانها ستعين وصية على أولادها ، وستتزوج ، وستوكل هذا الزوج فى محاسبتنا ، وسنجد أنفسنا على أى حال أمام رجل غريب عنا يناقشنا الحساب عن أرض ورثناها عن آبائنا وأجدادنا ـ ثم أدار ظهره الى الأرض كأنه لم يعد يقوى على النظر اليها وهى تكاد تخرج من حيازته ، واعتمد على كتف ابنه الأكبر وهو يقول فى صوت متهدج ـ أرض ضحينا بكل شىء لكى نمنع عنها الغريب ـ فقال قطب :

ـ وماذا ترى يا أبى ؟

ـ أتتغابى ياقطب ؟ .. لاحل لهذه المشكلة الا بأن تتزوج زوجة عمك ، حصتها فى تركة عمك مآلها اليك والى أولادك منها ، وحصة أبنائها أبناء عمك تديرها أنت ، ابن ابن عسران ، لارجل غريب .

ـ ولكن ...

فقاطعه :

ـ ماذا ؟.. اذا كنت تخشى غضب نظلة زوجتك فاترك أمرها لى ، سأتولى اقناعها ، انها تحبك وتحب لك الخير،وعلى أى حال فان الله لم يرزقك منها الا ببنت ، انك فى حاجة الى

ولد يحل محلك فى الغيط اذا ماكبرت أو صرفتك مهام العمدية عن الزراعة • ـ فتمتم قطب فى شبه حشرجة •

ـ كما ترى يا أبى •

ـ مبروك ياابنى •• الله يزيد ويبارك ••

وفى صباح اليوم التالى علم عبد الصبور أن ستيتة أرملة أخيه قد بدأت تحزم ثيابها استعدادا للرحيل الى بلدتهـا فى البحيرة فتوجه الى بيت أخيه المرحوم أحمد عسران وقال لأرملة شقيقه :

ـ من تدخل بيتنا لاتستطيع الخروج منه ، كنت زوجة عمدة اسطنها وستظلين زوجة عمدة اسطنها •• أما أولادك فهم من بيت عسران ولدوا فى اسطنها ويموتون بعد عمر طويل فى اسطنها ••

وبعد انقضاء أيام « العدة » عقد زواج قطب عبد الصبور على « ستيتة » زوجة المرحوم عمه عمـدة اسـطنها الراحل ، فانطلقت زغاريد النســوة فى القرية ، ورئيت خديجـة زوجة الشيخ مرسى واعظ المركز تفتح نافذة غرفتها وتطلق الزغرودة تلو الأخرى •• شماتة فى سلفتها نظلة التى كانت قد دخلت غرفتها وأغلقت بابها ثم استسلمت للبكاء ••

وانصرف قطب بعد زواجه من ستيتة الى اتخاذ الاجراءات

الخاصة بترشيحه لعمدية ناحية اسطنها ، فكثر تردده على مركز قويسنا وعلى شبين الكوم عاصمة المحافظة واستوفى ما كان ينقصه من الشروط الشكلية التى تؤهله للعمدية ، ومنها أن يكون مالكا لعشرة أفدنة ، اذ اشترى مما اقتصده من استغلال الفدانين الخمسة التى باعها له أبوه ثلاثة فدادين فى اسطنها وباعت له زوجته الجديدة ستيتة حصتها فى تركة زوجها العمدة الراحل ، وبذلك استوفى «النصاب المطلوب» ، وأحست خديجة بأن انصراف زوجها الى عمله كواعظ لمركز قويسنا لم يمكنه من مجاراة شقيقه قطب فى تنمية ثروته خصوصا بعد أن تزوج ستيتة ، وأصبح يدير ماورثه أولادها عن أبيهم أحمد عسران العمدة السابق ، وان مكانة سلفها قطب فى اسطنها قد ارتفعت بترشيحه للعمدية ، فحاولت مرارا أن تلفت نظر زوجها الى ذلك عبثا ، كان منصرفا الى دروسه الدينية يعدها أثناء الليل فى بيته باسطنها ويلقيها أثناء النهار فى مساجد قرى المركز التى اعتاد أن يتجول فيها .

وثارت خديجة ذات يوم عندما لاحظت أن قطبا قد اشترى لزوجته نظلة بضعة ثياب جديدة ، خطرت بها نظلة فى المنزل وهى تهز جسمها الضخم المترهل أمام بعض القرويات ، وسمعت خديجة احداهن تقول لنظلة :

ـ ان جسم زوجة « حضرة العمدة » هو الذى يبرزجمال

هذا الثوب ، مهما لبست الزوجة الجديدة فان نحافتها تخفى جمال هذه الثياب الجميلة الزاهية اللون ..

وأرسلت قروية أخرى ضحكة ساخرة وقالت وهى تشير الى ستيتة زوجة قطب الجديدة :

ـ يظهر أن أهل البحيرة محرومون من الأكل .. لم نحس قط منذ حضرت ستيته الى اسطنها بأن لنا زوجة عمدة ! كيف يمكن أن نحس بها ونحن نراها جلدا على عظم ؟!

فلما عاد الشيخ مرسى من عمله فى المساء فاجأته خديجة:

ـ أرأيت الثياب التى اشتراها أخوك لزوجته ؟ .. ان المرتب الذى تعطيه لك الحكومة لايكفى لشراء ثوب واحدمنها، لا أدرى ماالذى يبقيك فى هذا العمل الذى لايعود عليك الا بالتعب والفقر ..

ـ ماذا تريدين منى أن أفعل ؟

ـ افعل كما فعل أخوك ، اترك هذا العمل وانصرف الى الزراعة ، أنت فلاح ابن فلاح ، وقد كون أبوك وجدك ثروتهما من العمل فى الأرض وهاهو ذا أخوك يحذو حذوهم فتضاعفت ثروته ، وسوف يصبح عمدة يدين له الجميع بالطاعة ..

وأنصت الشيخ مرسى الى كلام زوجته ثم هز رأسه مشفقا وقال :

ـ مازلت طفلة .. ابتهلى الى الله أن يديم علينا رزقنا من العمل الذى أزاوله ، ان لهذه الأرض التى تحسدين قطبا عليها ضحايا ، أرجو الله ألا تكونى احداها ..

وقبل أن تستفسر خديجة من زوجها عما يقصد أدارظهره وبدأ يخلع ثيابه ، ولما انتهى من خلعها تناول القرآن وأخذ يعد درسا فى شرح الآية الكريمة : « ... ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ..

وبينما كانت قرية اسطنها مستغرقة فى نومها ليلتئذ ، دوى صراخ حاد مزق سكون الليل ، صراخ نظلة وستيتة زوجتى شيخ البلد قطب عسران ، فقد حمل الى القرية جثة هامدة ..

كان قطب قد ذهب الى القاهرة فى شأن من شئون ترشيحه للعمدية ، وفى أثناء عودته باحدى سيارات الركاب اختل توازن السيارة فسقطت بمن فيها فى احدى الترع ولم يتمكن المرحوم قطب من النجاة لأن باب السيارة كان مغلقا من الداخل ..

وعادت نساء أسرة عسران الى ارتداء ثياب الحداد السود ، كما عادت مصبغة القرية الى ارسال كمية من «النيلة» الزرقاء الى بيت عسران لكى تلطخ بها أولئك النسوة وجوههن وهن يبكين ويولولن ..

وعندما حضر معاون ادارة المركز لتحرير محضر حصر تركة

المرحوم قطب باعتبار أنه ترك قاصرا من زوجته الأولى نظلة كما ترك زوجته الثانية ستيتة حاملا ، وأثبت فيه ما يخص كلا من زوجتيه نظلة وستيتة من تلك التركة ، كان عبد الصبور عمران جالسا في فناء بيته الذي اختص ابنه المرحوم قطب بجناح منه انتقلت اليه ستيتة بعد زواجها منه ؛ واختص الشيخ مرسى بجناح آخر ، البيت الذي كان عبد الصبور يتمنى ذات يوم أن ينال لقب « السراى » بعد وفاة أبيه ، فلما انتقل اللقب الى بيت شقيقه المرحوم أحمد عمران ظل يمنى النفس بأن يعود هذا اللقب يوما ما الى بيته هو ، ولذلك لم يوافق على أن يستقل ابنه قطب بالمعيشة فى منزل مستقل بعد زواجه الأول ولا بعد زواجه الثانى .. ولم يكد معاون ادارة المركز يثبت بيان ماتركه المرحوم قطب حتى اغرورقت عينا أبيه عبد الصبور بالعبرات ورفع رأسه في تثاقل ثم التفت الى حيث جلس ابنه الشيخ مرسى وحدقه برهة بنظرة طويلة ذات معنى ارتجف لها جسم الواعظ الشاب الذى قضى شطرا كبيرا من حياته فى القاهرة ، والذى لم يكن قد استطاع بعد أن ينسجم مع الحياة الريفية انسجاما تاما .

ولاحظ الشيخ مرسى بعد انقضاء ليلة « الأربعين » أن « الضرتين » نظلة وستيتة قد بدأتا تحزمان أمتعتهما للرحيل .. فخطر له أن يخبر والده بذلك ولكنه جفل .. الا أن شيخ

الخفراء أخبر عبد الصبور أن بعض أهالى ستيتة فى محافظة البحيرة قد كتبوا اليه ليسهل عودتها الى بلدتها ، فاستدعى عبد الصبور ابنه مرسى ونقل اليه ، فى صوت رهيب ، ما سمعه من شيخ الخفراء ، ثم تهدج صوته وهو يتمتم :

ــ أنت السبب يامرسى .. ماذا أفعل ؟.. لاحظت أنك صامت لاتريد أن تتكلم ، علام نويت ؟

ونظر الشيخ مرسى الى أبيه مذهولا ، تذكر ذلك الموقف المماثل الذى وقفه أبوه مع قطب أخيه عند رأس الحوض الذى يضم الفدادين العشرة .. عند الحد الفاصل بين الأرض التى باعها أبوهما لهما والأرض التى ورثتها ستيتة وأولادها عن عمه المرحوم أحمد عسران العمدة السابق ، وحاول الشيخ مرسى أن يتكلم فلم يقو .

وعاد عبد الصبور يقول:

ــ تكلم يابنى .. الأرض التى ورثتها عن أبى ، وأفنيت فى تعهدها زهرة شبابى ، وبعت نصفها لقطب ، أخيك ، ابنى الأكبر ، أيرضيك أن ينتفع بخيرها كل من هب ودب ومن أعرف ومن لا أعرف ؟.. ألا يكفى أن أنكب بوفاة أخيك فتخرج أيضا زوجتاه من بيتى وأظل ــ فى أيامى الأخيرة ــ مهددا فى كل لحظة بزوج احداهما ، أو زوجين جديدين لهما ، أو أخ

أو عم من البحيرة ، يناقشونني الحساب عن أرضى ، أرض أبي وجدى ؟!

وشعر مرسى بقبضة يد أبيه نشد على ساعده ، وومضت عينا عبد الصبور وميضا مخيفا ، ثم استمر قائلا :

ـ أيرضيك يامرسى أن أموت بحسرة الأرض ؟ .. لو أنني رأيت أحدا من غير بيت عسران يطأ هذه الأرض بقـدمه لمت كمدا اذا عجزت عن .. ـ واحتبست الـكلمة فى جوفه أول الأمر ، ولكنه أشاح بوجهه الى ناحية الحوض التى وجدت فيه جثة أبيه ذات صباح منذ أكثر من عشرة أعوام واستمر قائلا فى حشرجة ـ اذا عجزت عن قتله !

وكأن هذه الذكرى قد حطمت أعصابه ، تهالك على مقعد وحاول التجـلد ولكنه لم يستطع فأجهش بالبـكاء .. لم ير مرسى أباه يبكى قط قبل ذلك اليوم ، كان جبارا من جبـابرة القرية ، وانحنى الشيخ مرسى على أبيه الهرم يسأله فى عطف:

ـ ماذا حدث حتى تبكى هكذا ياأبى ؟

ـ أرى بيتى مهددا بالخراب بعـد أن هرمت ولم أعد أقوى على انقاذه .

ـ مازلت أنا شـابا ، ماذا تريدنى أن أفعـل ؟ .. ماذا يرضيك ؟

ــ انك تعرف ماذا يرضينى .

ــ فحدق فى عينى أبيه وسأله فى همس مرتجف .

ــ أتريد أن أتزوج نظلة وستيته ؟

وعاد عبد الصبور يستجمع شيئا من قواه ثم قال :

ــ وماذا يضيرك فى هذا الزواج ؟.. ألست رجلا كبقية الرجال ؟ .. جدك تزوج أربعا على دين الله ورسوله والأربع بقين فى عصمته حتى مات ، أما أنت فلن يكون فى عصمتك الا ثلاث .

ولم يستطع الشيخ مرسى أن يعد والده بالقبول يومئذ ، كما لم يستطع أن يصارح زوجته بما دار بينه وبين والده فى هذا الشأن من حديث .. لم يشأ أن يؤلمها وقد عاشت معه طيلة السنين الماضية مثالا للزوجة الوفية المطيعة .

وتعمد الشيخ مرسى أن يتغيب عن اسطنها فى الأيام التالية بحجة السعى فى موضوع ترشيحه للعمدية ، فلم يعد هنـاك مناص من أن يحل محل شقيقه فى ذلك الترشيح ، اذا أرادت أسرة عسران أن تحتفظ بالعمدية فى بيتها .

وصارحته زوجته خديجة ذات يوم بأن والده عبدالصبور قد أصبح ضيق الصدر بعد وفاة ابنه الأكبر قطب ، وأنها حاولت أن تسرى عنه كما اعتادت من قبل فلم توفق .. وخشى مرسى مرة أخرى أن يكشف لها عن السر فى تغير معاملة أبيه لها ..

كان يخيل الى عبد الصبور أن تردد مرسى فى قبول الزواج من أرملة أخيه انما يعود الى رغبته فى عدم ايلام زوجته الأولى خديجة .

وأخيرا تبين الشيخ مرسى ، بعد أن اجتمع رجال أسرة عسران به مرارا ، أن مقاومته عبث ، فقبل الزواج من نظلة وستيتة .

(٤)

فى مساء يوم من أيام هذا الصيف عاد الشيخ مرسى عبد الصبور من عمله فى مركز قويسنا فوجد مهندس زراعة المركز فى انتظاره بفناء دار أسرة عسران التى كان أهل اسطنها قد بدءوا يتدربون على تسميتها « السراى » تمهيدا لاختيار الشيخ مرسى عمدة للناحية ، فتحدث الى المهندس فى شئون الأرض التى أصبح يديرها ، الأرض التى باعها له أبوه ، والتى ورثتها ستيتة عن زوجها الاول أحمد عسران ثم باعتها الى زوجها الثانى قطب عسران كما ورثها أولادها منه ، الارض التى ورثتها نظلة عن زوجها قطب كما ورثتها ابنتها منه ، وكان الشيخ قد اعتزم أن يزرع جزءا من تلك الأرض حديقة وتفاهم مع مهندس الزراعة على ذلك ، فلما صعد الى المنزل حيث تقيم زوجاته الثلاث سألته نظلة :

ـ لماذا اخترت القطعة الخاصة بأولاد ستيتة لكى تزرع فيها الحديقة ؟.. أنا أعرف السبب ، ان خديجة لم تنس كراهيتها لى ، هى التى أشارت عليك بذلك ، أليست ابنتى من المرحوم قطب عزيزة عليك كأولاد ستيتة ؟ .. اننى على الأقل من اسطنها أما هى فلا أدرى أية قرية من قرى البحيرة ألقت بها الينا .

وسمعت ستيتة هذا الحديث فخرجت من غرفتها وصاحت بضرتها :

ـ انى وان لم أكن من اسطنها الا أننى فعلت مالم تفعله بنات اسطنها ، تعرفين ويعرف زوجنا الشيخ مرسى أننى بعت لأخيه المرحوم قطب جميع ما ورثته عن زوجى الأول المرحوم أحمد عسران العمدة الأسبق لكى أمكن المرحوم قطب من أن يعين عمدة .. ماذا فعلت أنت ؟!

ولم يجب الشيخ مرسى عبد الصبور بل دخل الى غرفته .. أو بتعبير آخر الغرفة التى « كانت » غرفته الوحيدة قبل أن يصبح زوجا لثلاث نسوة ، ولما وجد خديجة زوجته الأولى تبكى ، تناول الدرس القديم الذى كان قد أعده ذات يوم على شرح الآية : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ... »

وأخذ يكرر الجزء الأخير من الآية فى صـــوت مرتجف ملقيا بصره من النافذة الى مهندس الزراعة وهو ينظم شـــئون الرى والصرف فى أرض آل عسران ، ويعد العدة لتنفيذ مشروع انشاء حديقة فى جزء من تلك الأرض ..

الدرجة السادسة

كان المعلم عباس بندق الجزار بشارع الناصرية معروفا فى تلك الجهة بشراسة أخلاقه شراسة كانت تنضم اليها عند اللزوم زوجته أم أمين عندما تجد زوجها مهددا بالخطر من نساء الحارة، وهو أمر كانت تتقنه أم أمين بكل ما لديها من صوت عال أجش وحركات سريعة من يديها ، وقائمة معهودة من الشتائم تنسب فيها الى كل جارة من الجارات المعتديات علاقة خاصة مع أحد رجال الحارة !

ومع ذلك فقد استطاع المعلم عبـاس ــ رغم فقره ــ أن يربى ابنه ووحيده أمين تربية لم تكن تنتظر من شخص فى مثل ظروفه ، اذ أدخله فى احدى المدارس الابتدائية ولما أتم دراسته فيها سعى بواسطة أحد كبار موظفى مصلحة الأملاك ــ

ـ الذين كانوا يأخذون « راتب » اللحم من المعلم عباس ـ فألحق أمينا بالدراسة الثانوية مجانا ، ولم يكد يتمها على نفقة الدولة ، حتى أسرع ذلك الموظف الكبير بتوظيفه فى احدى الوظائف الكتابية بمصلحة الأملاك بمرتب قدره عشرة جنيهات شهريا ، ، فتلقى المعلم عباس تهانى الجيران والزبائن وهو يبتسم زهوا وفخرا وقد أصبح ابنه أمين أفندى عباس ، من موظفى الحكومة الذين يذهبون صباحا الي الديوان ويعودون الى البيت ظهرا بين نظرات الحسد والاعجاب .. خصوصا من أهل « حارة الحجارة » الذين لم يتعودوا من قبل أن ينبع من بينهم مثل أمين أفندى .

وانتظرت أم أمين من الجميع أن يبدلوا اسمها الذى اعتادوا من قبل أن ينادوها به ، وقد فازت فعلا بذلك وأصبحت تدعى « أم الأفندى » .

ولكنها منذ حصل ابنها على « الشهادة » عزمت عزما أكيدا على أن تزوجه ، كانت قد وعدت احدى قريباتها بأن تزوج ابنتها حكمت لابنها أمين بمجرد توظيفه ، فلما صدر الأمر بتعيينه أسرعت باعداد معدات الفرح ، ودخلت الفتاة حكمت الى بيت المعلم عباس بندق زوجة لابنه أمين .

والواقع أن أمينا كان يشعر تماما بظروفه الخاصة ، وكان يقدر المجهود العنيف الذى بذله أبوه لتربيته ، كما أنه كان

يعلم مبلغ شراسة أمه واعتدادها برأيها ، ولذلك لم تكن له في البيت كلمة نافذة ، كان يتحاشى بقدر الامكان أن يصطدم بها ، وقد تزوج بحكمت قبل أن يراها أو يبدى رأيا فيها ، بل اكتفى بما قررته له أمه من أنها تليق له .

وقد خرج أمين من التعليم المدرسى الذى تلقاه بنوع من الطموح والتطلع الى ما هو أرقى وأسمى ، فلم يقنع بتلك الوظيفة الكتابية بمرتب عشرة جنيهات شهريا لا تكاد تتزحزح الا بشق الأنفس أو بيد « الواسطة » القوية ، ولذا فكر فى تحسين مستقبله عن طريق انتسابه الى كلية الحقوق بجامعة عين شمس ، وأخذ يقتصد من راتبه ما يكفى لنفقات الدراسة وثمن الكتب ، وهو كل ما كان يبقى له فى الواقع بعد أن يدفع لزوجته حكمت فى أول كل شهر نفقات المنزل الضرورية ، اذ أن المعلم عباس لم يكن يساعد ابنه بعد توظيفه الا بتركه يسكن غرفتين من غرف المنزل الذى كان يعيش فيه والذى ورثته أم أمين عن أمها بعد أن ظل المعلم عباس ينتظر بفارغ الصبر موت حماته ليظهر فى المنزل بمظهر الحاكم المطلق ، أما اللحم الذى كان يبقى من « رواتب » الزبائن فى بعض الأيام فكان يرسل الى البيت لتشترك الأسرة كلها فى أكله .

وسارت الحياة فى الأسرة على هذا المنوال ، المعلم عباس يخرج فى الصباح المبكر الى دكانه بشارع الناصرية ويتبعه أمين

الى « ديوانه » ثم تتفرغ حكمت الى اعداد الطعام لزوجها عند عودته كما تعمد أم أمين الى اعداد الطعـام لرب البيت المعلم عباس ، وقد لجأوا الى هذا النظام رغم ما كان يكلفهم من تعب ونفقة لأنه اتضح بعد مضى عام على زواج أمين أنه من العبث أن تتفق حكمت مع حماتها ، اذ أن أم أمين كانت تتهم حكمت بأن المبلغ الذى يشترك به زوجها فى « مصروف » البيت لا يتناسب مع كمية الأكل التى تستهلكها ! ، وكثيرا ما كان يعود أمين الى البيت فيجد أمه تصيح فى وجه زوجته قائلة :

ـ لا يقدرعلى القدرة الا ربنا ، طول النهار رائحة جائية على « المشنة » حتى تجهزى عليها ، ألم تعرفى طعم الخبز فى بيت أبيك ؟ اخسئى .. ما رأيت نهما كهذا النهم .. يا باى .. ابن آدم لا يملأ عينه الا التراب ..

وهكذا تندفع أم أمين فى اهاناتها وحكمت جالسة لا ترد عليها الا بقطرات من الدموع تسيل على خديها فتخفيها خشية أن تكون سببا جديدا لثورة أخرى .

وقد ظن أمين فى بادىء الأمر أنه ربما كان ذلك ناشئا من طمع والدته فى مرتبه ، وزاد المبلغ الذى كان يشترك به فى نفقات البيت بعد أن رزق ولدا ، وأوصى زوجته أن تحرص بكل مافى طاقتها على أن تتجنب الاحتكاك بوالدته .

وانقضت بعد ذلك مدة قصيرة هدأت فيها قليلا مشاغبات أم أمين ، ولكن حدث ذات يوم من أيام الجمع التى كان يقضيها أمين كلها فى البيت يستذكر دروسه أن تركت حكمت الموقد الذى كانت عليه حلة « الملوخية » وذهبت لارضاع ابنها الذى كان يبكى فى الغرفة المجاورة ، وكانت أم أمين جالسة اذ ذاك مع بعض جاراتها أمام باب البيت على حصيرة صغيرة وأمامهن « المنقد » وقد وضعت فوقه « كنكة » القهوة تنضج على لهب الفحم المحترق فحانت منها التفاتة الى حوش البيت وما كادت ترى الحلة فوق الموقد وليس هناك أحد بجوارها حتى صاحت فى لهجة ساخرة :

ـ ياحكمت هانم .. ياست حكمت هانم .. أين أنت ياست هانم ؟ قطعت قلبى الله يقطع قلبك !

وأسرعت حكمت بالخروج من الغرفة حاملة ابنها وهو يرضع من ثديها وأجابت :

ـ نعم ..

ـ أين كنت يا اختى ؟

ـ صرخ الولد فذهبت لأرضعه ..

ـ أى ولد يا امرأة ! الله يأخذ أجله وأجلك واستريح منكما ، كان يوم أسود يوم دخلت هذا البيت ..

وتألمت حكمت من تلك الاهانة الموجهة اليها أمام النساء الجالسات فتشجعت وأجابتها متسائلة :

ـ من خطبني غيرك ؟

فثارت أم أمين وقالت :

ـ انظروا البنت الفاجرة كيف ترد على ! عندما طلبتك وأحضرتك الى هذا البيت كنت قد عميت .. لم أر عظامك البارزة من صدرك كالمسامير ولم يزلها بعد ذلك أكل ولا شرب .. لم أر عينيك الغائرتين كعيني الغول ولا أصابعك المخيفة كالكرابيج .. لا أدرى والله كيف يحتمل زوجك الحياة مع امرأة مثلك ..

ولم تجد حكمت مناصا اذ ذاك من أن تجيبها :

ـ معجب بى ولا شأن لأحد بنا .. ـ فوقفت أم أمين وقد جحظت عيناها واتجهت الى حكمت ثم أمسكت بها وأخذت تكيل لها الضربات التى كان البعض منها يخطىء حكمت ويصيب ابنها، وحضر أمين على صوت الضرب فانتزع زوجته من بين يدى أمه التى عادت الى زائراتها وهى تهدد حكمت وقد أمسكت بيدها اليمنى خصلة من شعر رأسها ..

ـ سأريك .. اذا كان أبوك وأمك لم يعرفا كيف يربيانك فأنا أعرف كيف أربيك ..

وأمنت النساء الجالسات على أقوالها ووافقنها على أن

ما صدر من حكمت تعد خطير على حماتها ، وأنه من الواجب على « أم الأفندى » أن تشتد قليلا فى معاملتها ، فالمعاملة اللينة مع زوجة الابن تتلف حالها .. وفى هذه الأثناء كانت الملوخية التى تغلى فوق النار قد فارت وانسكبت الى الأرض فغطت حوش البيت بينما كانت تتعالى صيحات الهزء والسخرية من أم أمين وصديقاتها ..

منذ ذلك اليوم انفصلت حكمت عن حماتها فى اعداد الطعام، وأصبحت كل منهما تعد طعام زوجها ، وقلت ـ الى حد ما ـ المبررات التى كانت تنتحلها أم أمين لتمرن لسانها وعضلاتها على حساب زوجة ابنها ، ولو أنها كانت تنتهز كل فرصة لتذكر حكمت بأنها قالت لها أمام الناس : « معجب بى ولا شأن لأحد بنا » ، وتلمح لها من طرف خفى بأن الأمر ليس راجعا الى زوجها وانما هى التى تتصرف فى شئون البيت كلها كما تشاء دون أن يجرؤ أحد على أن يعارضها ، وكانت حكمت تشعر بروح التهديد الخفى مستترة وراء كلمات حماتها ..

والواقع أن أم أمين كانت فى بادىء الأمر تشتم وتجرح وتهين حكمت خضوعا لغريزتها كحماة لا لسبب آخر ، فلم يكن فى تصرفات حكمت ما يثيرها ، بل انها كانت على الدوام مجنيا عليها ، ثم أخذت أم أمين توقن بأن من حقها كحماة أن تفاجىء زوجة ابنها بين آونة وأخرى بتلك الاعتداءات على أنها الطريقة

المثلى لحكم البيت واخضـــاع أهله ، ولكنها منذ يوم « حلة الملوخية » تغيرت فكرتها ولم تعد تشتم وتتشاجر لترضى شهوة فى نفســها ، وانما أصبحت ترى فى حكمت منافسة لها فى البيت ، ومما ساعد على ذلك اعتكاف حكمت على الدوام فى غرفتها اتقاء لحماتها وللعنـــاية بأولادها الذين زادوا ــ على مر السنين ــ فأصبحوا ثلاثة ، ولدا وبنتين .

أما أمين فقد ظل ينجح باستمرار فى دراسته الحقوقية وأمه تنشر أخبار ذلك النجاح بين نساء الحارة فى لهجة ممتلئة بالفخر والزهو حتى وصل الى « الليسانس » التى كانت تعرفها لجاراتها اذا ما تصـــدرت مجلسهن بأنها شهادة الوزراء والمســتشارين والحكام ، وكانت وهى تسرد تفــاصيل نجــاح ابنهــا أمين ترتقب نجاحه النهائى بفارغ الصبر لا أملا فى فوز ابنها بهذه الدرجة العلمية أو لما ينتظره من ورائها من مســتقبل ، فهذه أمور لم تكن عقليتها الصغيرة تستطيع ادراكها .. وانما كانت ترمى من وراء ذلك الى غرض تبيته وتعتزم الاقدام على تحقيقه بمجرد حصول أمين على الشهادة .

ولما أعلنت النتيجة كان أمين عباس الجزار الموظف بمصلحة الأملاك بين الحاصلين على ليسانس الحقوق .

وأسرعت أم أمين فأرسلت ابنها الى ذلك الموظف الكبير فى المصلحة التى يعمل فيها والذى سبق أن ألحقه بها ، ذهب اليه

ومعه والده المعلم عباس الذى كان لا يزال يورد «راتب» اللحم اليه صباح كل يوم ، ولما تحدثا معه فى شـأن ترقية أمين بعد حصوله على الليسـانس أخبرهما أنه عضو فى لجنة الترقيات الخاصة بالمصلحة وأن هناك درجة فنية خالية بادارة الشـئون القانونية ، ووعدهما بأنه سيعمل على ترقية أمين اليها ، وبذلك ينتقل من الدرجة الكتابية بمرتب عشرة جنيهـات الى الدرجة السادسة الفنية بمرتب مبدؤه خمسة عشر جنيها ، وهى طفرة لم يكن أمين يحلم بها قط .

وعادا يحملان البشرى الى أم أمين التى أسرعت باحياء « ليلة » وزعت فيها العيش والفول النابت للسيدة زينب احتفالا بنجاح ابنها وفرحا بترقيته المرتقبة .

واختلت بأمين فى احدى زوايا البيت ، أجلسته بجانبها على « الشلته » بعد أن جلست هى القرفصاء ، ثم انحنت عليه وأدنت وجهها من وجهه شاخصة اليه قائلة له وهى تضرب بيدها على فخذه وتهز رأسها هزات متقطعة :

ــ هيه .. ألم يؤن الأوان لكى تفيق من غفلتك ؟

فسألها الشاب فى شىء من الدهشة :

ــ لم ؟

ــ أتنوى أن تقضى عمرك عبيطا ؟ يجب أن تعرف مركزك وتعطى لنفسك حقها ، لست تافها كما يبدو لك ، انت موظف ملء

الدنيا تذهب فى الصباح الى المصلحة وتعود منها ترمقك نظرات الاعجاب والتقدير ، مرتبك اليوم أصبح خمسة عشر جنيها ... خمسة عشر جنيها كل جنيه منها يرن فوق أخيه ... مثلك مثل خير موظف فى مصر ... وعيب عليك مادام ربنا قد فتح عليك أن تبقى هذه المرأة معك .

وفهم أمين ما أرادت أمه أن ترمى اليه فقاطعها قائلا :

ـ وما شأن حكمت بالشهادة والترقية ؟

فوضعت أمه قبضتي يديها عند مفصلى فخذيها ولوت وجهها فى ابتسامة مغتصبة ثم قالت :

ـ ما شأنها ! لقد زوجتك هذه البنت عندما كنت صغيرا وعندما كان مرتبك صغيرا ، ولكنها الآن لم تعد تليق بك أبدا .. ان التى تليق بك الآن زوجة ..

فقاطعها أمين :

ـ ولكن ما ذنبها المسكينة ؟ انها لم تسىء الى أبدا .

ـ ومن قال لك اننا سنسىء اليها ؟ كما أحضرناها من بيت أبيها سنعيدها لبيت أبيها .

ـ حرام .. حرام أن يطلق الرجل زوجته وأم أولاده لمثل هذا السبب .

ـ حرام .. ألست رجلا كباقى الرجال ؟! أما أولادك فمن عينى هذه وعينى هذه ، الزوجة التى سأختارها لك من أسرة طيبة ، متعلمة ، جميلة ترد الروح يا أمين يا ابنى .

وعبثا حاول أمين أن يقنع أمه بفساد فكرتها وخطئها فانها أصرت عليها اصرارا تاما وأقرها على ذلك زوجها المعلم عباس ، وقد شعر أمين من خلال كلام والديه أنهما يهددانه بالطرد من البيت والحرمان من بعض المساعدات الأخرى التى كان لا يخلو الحال من حصوله عليها بحياته المشتركة مع أسرته .

وأخيرا اتفقوا على حل وسط ، أن تبقى حكمت على ذمة زوجها للعناية بأولاده وأن يتزوج أمين عروسا أخرى من طبقة تتناسب مع الشهادة التى نالها والدرجة والمرتب اللذين يرتقب الحصول عليهما قريبا .

ولم تكد تنقضى أيام معدودة حتى أقيمت الرايات الحمر والأعمدة الخشبية العالية تحمل الثريات الكهربية على مدخل « حارة الحجارة » ، ولما سألت حكمت عن سبب ذلك علمت أن ضرتها الجديدة فى طريقها الى البيت ..

وكان من رأى أمين التريث والانتظار حتى تظهر نتيجة اجتماع لجنة الترقيات ، ولكن والديه أصرا على وجوب الاسراع فى عقد العقد واقامة الفرح مطمئنين الى وعد ذلك الموظف الكبير،

وكانت العروس الجديدة ابنة كبير كتاب احدى المحاكم الجزئية فى القاهرة ، فتاة فى السابعة عشرة من عمرها تلقت شـيئا من التعليم فهى تستطيع أن تكتب اسمها وتقرأ أسماء الوفيات فى صحيفة ما ، وهى ميزة تمتاز بها على حكمت ، كما أنها كانت أصغر من حكمت بنحو خمسة أعوام ، ولونها أميل الى البياض منها .

وأضيفت العروس الى قائمة أسرة المعلم عباس الجزار زوجة لابنه أمين ، وعاشت مع ضرتها تحت سقف واحد ، وفى نفس الليلة التى دخلت فيها العروس الجديدة الى المنزل نشرت صحف المساء الخبر التالى :

« تجتمع باكر صباحا لجنة الترقيات بمصلحة الأملاك برئاسة وكيل المصلحة للنظر فى ملء بعض الوظائف الخالية بها من الدرجة السادسة » .

وقد ظل أمين طول الليل يمنى نفسـه بتلك الدرجة التى ستقفز به مرة واحدة الى مرتب يبدأ بخمسة عشر جنيها شهريا ، الدرجة التى لا تقارن علاواتها بعلاوات الدرجة التى هو فيها ، فهو يزيد جنيها كل عامين أو ثلاثة ولكنه بعد الحصول على الدرجة السادسة سيزيد جنيهين كل عامين ، وهو واثق الثقة كلها من أنه لن يبقى فى الدرجة السادسة طويلا .. أربعة أعوام ثم يرقى الى

الدرجة الخامسة التى تبدأ بخمسة وعشرين جنيها وتزيد جنيهين كل عامين ، ولكنه على أى حال سيغير نظام معيشته سريعا ، خمسة عشر جنيها مبلغ لا بأس به ، سيخرج من « حارة الحجارة » المظلمة القذرة التي قضى فيها طفولته وصدر شبابه ، ويستأجر شقة تليق به فى الشارع العام نفسه الذى تتفرع منه الحارة ، وقد لمح لوحة معلقة على باب العمارة الكائنة على ناصية الشارع تشير الى « شقة للايجار » ، وهو يعتقد أن هذه الشقة تسع زوجتيه وأولاده •• كما أنه سيبدأ بشراء أثاث للمنزل •• انه الى الآن لا يمتلك الا قطعتين مهشمتين من الأثاث دخلت بهما زوجته حكمت أما العروس الجديدة فلم يكن هناك وقت كاف لشراء شيء لها ، على أنه فى الوقت نفسه لا بد أن يكون بعيد النظر والا فما الفائدة من التعليم الذى تلقاه ؟ لا بد أن يفكر فى مستقبل أولاده •• وأفضل طريقة لذلك أن يشترى باسم ابنه سندا من سندات البنك العقارى يدفع ثمنه بالتقسيط الشهرى من مرتبه الجديد ، من يدرى ! ربما كسب هذا السند عشرة آلاف جنيه ••

وذهب أمين الى الديوان فى صباح اليوم التالى ، وهناك علم أن اللجنة ستجتمع حقيقة وأن من جدول أعمالها النظر فى الطلب المقدم منه ، فاطمأن قلبه ••

وفعلا •• تكامل أعضاء اللجنة حوالى الساعة الواحدة بعد

الظهر وظلوا مجتمعين الى ما بعد انصراف الموظفين .. ولم يستطع أمين أن يعلم شيئا عن نتيجة الاجتماع ولكنهم أخبروه أن قرارات اللجنة ستنشر فى صحف صباح اليوم التالى .

وعند عودته الى البيت تبين أن اللوحة « شــقة للايجار » لا تزال معلقة على باب العمارة ، وفى أثناء دخوله الى الحارة شم رائحة كريهة تتصاعد الى أنفه من القاذورات المتراكمة أمام منازل الجيران، واشمأزت نفسه من منظر النسوة الجالسات مع أولادهن على أرض الحارة يغسلن أمام الملأ ملابسهن ويتبادلن الشتائم بين فترى وأخرى ترفيها عن أنفسهن .

وظل طول الليــل أرقا ينتظر ظهور الصحف على أحــر من الجمر .. ولم يكد يسمع باعة الصحف ينادون عليها فى الفجر حتى أسرع فاشترى الصحيفة وزاغت عيناه فى صفحاتها بحثا عن ضالته المنشودة ، واستيقظ أهل البيت من نومهم والتفوا حوله استعداد لتهنئته ، وأخيرا قرأ الخبر الآتى :

« اجتمعت لجنة الترقيات أمس بمصلحة الأملاك وقد قررت الاحتفاظ بالدرجة السادسة الخالية لأحد المهندسين لحاجة المصلحة اليه وبذلك رفضت الطلب المقدم من بعض حملة ليسانس الحقوق الذين يشغلون وظائف كتابية فى المصلحة » .

وارتجف أمين واصفر لونه وسقطت الصحيفة من يده ، ففهم الجميع ما حدث ..

ولما تمالك أمين بعض قواه أجال بصره حوله فوجد زوجته الأولى ، وعروسه الجديدة ، وأولاده الثلاثة •• وهو لا يزال كاتبا بمرتب عشرة جنيهات فى الشهر ، ولا يزال أيضا يسكن « حارة الحجارة » ••

وتدحرجت دمعتان على خديه ••

أما أم أمين فقد أنسلت الى غرفتها واختفت •• (١)

(١) كتبت هذه القصة قبل تعديل درجات ومرتبات موظفى الدولة .

الشيخ خليفة يقتل

كان خليفـة البـاجورى ينتمى الى أسرة كبيرة فى ناحية الفرستق التابعة لمركز كفر الزيات ، وقد نشأ ابنه يوسف فلاحا كوالده ، يخرج وزملاؤه الصبية ، ومعهم حميدة ابنة محمـد الباجورى احدى قريباته ، الى شاطىء النيل الذى تقع بلدتهم عليه ليشاهدوا المراكب الشراعية العديدة التى تمخر على الدوام فرع رشـيد جيئة وذهابا ، تحمـل بالات القطن الضخمة بين الاسكندرية والقاهرة والصعيد ، وكثيرا ما هيىء لهم أن يغرقوا تلك المراكب ليعودوا لآبائهم بحمولتها ، فكانوا يغوصون فى الماء الى حيث يستطيعون ثم يلقون عليها الطوب والحصى • ولكن سواعدهم الصغيرة لم تكن من القوة بحيث يصل الحصى الى المراكب الماخرة فى وسط النهر الكبير وقد تعالت أصوات من فيها بالغناء •• وكادت تلك المحاولات الساذجة تسفر ذات مرة

عن كارثة أليمة ، اذ خرج يوسف مع حميدة الى الشاطىء فوجد قاطرة بخارية تجر ثلاثة « صنادل » كبيرة ملأى بالبضائع التى أغرته وعندئذ التفت الى زميلته وقال : ياحميدة ! لو غرقت المراكب نستطيع أن نأخذ كل ما فيها ، هيا بنا ننزل الى « البحر » ونرمى عليها الطوب ..

فأجابته الطفلة الساذجة وقد لمعت عيناها : لا يا عبيط .. أنا أطول منك ، دعنى أنزل وقف أنت على البر لتناولنى الطوب ـ وغاصت حميدة فى الماء ، وجمع يوسف لها كومة من السلاح المطلوب ، واقتربت القاطرة وهى تقلب المـاء وتقـذف منه الى الشاطىء أمواجا عنيفة ، وكانت حميدة قد رفعت ثوبها الأسود وعقدته فوق رأسها ومسـكت به تدفع عنه البلل بيد وتقذف الطوب على المراكب المارة باليد الأخرى ، فلما ارتطم بها الموج ترسله القاطرة حلقات حولها كضربات السوط اختل توازنها .. وتهدل ثوبها فى الماء .. أحست بأن حلقات الموج التى أحاطت بها أخذت تجذبها الى قاع النهر المخيف .. أطلقت بضع صرخات فزعة ، وتصادف قدوم خليفة والد يوسف فى تلك اللحظة ليصلى العصر فى المصلى الواقع على الشاطىء ، فمد عصاه الى الفتاة وانتشلها من غرق محقق .. طبع منظر تلك المراكب أثرا فى ذهن الطفل يوسف ظل يلازمه حتى بلغ أشده ، فبينما تفرغ زملاء طفولته الى الفلاحة كعادة كل أهالى القرية فكر يوسف الباجورى

فى أن ينفرد بالاشتغال بالتجارة ، وقد زاد هذه الفكرة التهابا احتكاكه ببعض اليونانيين الذين كانوا يحضرون من بندر كفر الزيات لشراء أقطان قريته ، وأغراه أحدهم على الاشتراك معه فقبل لما كان يسمعه عن ثرائهم الفاحش الذى لم يعهده عند أكبر فلاحى القرية أو جيرانها .

وظل يوسف يلح على والده حتى استطاع أخيرا أن يفوز منه بالموافقة على اتخاذ التجـارة حرفة لهما ، واتحد الأب والابن بالاشتراك مع « الخواجة سوتيريو » فى الاتجار بالقطن ، وبذلك حقق يوسف فكرته القديمة ، بل أمنيته الغالية التى غرستها فى ذهنه أيام الطفولة الأولى .

وخلع خليفة الجلبـاب الريفى الأسـود واللبدة الصوفية الرمادية و « البلغة » ذات الرقع المختلفة الألوان ، وقلد كبار التجار فارتدى الجبة والقفطان والعمامة البيضاء ، وعرف طريق بائع الأحذية فى طنطا ، وصار يعرف منذ ذلك الوقت باسـم الشيخ خليفة .

وراجت التجارة .. كان يرحل مع ابنه الى أقاصى الصعيد ليشترى القطن من صغار العملاء ثم يشحنه فى مراكب شراعية ينام أثناء رحلتها النيلية الطويلة فوق بالات القطن وتهبط به هذه المراكب الى كفر الزيات حيث يبيعه الى التجار الأجانب الذين كانوا يثقون به ثقة تكاد تكون عمياء .

وكان الشيخ خليفة يعود من رحلاته الموفقة فى الغالب الى أهل قريته كل فترة معلومة فيجلس فى « دوار » العمدة يحكى تفاصيل ما يراه أثناءها فى اسهاب ولهجة قصصية مشوقة ، ثم يقف عن الكلام فجأة ويجيل بصره فى الوجوه الممدودة شغفا بحديثه ويضرب الأرض بعصاه وهو يقول : أبينكم من تعوزه حاجة ؟ أنا أولى من « الخواجة » الذى يتحكم فيكم يا أولاد عمى ، من يرغب فى أن يفك ضيقه ببيع قيراطين فليصارحنى ، اننى مشتر بالثمن الذى يحكم به العمدة ..

ولا يقوم من مجلسه الا وقد اشترى فدانين أو ثلاثة من بعض أقاربه الذين أضنتهم الأزمة ، واذا بالثمن يدفع فورا ، فلا يلبث أهالى الفرستق أن يتناقلوا أخبار ثراء خليفة الباجورى مع شىء من المبالغة الريفية المعروفة .

ولم يكن خليفة يستطيع بالطبع ملاحظة أرضه فكان يأتمن عليها ابن عمه محمد الباجورى وهو فلاح ماهر ، وكانت قد شبت ابنته حميدة وأصبحت تعرف بجمالها بين بنات القرية ، قامة مرتفعة فى نحافة رشيقة ، ووجه قمحى فاتن القسمات ، وشعر فاحم السواد يتدلى على ظهرها ، وكان معروفا عند أهل الفرستق أن حميدة لابن عمها يوسف ، فلم يكد يبلغ يوسف العشرين من عمره حتى سارع خليفة بتزويجه منها ليحقق بذلك أمنية قديمة كانت تختلج فى صدره ..

وأقبل العام التالى فعبس الحظ لشـــيخنا خليفة ، وتوالت خسائره ، وأثرت الصدمة فى أعصابه فأصبح ضيق الصدر دائم الاطراق الى الأرض ، ولم يجد ابنه يوسف مناصا من أن يترك عروسه ويرافق والده فى رحلته الى أقاصى الصعيد .

ووصل المركب الذى كان يحملهما الى المنيا وقد تكدست عليه بالات القطن .. وكان يوما من أيام شهر أغسطس الحارة ، واستلقى الشيخ خليفة على ظهره فوق احدى البالات القريبة من حافة المركب ، ونزل يوسف يستحم ، وكان حديث العهد بالسباحة فلم يستطع مقاومة التيار العنيف الذى جرفه ، وأسلمه الى القاع حيث ضاع صوت استغاثته ..

وانتبه الشيخ خليفة على صراخ ابنه وسرح بصره فى صفحة النيل فوجدها فى صفاء المرآة ، وقد انعكست عليها من جانب ظلال الأشرعة المنطلقة من المراكب الراسية على الشاطىء ، ومن الجانب الآخر ظلال الأشجار القائمة على امتداد النيل .

ثم انشق الماء وظهر رأس يوسف يصيح بلهجته الريفية : آبه .. آبه .. وحاول أن يمسك بالماء ولكنه هبط مرة أخرى الى القاع ..

وصاح الأب وقد كاد يجن : تعال يا ابنى .. — ونزل النوتية يحاولون أن يدفعوا عن الشاب المسكين عادية الموت ،

ولكنه كان قد أنشب أظافره فى طمى القاع ، قاع النهر الرهيب ، فلم يسمع له بعد ذلك صوت ، ولم يرتفع الا جثة هامدة بعد بضع ساعات ..

وعاد الشيخ خليفة الباجورى هذه المرة الى الفرستق حاملا مع بالات القطن « خشبة » وحيده يوسف ..

(٢)

مرت على تلك الكارثة بضعة شـهور قضتها حميـدة ، العروس المنكوبة ، فى ثيابها السـود ببيت أبيها بحجة ملاحظة أمها المريضة ، ثم بدأ أهلها يتهامسون عن قرب الموعد الذى يحق لها فيه أن تخلع تلك الثياب الحزينة القاتمة لتستعيد شبابها فى ثياب أزهى لونا .. ولم يكن لذلك فى الواقع من سبب الا تقدم السيد سليمان أحد فلاحى القرية لخطبتها ، ولكن همسهم لم يتجاوز بيت محمد الباجورى . الذى اعتزم أن يستشير ابن عمه الشيخ خليفة فى الأمر دون أن يجرؤ على ذلك رغم تحريض زوجته ..

وكان أصدقاء الشيخ خليفة قد لاحظوا أن الصدمة أثرت فيه فاعتكف فى منزل أهل زوجته ، لم يطق البقاء فى البيت الذى شب فيه يوسف ، فتوجهوا اليه فى صباح أحد أيام الجمع ومعهم العمدة يواسونه ، وابتدره محمد الباجورى قائلا :

ــ كلنا لها ياعم الشيخ خليفة ، هذا حال الدنيا ..

فحدق خليفة فيه ثم تمتم بعد صمت :

ــ من قال لك انى مبق على هذه الدنيا ، انها لا تساوى التفكير فيها بعد يوسف ..

ــ أنت مؤمن يا ابن عمى ، الأعمار بيد الله ، ولا راد لقضاء الله ، ان أهل البلد يخشون عليك من استسلامك الى هذا الحزن العميق ..

ــ وماذا تريدنى أن أفعل ؟

ــ تجارتك ، أرضك ، قطنك ــ فقاطعه خليفة قائلا :

ــ ماذا تقول ؟

ــ أقول قطنك الذى كان ربنا قد بارك لك فيه ووسع رزقك منه ..

ــ القطن ؟ هه ! القطن أصبح أمام عينى كالجبة السوداء التى ألبسها ، لم يعد أبيض كما كان أيام يوسف ، أراه حالك السواد ..

فتدخل العمدة اذ ذاك قائلا :

ــ طيب ياشيخ خليفة ، البلد فيه الآن شياخة خالية ، وكل الأهالى رغبوا فى أن تكون شيخ بلد وأدرجنا اسمك فى الكشف حاجة تشغلك وتسليك ..

وأمن الحاضرون جميعا على كلام العمدة ، ولم يستطع الشيخ خليفة ازاء ذلك الا أن يهز رأسه ويقول :

ـ ليكن ، لا أستطيع أن أرد لأهل بلدى مثل هذه الرغبة ..

وخرجوا بعد أن تجاذبوا أطراف حديث قصير ، كان محمد الباجورى يريد أن يقول شيئا للشيخ خليفة ولكنه لم يفعل اذ أن الأخير اقترب منه وهو يودعه الى الباب وقال له :

ـ كيف حال حميدة ؟ لم أرها منذ بضعة أيام ..

ـ تقبل يديك ، كانت متعبة ..

ـ سلامتها ، سلم عليها وقل لها أن تذكر زوجها .. يوسف لا ينسى بسرعة ..

وانقضت بعد ذلك أيام معدودة .

وحضر معاون الادارة الى القرية وأجرى عملية «الترغيب» فكانت النتيجة انتخاب الشيخ خليفة الباجورى شيخ بلد لناحية الفرستق باجماع الناخبين الذين حضروا ..

وكان محمد الباجورى فى تلك الأثناء قد تكلم مع العمدة ووسطه فى التحدث مع الشيخ خليفة عن مسألة زواج حميدة ، فانتهز العمدة فرصة زيارته لتهنئة الشيخ خليفة بانتخابه وفاتحه فى الأمر بعد تردد كبير ، ولم يكد العمدة يبدأ كلماته الأولى حتى انتصب الشيخ خليفة واقفا وشهق شهقة طويلة ، ثم قال وقد تملكه ذعر حزين :

ـ هذه هى المصيبة التى كنت أحسب حسابها وأضع يدى على قلبى منذ وفاة ابنى رهبة من وقوعها ، حميدة تتزوج •• بعد يوسف •• موت وفضيحة !

ـ هون على نفسك ياشيخ خليفة ـ ولكن الشيخ خليفة لم يلتفت الى ذلك وسأله :

ـ ومن هو هذا الزوج ؟

ـ السيد بن سليمان الخولى ••

وهنا ضحك الشيخ الهرم ضحكة جافة مغتصبة وقال :

ـ داهية ونزلت بى يا حضرة العمدة ! حميدة امرأة ابنى تخرج من بيت الباجورى وتدخل بيت سليمان الأقرع الذى كان خادم أبى ! •• سليمان الأقرع الذى طرده أبى لأنه سرق النعجة من الزريبة •• أأنت تائه عن سليمان ياحضرة العمدة ؟

وحاول العمدة جهد طاقته أن يهدىء من ثورة الوالد المنكوب فلم يستطع ••

وساد صمت طويل تهدج أثناءه صدر خليفة فلم يستطع أن يكتم حشرجته ، وتكلم خليفة بعد ذلك فأخذ يرجو العمدة أن يتوسط فى عدم اتمام ذلك الزواج ، وغالى فأعلن استعداده أن يكتب لحميدة كل ما كان يخصها فى تركة زوجها لو ورث والده ••

ولم يستطع العمدة التخلص من ذلك الموقف الا بعد أن صارح الشيخ خليفة بالحقيقة ، فالعقد قد تم وأصبحت حميدة زوجة شرعية للسيد سليمان .. اذ ذاك سقط الشيخ خليفة على المقعد اعياء ، ولم تلبث الدموع أن تدفقت من عينيه .. وترقرقت على تجعدات وجنتيه ثم اختفت فى شيب لحيته ..

(٣)

وأقبل شهر أغسطس ، وتدفق فيضان النيل وارتفع منسوب مياهه فهددت جسوره بالخطر الشديد وأفزعت رجال الرى والادارة ، الذين اضطروا الى دوام المرور على تلك الجسور ، وخرج الشيخ خليفة الباجورى ككل مشايخ البلاد الى « الدرك » المخصص له يشرف على ثلاثين من خفراء النيل موزعين على عشرة «أخصاص» يمكثون على الجسر ليلا ونهارا ، ويرشون الماء ليمهدوا الطريق لسيارات المعاونين والمهندسين ، ويجلبون معهم من الزاد ما يكفيهم أسبوعين كاملين ، وهى مدة الدور الذى قد يمتد الى دور آخر لا يقل عن تلك المدة .

وكان اسم السيد سليمان زوج حميدة مدرجا فى كشف ذلك الدور ، وقد فرح جميع الأنفار لما علموا بأن شيخهم هو خليفة الباجورى لما عرف عنه من الطيبة التى ظهر آثرها فى الأيام الأولى ، اذ كان يسمح لكل واحد منهم بأن يذهب الى البلد

بين حين وآخر ليرى أهله ويحضر له ولزملائه ما يكفيهم من الزاد، وقد يتسامح أحيانا فيبيح ـ معرضا نفسه لمسئولية دقيقة ـ لمن يدعى المرض منهم بأن ينام فى بيته ثم يحضر فى الصباح ..

وذات ليلة من ليالى الشهر الأخيرة أرق الشيخ خليفة فلم يستطع أن يغفو فى « النوالة » وهى خص كبير أعده لنفسه .. نظر الى السماء فوجد القمر قد اختفى تقريبا وخيم ظلام مخيف على صفحة الماء الذى ارتفع حتى وصل الى «النوالة» .. أجال بصره فى المزارع المنحدرة من الجسر فوجد أعواد الذرة وقد تكامل نموها وامتدت قامتها وتكاثفت حتى أصبح من العسير رؤية ما خلفها ، وتضايق الشيخ خليفة من تلك الوحشة حوله فأخذ عكازه وابتعد عن الجسر قاصدا العزبة التى كانت بعض أنوارها الضئيلة تبدو من بعيد ..

وما كاد الشيخ يسير قليلا فى الدرب المجاور لقناة تروى غيط الذرة حتى سمع حفيفا داخل الذرة أعقبته ضحكة قصيرة ، ضحكة امرأة يعرفها ووقع أقدام تقترب فأسرع بالاختفاء وراء شجرة جميز كبيرة ، ولم يلبث أن رأى حميدة وقد خرجت من الذرة واتجهت الى القرية كما خرج زوجها السيد سليمان من الجهة الأخرى واتجه الى الجسر .. فسرت فى جسم الشيخ رعدة شديدة ومادت الأرض تحته فتشبث بجذع شجرة الجميز ..

وتواردت الخواطر سريعا على ذاكرة الشيخ .. لم تعد ذاكرته تعى الا ما يمت الى يوسف من خواطر .. يوسف .. فلذة كبده ، الكبد الدامى كان لا يزال ينزف .

وثارت نفســـه ثورة هائلة ، ثورة وحشـــية ، مفترسة ، فاستجمع قواه وقام قاصدا « النوالة » ، وقد اعتزم أمرا ..

جلس على القش وأخذ يفكر وهو ينظر الى الماء الذى كان لا يزال يشاغب الجسر الضعيف .. أن ذلك المكان عميق وخطر قامت وزارة الرى فى العام الماضى بعمل « تكسية » من الحجر لتدرأ عنه التآكل فأصبح انحداره أفقيا الى عمق بضعة أمتار ، وهو يعلم أن السيد سليمان لا يعرف السباحة ، وها هو ذا بجانبه فى الخص المجاور له ، دفعة واحدة تكفى لأن تلحقه .. تلحقه بيوسف ، وتحرمه من التمتع بما حرم منه يوسف .. ومزق سكون الليل البهيم اذ ذاك عواء ذئب فارتجف جسد خليفة ، خيل اليه أنه هو الذى كان يطلق ذلك العواء المتوحش ، وفى حركة آلية وضع يده على فمه يكتم أنفاسه .. وبعد أن تلفت حـــوله لم يتردد ، بل نادى على السيد الذى كان قد رقد على الأرض بعيدا عن الخص عندما رأى أن زميليه قد غطا فى نومهما وشغلا الخص كله ، فأسرع السيد اليه وعندئذ قال له الشيخ خليفة :

ـ أنا عطشان ياابني والقلة فاضية ، وحيـاة أبيك املأها لي ..

ـ حاضر ياعم الشيخ ، مالنا بركة الا أنت ..

وجلس السيد القرفصـاء على جافة الجسر وانحنى يمـلأ القلة في حذر ، وعندئذ مد الشيخ خليفة عصاه وفجأة دفعـه بها في ظهره دفعة قوية .. فسقط السـيد في الماء وهوى الى القاع ، وارتفعت بعد قليل يد السيد تحاول التشبث بشيء .. بأي شيء ثم اختفت .. اختفت في سكون الليل البهيم .. مع صرخة مكتومة في القاع ... واستوت صفحة الماء ..

وعاد عواء الذئب يمزق سكون الليل ، وعاد خليفة يضع يده على فمه كأنه يحاول أن يكتم العواء خشية أن يوقظ أهل الفرستق ، وكلما أحس بكتم أنفاسه رفع يده ليعيد وضعها على فمه .

(٤)

بعد أيام ظهرت جثة مجهول مشوهة عند كوبري دسوق وقيدت الحادثة « عوارض » باعتبار أن الوفاة « باسفسكيا » الغرق ..

أما الشيخ خليفة فقد اختفى ، ولم يعد الناس يسـمعون عنه شيئا ..

ابن حــــارة عصفور

(أ)

من البيت للمدرسة ومن المدرسة للبيت ، لا يعـرف السهر ولا عمره حط رجله فى الأزبكية ، ما يعرف الا عمله ، طول الليل يا عينى مكفى على المكتب يذاكر الى أن أقول له ياتوفيق يابنى ارحم نفسك وقم نم ... »

هكذا كانت تندفع نفيسة زوجة الشيخ عبد الله السـقا مدرس اللغة العربية باحدى المدارس الابتدائية عندما تتحـدث الى زائراتها عن ابنها توفيق الطالب بكلية الهندسـة بالسـنة النهائية .

والواقع أن نفيسة لم تكن تبالغ كثيرا فى وصف ابنهـا ، فقد استطاع توفيق أن ينجو من تأثير البيئة المدرسية التى نشأ

فيها ، وكان السبب الأكبر فى ذلك يرجع الى شدة الشيخ عبد الله الذى كان يستعمل فى تربية ابنه عصا خشبية كتب على أحد وجهيها هذه الجملة « للتهذيب لا للتعذيب » بخط نسخ جميل ، فبينما كان زملاء توفيق يتحدثون فى صباح الخميس من كل أسبوع عن السهرة فى أحد ملاهى عماد الدين أو مسارحه كان توفيق يبتعد عنهم ولا يشترك معهم قط فى مناقشة عن مشروع سهرة ، أية سهرة .. اذ كان شبح العصا الخشبية يلوح أمامه عن بعد ...

وظل توفيق على تلك الحال كل المدة التى قضاها فى التعليم الثانوى ثم طيلة دراسته بكلية الهندسة ، وقد ساعد الشيخ عبد الله على نجاح طريقته فى تربية ابنه أنه كان يقتر عليه التقتير كله فى « المصروف » ، فلم يكن توفيق يفكر فى أن يشترك مع صديق له فى سهرة عادية تستدعى ولا شك بعض النفقات الضرورية ، وكان أقصى ما يفعله أن يذهب فى بعض أيام الخميس ليحضر حفلة نهارية فى احدى الدور التى اعتادت تقديم العروض الثالثة أو الرابعة للقصص السينمية ، ويجتهد بقدر الامكان أن يكون فى البيت خالعا ملابسه جالسا أمام المائدة فاتحا كتابا أمامه قبل أن يحضر والده للعشاء .

وكان الشيخ عبد الله قد انقطع عن استعمال العصا عندما بلغ توفيق الرابعة عشرة من عمره وبدأ دراسته الثانوية ، ولكنه

لم ينقطع عن تعليقها فى حاملة الملابس الموضوعة بجانب فراشه، وكان يجتهد بقدر الامكان أن يكون وجهها الذى كتب عليه « للتهذيب لا للتعذيب » معرضا للأنظار ، ولكن انقطاعه عن العصا لم يمنعه من استعمال أشد الالفاظ وأكثرها ايلاما كلما رأى من ابنه هفوة بسيطة .

فلما التحق توفيق بكلية الهندسة ظل يخشى والده خشية كبرى ، فكان يحافظ على مواعيد الحضور الى المنزل وعلى المذاكرة والنجاح المطرد محافظة تامة ، واذا كان هناك شىء من التغيير قد طرأ عليه بحكم السن التى وصل اليها فهو أنه كان بعد خروجه من السينما يوم الخميس يسير على قدميه فى شارع ٢٦ يوليو وشارع عماد الدين ينظر الى واجهات المحلات التجارية وما احتوت عليه ، ويقف أحيانا بمحطة السيارات الواقعة عند التقاء الشارعين يشاهد بعض السيدات والفتيات وهن ينتظرن السيارات ، أو يخرجن من أحد المتاجر القريبة حاملات ما اشترين أو يتسكعن أمام واجهة زجاجية يطلن النظر الى ما عرض فيها .. ثوب أو وشاح أو حذاء ..

ولم يكن فى استطاعة الشيخ عبد الله أن يمنع قلب ابنه وهو فى السابعة أو الثامنة عشرة من أن يخفق لمرأى ذراع عارية، أو عينين تبتسمان ، أو قامة معتدلة متسقة تمر عن قرب تنشر حولها أريج عطر ما ، ولكن توفيقا كان يذكر سريعا تلك العصا

المعلقة على حاملة الملابس منذ سنوات كأنها جزء متمم لأثاث المنزل القديم البالى فيسرع الخطى الى الترام لكى يحمله الى المنشية حيث يسكن فى احدى حاراتها الضيقة .

وصل توفيق الى السنة النهائية وأصبح على وشك أن يتخرج ويشغل احدى الوظائف فى الحكومة ، وكانت نفيسة تنتظر تخرجه بفارغ الصبر اذ أنها اعتزمت أن تزوجه بمجرد حصوله على مرتب ، وكان الشيخ عبد الله يقر زوجته على فكرة الزواج اذ أنها — فى نظره — الطريقة المثلى لكى تحمى توفيق وتبقى على استقامته ..

.. وتخرج الابن ، وأصبح توفيق عبد الله السقا يشغل وظيفة مهندس بمصلحة السكك الحديدية براتب شهرى قدره خمسة عشر جنيها ، وتزوج ابنة أحد الموظفين بوزارة التربية والتعليم من أصدقاء والده ..

وانقضت ثلاثة أعوام على ذلك الزواج رزق أثناءها توفيق ولدا وبنتا ، وقد تعود منذ التحق بالوظيفة على أن يسلم والده فى أول كل شهر عشرة جنيهات ويحجز لنفسه ثلاثة جنيهات كمصروفه الخاص ويعطى زوجته جنيها والترزى جنيها آخر هو القسط الشهرى المتفق عليه .

وظلت حياة توفيق فى جوهرها كما كانت عليه فى أيام الدراسة ، الا بعض تغيرات طفيفة استدعتها ظروفه الجديدة ،

من ذلك أنه أصبح يلقب فى الديوان بلقب جديد هو « حضرة الباشمهندس » ، ولم يكن هذا اللقب صادرا من المصلحة نفسها أو من أحد الرؤساء فيها ، فما توفيق الا موظف فنى صغير يعاون أحد المهندسين فى عمله ، وانما الذى أطلقه عليه هو حسنى أحد زملائه الذين يعملون معه فى نفس الادارة ، وكان يزامله فى الدراسة الابتدائية ثم افترق عنه عند ما التحق باحدى المدارس التجارية الثانوية ليجمعهما العمل الحكومى فيما بعد ، وقد لاحظ حسنى أنه رغم عظم الفارق بين عمل توفيق الحالى ودرجة « باشمهندس » فانه يسر عندما يسمع الناس ينادونه به ، ولذلك أوحى الى ساعى الغرفة بألا ينادى توفيقا الا به ، ولم يكد ينقضى وقت قصير حتى أصبح لقبه الثابت فى المكاتب المجاورة وأصبح من العادى أن يدخل الساعى فى صباح كل يوم ليسأل توفيقا فى لهجة جدية :

ـــ قهوة ياحضرة الباشمهندس ؟

فيجيبه فى شىء من الرزانة :

ـــ سكر زيادة ..

وكان حسنى متعودا الجلوس فى عصر كل يوم بأحد مقاهى شارع عماد الدين فسأله وهما خارجان من الديوان ظهر ذات يوم :

ــ أين تقضى مساء كل يوم ياحضرة الباشمهندس ؟ ••

فأجابه :

ــ فى البيت ••

ــ لماذا ؟

ــ تعودت على ذلك ••

ــ أية عادة غريبة يا أخى ؟

ــ أين تريدنى أن أذهب ؟

ــ قلت لك أكثر من مرة تعال اقعد معنا فى المقهى ؟ •• كلنا متزوجون ولنا عيال ••

ــ سأرى ••

ــ اجتهد ياحضرة الباشمهندس ــ وبعد بضع محاولات من هذا القبيل أصبح من عادة توفيق أن يتردد مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع على المقهى يتحادث مع حسنى وبعض زملائه فى « الديوان » الى الساعة الثامنة أو التاسعة مساء ثم يتركهم ويعود الى البيت •

ولعل أهم ما كان يلفت نظر توفيق وهو فى جلسته بجانب المائدة الموضوعة على حافة الافريز تلك الأشكال المتباينة المختلفة التى كانت تمر عليه ••

كانت مجدية زوجته جميلة فى نظره ، ولم يحدث بينهما طوال الأعوام الثلاثة ما يعكر صفو حياتهما الزوجية ، ولكنها كانت قصيرة القامة قصرا يلفت النظر ، ذات شعر أسود «أكرت» ووجه داكن السمرة ، بدأ يتبين ذلك وهو يشاهد الفتيات الذاهبات الى دور السينما أو الخارجات منها وقد تجردت سيقانهن مما يسترها ، وبدت وجوههن ، التى تفنن فى تزيينها ، أبهى وأجمل من وجه مجدية ..

وكان حسنى يلفت نظره أحيانا الى بعض الممثلات اللاتى يشتغلن فى مسارح عماد الدين وملاهيه وهن يسرن مسرعات واضعات حقائبهن الصغيرة تحت أكتافهن يوزعن الابتسامات ويرسلن لأتفه الأسباب ضحكات مستهترة طليقة ..

وبين هذه المجموعة المتنوعة المغرية من أشكال النساء اللاتى يراهن توفيق فى كل مرة يذهب فيها الى المقهى كان يجد القامة الطويلة ، والشعر الأصفر ، واللون الأبيض ، وهو مالم يكن موجودا فى بيته بحارة عصفور بالمنشية .

وكثر تردد توفيق على شارع عماد الدين.. وزاد مصروفه فأصبح خمسة جنيهات فى الشهر .. ووجد من المبررات الكاذبة الكثيرة ماستطاع أن يقنع به والدته وزوجته ..

ولم يقف الأمر عند حد المقهى المتواضع يتناول فيه فنجانا

من القهوة أو قطعة ملبن فى مقابل قروش معدودة ، فاستأذن ذات ليلة من زوجته وأفهمها أنه مدعو الى حفلة عقد زواج لأحد أصدقائه وذهب مع حسنى الى ملهى يشاهدان بعض رقصات شرقية وأجنبية ، ويستمعان فيها الى أغان مرحة تقدمها بعض الفنانات ..

كان ذلك فى مساء الخميس الأول من الشهر .. وكان الملهى مكتظا بالطلبة وصغار الموظفين يحيون كل راقصة أو مغنية تظهر على المسرح الصغير فى حرارة الشباب الملتهب .

وجلس توفيق وحسنى فى ركن القاعة الضيقة يشاهدان البرنامج بين رقصة خليعة أو أغنية مثيرة .

وأجال توفيق بصره فى الملهى وقد أضاءته الأنوار ، فتوقف عند فتاة جالسة على أحد مقاعد « البار » العالية وأمامها كأس من الخمر وقد ارتدت ثوبا كشف عن صدرها وذراعيها فأغرى توفيقا وفتنه ، كانت الفتاة تدور بجسمها على المقعد تنظر الى الجالسين وقد انفرج فمها عن ابتسامة داعية ، والتقى بصرها ببصر توفيق ... كان يشخص اليها فى اهتمام ووله فرفعت حقيبتها الصغيرة الى عينيها وحجبتهما بها فى دلال متكلف ، ولما أزاحت الحقيبة بسرعة مدت رأسها الى ناحية توفيق وأخرجت طرف لسانها ثم أطلقت ضحكة طويلة ..

ودق قلب توفيق دقات عنيفة ، ولحظ حسنى ذلك التأثير الفجائى الذى طرأ على زميله وذلك الشحوب الذى علا وجهه وهو ينظر الى الفتاة فسأله :

ـ مالك ياحضرة الباشمهندس ؟

ـ لاشيء .. هذه البنت ...

ـ بنت ترقص هنا اسمها فوزية ، معجب بها ياتوفيق ؟

وعاد توفيق ينظر الى فوزية وقد نزلت من علي المقعد العالى ورفعت يديها الى شعرها الأصفر تصلح ما شذ منه ، واستطاع أن يتحقق وهى تسير الى غرفة الراقصات من ارتفاع قامتها .. كانت أطول من زوجته مجدية بكثير . ولما تابع خطاها ببصره تبين فيها رشاقة . ودلالا لم يعهدهما من قبل فى خطى زوجته ، فهز رأسه هزة خفيفة والتفت الى صديقه قائلا :

ـ فوزية ! .. تعرف ، حتى اسمها ظريف يا حسنى ..

وعلت وجه حسنى ابتسامة ساخرة أخفاها سريعا وأجاب:

ـ صحيح بنت ظريفة جدا ياحضرة الباشمهندس ، والله تعرف كيف تختار يا أخى ـ وشعر توفيق بشيء من الزهو لتلك الملاحظة فقال :

ـ انت متوهم اننى لا ذوق عندى لأننى لم أعتد السهر مثلك .. أولاد حارة عصفور ياحسنى لا تخف عليهم، معروفون بالحذق .

ـ طبعا ، أنت سيد الحاذقين ..

وظهرت فوزية على المسرح بعد أن سبقتها ضجة من الرق والقانون ، وبدأت ترقص رقصة شرقية وقد ارتدت ثوبا زاهيا تعرى منه جسمها الذى كان يتثنى على أنغام الموسيقى ويبعث فى نفس توفيق نشوة لم يحس بها من قبل ..

وانتهت الرقصة ، ودارت فوزية على قدميها دورات سريعة ثم حنت جذعها الأعلى تحيى الجمهور فى دلال ورشاقة وخرجت من المسرح ، فكان أسبق المصفقين لها هو توفيق ، ولما رأى الموجودين فى الملهى يشتركون معه فى التصفيق لها والاعجاب بها شعر باحساس غريب .. احساس يشبه الغيرة !

وبعد قليل عادت فوزية وقد أشعلت سيجارة وأخذت تنفث دخانها فى الهواء ..

ومال حسنى على زميله وقال له :

ـ اسمع ياتوفيق .. أتحب أن تجالس فوزية ؟

فأشرق وجه توفيق ولمعت عيناه ببريق الرغبة المكتومة وأجاب :

ـ ليتنى استطعت ..

ـ بسيطة .. ديتها بضعة قروش تدفعها ثمنا لقدح من « الشمبانيا » ياحضرة الباشمهندس ..

أما فوزية فقد تسلطت عليه تسلطا تاما .. أصبحت تحركه كيفما شاءت .. كان توفيق عبد الله السقا في الواقع على شيء من الكفاية الفنية في عمله . كما كان ملمـا بكثير من نواحي الحياة المختلفة فليس من السهل على بائع أقمشة أن يغشه، وهو يستطيع أن يبدي رأيا سليما في أسعار الأراضي وتكاليف البناء . وأن يحرر العقود الدقيقة مع المقاولين وان يتحاسب مع النجارين والحدادين والسباكين حسابا عسيرا يفوز منه ، بأكبر غنم ، واذا تحدث فليس في حديثه الامايدل على أنه مطلع ومثقف ثقـافة تتناسب مع البيئة التي نشأ فيها ، الا ناحية واحدة .. تلك هي حياة القاهرة الليلية ، فقد باعدت تلك العصا التي هي «للتهذيب لا للتعذيب » بينه وبين تلك الحيـاة ، فكان اذا خلا بفوزية سألها وهو خافق القلب مضطرب اليدين :

ـ أتحبينني حقا يافوزية ؟

فتجيبه وقد أمسكت رأسه بيديها :

ـ أموت في حبك ، ليس في الدنيا من هو أعز منـك ، ياحلاوة عينيك ياتوتو ـ ثم تقبله في عينيه بدلال مغر ولا تتركه الا بعد أن يصبح عجينة بين يديها .

وقد خلا يوما بزميله حسني فسأله وفي صدره شيء من الغيرة المضغوطة :

ـ أفوزية مخلصة لي ياحسني ؟

وفكر توفيق قليلا وبحث فى جيبه فوجد أنه لم ينفق الا ستين قرشا فى الأيام الخمسة التى انقضت من الشــهر وبقى معه أربعة جنيهات وبضعة قروش، وشعر برغبة أكيدة فى التحدث الى فوزية فأجاب :

ــ طيب ياحسنى ، ادعها ..

وأشار حسنى الى فوزية ففهمت مايريد .. وتريثت قليلا ثم أقبلت وجلست بجانب توفيق ، وأسرع حسنى فقدم توفيق الى فوزية .. جالستهما فوزية نحو ساعة شربت فيها بضــعة أقداح من الشمبانيا وتحدثت معهما عن أشياء كثيرة .. والتقطت من حسنى ذلك اللقب الذى يطلقه على صديقه ، ثم اســتأذنت من توفيق فى رقة ولطف وهى تقول :

ــ عن اذنك ياحضرة الباشمهندس .. دقيقتين اثنتين ..

وتركتهما الى مائدة أخرى جلس اليها أحد تجار « وكالة البلح » كما فهم توفيق من حسنى ..

وخرج توفيق من الملهى ليلتئذ وقد امتلأت مخيلته بصورة متألقة براقة عن عالم جديد ، تحركت فى أعماق روحه الشابة طاقات لم يكن له بها عهد من قبل فى حارة عصفور بالمنشية ، وخفق قلبه بنسوة مختلفة عن تلك النشوة التى اعتاد أن يشعر بها اذا ما جلس بجانب زوجته مجدية وتلطف اليها . أو تلطفت اليه .

فأجابه :

ـ ما أعرفه أنها تحبك ياتوفيق ، هذه البنت ليست كغيرها، اذا ماأحبت أخلصت ـ ثم سكت قليلا وسأله هامسا ، كم تعطيها الآن ؟

فأجابه بسرعة :

ـ المرتب كله تقريبا ياحسنى ، حتى مرتب هذا الشـهر أعطيته لها قبل أن أدفع مليما واحدا فى البيت •

فسأله حسنى وقد تظاهر بالدهشة :

ـ وامرأتك ؟

فأطرق الى الأرض وأجاب فى صوت خافت حزين :

ـ تشاجرنا ، أخذت العيال وراحت الى بيت أبيها منـذ أسبوع •

فأطال النظر اليه ثم تمتم وهو يكتم ضحكة :

ـ أصبحت أحذق منا جميعا ياحضرة الباشمهندس ••ـ

انقضت بعد ذلك ثلاثة أشهر ظلت فيها مجدية غاضبة فى بيت أبيها ، واستمر توفيق على عـلاقته بفوزية يقضى بضـع ساعات معها فى الملهى وقد يرافقها أحيانا لتكملة السهرة فى جهة أخرى أو يصحبها الى منزلها ثم يذهب ليقضى ساعة أو اثنتين

طالما وضعت مجدية يدها على كتفه ، كثيرا ماأمسكت يده وداعبتهما ، ولكنه لم يشعر قط بتلك الكهرباء التى سرت فى جسمه عندما مدت فوزية أصابعها البيض الى رقبته تصلح له الربطة المعوجة .. بات توفيق طول الليل يفكر فى فوزية وفى ذلك العالم الجديد .. الضاحك .. المرح .. اليقظ الذى نقلته اليه مرة واحدة ، وشعر بقوة خفية تجذبه الى باب الملهى فى الليلة التالية ..

وأصبح من عادات توفيق الثابتة أن ينزل من بيتـه فى الساعة السادسة مساء ويتجـه الى المقهى بشارع عمـاد الدين للجلوس مع زملائه فى الديوان وبينهم حسنى ، وفى السـاعة العاشرة يذهب الى نفس الملهى ويحظى اما بالجلوس مع فوزية، اذا لم يكن هناك من يدعوها للجلوس معه ، أو يقنع بمجـرد النظر اليها وهى ترقص على المسرح أو تنتقل بين الموائدالمختلفة تتناول نصيبها المقدر من قدح أو زجاجة ..

ولقد شجع توفيقا على ذلك السهر المستمر مرض والده الذى هده الهرم فأصبح مضطرا الى النوم مبكرا فى كل ليلة، ولاحظت مجدية ذلك التغير الغريب الذى طرأ على زوجهـا ، وطلبت منه أن يخبرها عما انتابه فكان ــ بناء على تعليمـات حسنى ــ ينتهرها ويفهمها أنه السيد الآمر فى البيت ، وأنه ليس مكلفا بأن يقيم حسابا لأحد .

فى بيته بحارة عصفور فى المنشية ويستيقظ فى موعد الذهاب الى « الديوان » ، وكان بذلك يوقن اليقين كله أنه المقرب لقلب فوزية ، وانها له وحده دون سواه .. وكان هذا اليقين يعزيه عما أصابه من غضب زوجته ، ومغادرتها البيت مع ولديه ..

وذهب ذات يوم الى المقهى فى الموعد المعتاد فلم يجد حسنى ، ولما سأل عنه علم أنه حضر مبكرا وأن سيدة تحدثت معه بالتليفون ثم غادر المقهى بعد ذلك الحديث .

وجلس توفيق وحده على حافة الافريز ، لم يحضر لسوء حظه أحد من الجماعة التى تعودت الجلوس معه فى عصر كل يوم ، ولما شعر بالضيق خطر له أن يقضى بعض الوقت فى مقهى من مقاهى شارع الهرم حتى يحين موعد ذهابه للقاء فوزية فى الملهى فاستقل « الباس » الى الجيزة ، وفى احدى محطات ناحية « العجوزة » لمح توفيق عربة تقف أمام احدى العائمات الراسية بجانب الشاطىء ثم شاهد حسنى وفوزية يدخلان الى العائمة معا ..

وأسرع توفيق بالنزول ووقف أمام العائمة وقد غلى الدم فى رأسه وأخذ يشخص الى منافذ العائمة فى ذهول .

وأقبل خادم يحمل زجاجة وثلجا وبعض الطعام .. وخطر له أن يقتحم القائمة ولكنه تردد .. وجبن .. خيل اليه فى بادىء الأمر أنهما .. حسنى وفوزية قد لا يطول بقاؤهما داخل العائمة

فآثر الانتظار حتى يخرجان فيفاجئهما .. ولكن انتظاره طال .. وسمع قرع كئوس وضحكات ثملة ..

وكان عذابا وحشيا .. لم يحتمله توفيق ..

وتذكر فى تلك اللحظة العصا الخشبية المعلقة على حاملة الملابس بمنزل أبيه فى حارة عصفور .

وأسرع الى بيت حميه وقد اعتزم أن يصالح زوجته الغضبى ، ولكنه لم يجدها ، أخبروه بأنها ذهبت الى السينما ، السينما ؟ .. انها لم تعتد من قبل أن ترتاد دور السينما .. وظل ينتظرها الى مابعد منتصف الليل ولكنها لم تعد فانصرف على نية أن يعود فى الصباح ..

واتجه الى منزله فى حارة عصفور .. صعد درجات السلم فى بطء وتثاقل .. ثم دخل الى غرفة أبيه وانتزع العصا من مكانها العتيد وذهب بها الى غرفته .. أخذ يشخص ببصره على ضوء المصباح الخافت الى ماكتب عليها « للتهذيب لا للتعذيب » ثم حنى ركبته اليمنى وهوى بالعصا عليها فكسرها .

وأسرع فأغلق نافذة الغرفة المطلة على حارة عصفور ،خيل اليه أن أولاد الحارة يسمعون صوت بكائه .. أولاد حارة عصفور الذين كان يحس أنه خانهم ..

حضـــرة الباشمعاون

لم يكن المستقبل يتفتح أمام عينى « الأستاذ » صالح اسماعيل عندما نال ليسانس الحقوق منذ بضعة أعوام الا عن سلوك طريقين لا ثالث لهما ، أولهما أن يشتغل بالمحاماة فيرتدى «الروب» الأسود ذا الفراء الأبيض والهلال الذهبى اللامع وأن يجلس فى غرفة المحامين يتحدث الى كبار الزملاء لذين كان يسمع بأسمائهم وهو لا يزال طالبا فى المدارس الابتدائية .

أما الطريق الثانى فأن يلتحق باحدى الوظائف فى النيابة فيرتدى الوسام الزاهى ، ويتمتع بسلطة التحقيق فى الجرائم الهامة ، والتصرف فى قضايا الأفراد وانتظار دوره لكى يجلس على منصة القضاء وما يتبع ذلك المنصب من أبهة ونفوذ يتوق اليهما الكثيرون من خريجى الكليات الأخرى فلا يصلون .

ولقد بدأ صالح كمعظم زملائه بسلوك الطريق الأول ، فقيد اسمه في جدول المحامين والتحق فعلا بمكتب آحد كبار المحامين ليقضي فيه مدة التمرين ..

وانقضت شهور على صالح .. يخرج من منزله في الساعة الثامنة صباحا ومعه محفظة منتفخة بملفات القضايا ، فيمر على مختلف محاكم العاصمة ليؤدي واجب الدفاع فيها ثم يعود الى منزله حوالي الظهر ويذهب الى المكتب في المساء ليمكث فيه الى ساعة متأخرة من الليل ، لا هم له الا مقابلة المتقاضين ، واعداد قضايا اليوم التالي ..

وشبعت نفس المحامي الشاب من ارتداء «الروب» الأسود والسير به مختالا مزهوا في قاعة « الخطى المفقودة » بمحكمة القاهرة في باب الخلق ، وأحس بمضي الزمن شيئا من الملل يتطرق الى روحه الشابة ، وتنبه الى أن المجهود المتواصل العنيف الذي يقوم به في دراسة القضايا التي يحيلها عليه المحامي صاحب المكتب لم يكن يقابل بأكثر من كلمة شكر وابتسامة خفيفة ، ولم تكن واحدة منهما تكفي لنفقات شاب أتم مرحلة الدراسة وأراد أن يحظى بالتعرف الى مباهج الحياة الحرة الطليقة التي يحياها كثيرون من الشبان غيره .

ولما حاول مرارا أن يلفت نظر المحامي الذي يقوم بالتمرن في مكتبه الى وجوب مكافأته على عمله دون أن يوفق اعتزم

ن يسلك الطريق الآخر ، وهو التقدم الى احدى وظائف النيابة لعامة •

وقدم صالح فعلا طلبا الى النائب العام يلتمس فيه التعيين وانتظر ماسوف يتم في طلبه ، ولكن انتظاره طال كثيرا ••

وكانت أظهر صفة يمتاز بها خلق صالح هي أنفته وعزة نفسه وميله الغريزي الى الاعتماد على نفسه ، شعر بعد أن قضى في منزل أبيه عاما منذ حصل على « الليسانس » دون أن يوفق الى أن يكون له مورد خاص به يكتسبه من عمله وعرق جبينه •• شعر بشيء من الغضاضة وبأن واجب والده قدانتهى بتمكين ابنه من اتمام دراسته العليا ، وبأن واجب ذلك الابن قد بدأ منذ تلك اللحظة فعليه أن يعول نفسه مهما كلفه الأمر ، وقويت هذه الفكرة في رأسه وتمكنت منه تمكنا شديدا ، حتى أنه لم يكتف بذلك الطلب الذي قدمه الى النائب العام بل عمد الى تقديم عدة طلبات أخرى الى مختلف الوزارات يلتمس فيها الحاقه بالوظيفة التي تناسبه •

وكانت أسبق الوزارات بالرد عليه وزارة الداخلية اذ أرسلت اليه تعرض عليه وظيفة من وظائف معاوني الشرطة فأسرع بقبولها وتمت اجراءات التعيين ، وألحق صالح اسماعيل بوظيفة معاون ادارة تحت الاختبار وبعقد لمدة ستة شهور في مركز الواسطى بمديرية بني سويف ••

وهكذا شعر المحامى الشاب ، للمرة الأولى فى حياته ، بأن المستقبل الذى كان يعده لنفسه قد تغير فجأة واتخذ له طريقا ثالثا لم يكن يحسب له حسابا ..

وسافر صالح الى مقر وظيفته الجديدة ، وقدم نفسه الى مأمور المركز على المصرى ، وهو رجل فى الخمسين من عمره ، طويل القامة ، عريض الكتفين ، مفتول الشارب ، غليظ الحاجبين فى أعلى صدغه وشم أخضر حاول ازالته مرارا فلم يوفق ،وقد كان فيما سبق من ضباط الجيش الذين ارتقوا من صف الجنود الى مرتبة الضباط فى زمن لم تكن توجد فيه ثمة قواعد معينة للترقية ، ولم يكن يشترط فى الضابط أن تتوافر لديه ثقافة ما ، اذ أن معلومات على المصرى لم تزد على اجادته القراءة والكتابة .. وقد كفت تلك المعلومات لنقله الى وظائف الشرطة ، ثم تدرج فى الترقية بحكم الأقدمية حتى حصل على وظيفة مأمور مركز ..

ولقد تبين صالح نوع الرئاسة التى سوف تشرف على عمله وتراقبه عندما فاجأه المأمور قائلا بمجرد القاء أول نظرة عليه :

ـ « حضرتك » المعاون الجديد ؟

فأجابه صالح وهو ينحنى انحناءة خفيفة ، ويتكلف ابتسامة رقيقة تعبر عن احترامه لرئيسه الجديد :

ـ نعم ، لعل الوزارة كتبت الى « سعادتك » •

فقاطعه فى صوت خشن أجش :

ـ لا يا أخى أنا لست صاحب « سعادة » ، أنا سيادة المأمور ، فقط ، أعرف كيف أضع نفسى فى مكانها وأحب أن يضع كل من يعمل معى نفسه فى مكانها الصحيح •

ثم ضحك ضحكة ساخرة قصيرة ، واستمر قائلا :

ـ أظن أنك من حملة « ليسانس » الحقوق ؟

ـ أجل ••

ـ آه !•• اذن المفروض أنك تعرف من الناحية النظرية شيئا عن عملك الجديد ، سأكلف الآن السيد المعاون صميده بأن يمرنك ، انه معاون قديم ، قضى فى الخدمة خمسة وعشرين عاما يؤدى عمله على الوجه الأكمل ومع ذلك فهو ليس من حملة الليسانس ، اذا كنت تود أن تطيب التقارير عنك وتنال علاواتك وترقياتك فى مواعيدها فيجب أن تنتبه الى نصائحه وتطيعه •

ثم خبط المأمور على المكتب الذى أمامه خبطة قوية وقال:

ـ هذه « الليسانس » لانفع لها عندنا ، اننا نريد شبانا ينسون تماما انهم « أساتذة » ولا يجوز لهم هنا الا أن يسمعوا أوامرنا ويطيعونا طاعة عمياء •

ثم مد يده الى الجرس واستدعى المعـاون صميده الذى
خل الى الغرفة وقد ضم أزرار سترته وخطا الى مكتب المأمور
خطوات متهيبة حذرة ، فأمره بأن يهتم بتمرين المعاون الجديد
صالح ، وأن يبلغه أولا بأول مقدار فهمه للعمل وتقدمه فيه .

وبدأ صالح اسماعيل حياته الحكومية كمعاون فى مركز الواسطى ، يذهب الى المركز صباحا فى الساعة الثامنة فيقيد اسمه فى دفتر « أحوال الخدمة » ويتناول طعام الافطار المكون من طبق الفول وبعض قطع البصل المخروطة والمنقوعة فى الخـل الأحمر ، ثم يحضر مشايخ الحوارى له « الأنفار » الذين لهم أوراق عليـه انجـازها فيسـتمر فى اثبـات أقـوال أولئك « الأنفار » وأخذ اقراراتهم ، وتسليمهم أوراقهم ، وقد ينتقل لعمل بعض المعاينات التى يجب عليه عملها سـواء كانت هذه المعاينات فى نفس بندر الواسطى أو فى القرى التابعة للمركز .

وقد شعر صالح بعد مضى مدة بأن الأوراق التى تحال عليه تزداد تدريجيا ، وأنه يضطر فى معظم الأحيان الى قضاء النهار كله متجولا فى أنحاء المركز على قدميه أو على ظهر حمارة يعيرها له العمدة أو شيخ البلد ، وأنه فى بعض الليالى لم يكن يتمكن من أخذ قسطه من الراحة اذ لا يكاد يتمدد على فراشه حتى يدق باب غرفته ويقبل أحد الخفراء يحمل اشارة تليفونية واردة من احدى بلاد المركز تبلغ عن حادثة حريق أو اتلاف وعلى ذيلهـا

الاصطلاح المعهود بخط المأمور : « السيد المعاون صالح اسماعيل لضبط الواقعة » . فكان يضطر أن يرتدى ملابسه ثانية ويذهب الى المركز ليصطحب أحد العساكر وينتقل الى محل الحادثة الذى قد لا يعود منه الا فى الصباح ..

وسارت حياة الشاب على هذا النمط الممل المرهق ، وأحس صالح بالفرق بين هذه الحياة الخشنة الشاقة وبين الحياة المترفة الناعمة التى اعتاد أن يحياها فى بيت والده بالقاهرة منذ شب الى أن أتم تعليمه واشتغل بالمحاماة ، كما أحس بأن الجو الذى أصبح يحيطه جو جاف . مجدب . لا نبض فيه . ولا عاطفة ، فكان كل موظف من موظفى المركز يجتهد فى أن يتهرب من العمل الذى يكلف به ويحيله الى غيره ، ولما كانوا جميعا أكثر تمرنا منه وأمهر فى تعرف أساليب التخلص من العمل واحالته الى الغير انحرفت اليه افادات وأوراق ومحاضر كان يجب أن يقوم بانجازها غيره ، حتى تكدست فى درج مكتبه وتكررت ملاحظات المأمور عليه فى وجوب انجازها بأسرع ما يمكن .

وتاق صالح الى رؤية أسرته فى القاهرة اذ لم يكن متعودا قط أن يتغيب عنها . وقد انقضى شهران دون أن يرى أحدا من أهله ، فقدم فى مساء يوم من أيام الخميس الى المأمور طلبا يلتمس فيه التصريح له بأجازة أسبوع واحد ، ولكن لم يكد المأمور يلقى نظرة على الطلب حتى دفع به الى أقصى المكتب

ورفع رأسه الى المعاون الشاب وقال فى صوت بانت فيه سورة الغضب •

ـ ما هذا الطلب الغريب ؟

ـ انقضى شهران دون أن أرى أسرتى ••

فقاطعه المأمور قائلا :

ـ هذا كلام لا يستحق حتى أن أستمع اليه ، أجازة بعد شهرين من الخدمة ! أنا لا يمكن أن أوافق على مثل هذا الطلب، حالة العمل عندى لا تسمح بذلك ، لا تسمح مطلقا •

ـ ولكننى يا سيادة المأمور أسـكن هنا فى فندق وقد أرهقنى ذلك •

ـ ومن قال لك أن تسكن فى فندق ، زملاؤك جميعا فى بيوتهم مستريحون •

ـ ولكنهم متزوجون •

ـ لم لا تتزوج مثلهم ؟ اننى من المؤمنين بأن رجل الادارة يجب أن يكون متزوجا ، لو بقى عزبا لتعرض لخطر ، خطر كبير ، أتسمعنى ؟ أصـارحك بأن رجل الادارة اذا لم يكن مستقرا ناعم البال فى بيته فانه يثير المتاعب لنفسه ولرؤسائه ••

ـ طيب ، ولكن طلب الأجازة الآن ؟

ـ قلت لك انني لا يمكن أن أوافق عليه ، كلمتي واحدة ، تفضل .

وأراد صالح أن يناقش المأمور ولكنه فضل أن يتفادى الاصطدام وخرج ، ولم يكد يصل الى مكتبه حتى وجد افادة بخط المأمور يكلفه فيها بالانتقال فورا الى بعض بلاد المركز لمساعدة الصيارف فى تحصيل الأموال الأميرية المستحقة على الأهالى ..

وانقضى أسبوع على تلك الحادثة .. وأوعز صميده معاون الادارة العجوز الى صالح بأنه اذا كان يرغب رغبة قوية فى رؤية أسرته فانه يمكنه السفر خلسة الى القاهرة فى مساء يوم الخميس على أن يعود صباح السبت فى أول قطار ، وانه اذا أحال المأمور عليه شيئا فى فترة غيابه فانه مستعد أن يحل محله .

واقتنع صالح بحسن نية زميله القديم ونزل فعلا الى القاهرة لرؤية أسرته ، ولكنه لم يكد يصل الى محطة الواسطى فى صباح السبت التالى حتى علم من شرطة المحطة بأن « المركز » بحث عنه أثناء غيبته فى أنحاء البندر، ولما وصل الى مكتبه أخبروه بأن المأمور أحال عليه بلاغا خاصا بحادثة شروع فى قتل وأن البلاغ ظل ملقى على مكتبه مدة طويلة نظرا لغيابه الى أن علم المأمور فأمر بالتحقيق معه ، وقد اعتذر له صميده بقوله :

ـ لا تؤاخذنى ، السيد المأمور أشر على البلاغ باسمك شخصيا ، فلم أشأ أن أتولى تحقيقه خشية أن يثبت هذا غيابك بدون اذن ، فضلت أن أنتظر عودتك على أن أسىء اليك !

وبدىء التحقيق الذى قام به نائب المأمور ، وأجاب صالح بأنه ذهب الى القاهرة فى يوم يعد فى جميع مصالح الحكومة من أيام العطلة ، وأنه لم يكن يظن بأن المأمور يحيل عليه بلاغا فى ذلك اليوم .

ولما انتهى التحقيق أخبره المحقق بأنه سيرفع أوراقه الى المأمور ليبدى فيه رأيه .

وفى مساء اليوم نفسه دنا حميده من مكتب صالح وقال له همسا :

ـ أود أن أتحدث اليك ، كأخ أكبر ، فى شأن يهمك .

فأجابه صالح :

ـ نعم .

ـ كم عمرك ؟

ـ خمسة وعشرون سنة .

ـ ياسلام ! خمسة وعشرون سنة ولا تزال أعزب ؟ لقد

تزوجت عندما بلغت السابعة عشرة ، وهذه الصنعة التى نرتزق منها لا يمكن للأعزب أن يسلك فيها ، لا بد أن تتزوج .

ــ ألا يجب أن أستشير أهلى فى ذلك ؟

ــ أهلك ؟ هذا شأن يخصك أنت وحدك ، أنت الذى تختار زوجتك .

ــ من أختار ؟ اننى لا أعرف أحدا هنا على الاطلاق .

ــ لا . انك تعرف خير الأوساط .

ثم ابتسم صميده ابتسامة عريضة وغمز بعينه اليسرى وهو ينظر الى باب مكتب المأمور ، وساور صالحا الشك فسأله :

ــ ماذا تقصد ؟

وعندئذ وضع صميده فمه على أذن زميله الشاب وهمس فى صوت خافت قائلا :

ــ السيد المأمور ، ابنته فى سن الزواج ، انها أصلح زوجة لك يا أستاذ صالح ، أنت مثل ابنى تماما ولا شك أنك تشعر بأننى أعزك من صميم قلبى ، لقد تحدثت الى نائب المأمور وطلبت منه أن يؤخر عرض أوراق التحقيق معك الى أن نبت فى موضوع الزواج !

وأطرق صالح الى الأرض يفكر مليا فى الموضوع المعروض

عليه ، لقد تعب كثيرا خلال الفترة القصيرة التى قضاها فى وظيفته الجديدة ، وأرهق بالعمل ارهاقا عرضه للوقوع فى كثير من الهفوات ، وها هو ذا قد بدأ حياته الحكومية باجراء تحقيق معــه لتغيبه بــدون اذن ومغادرته لمحــل عمله وهما مخالفتان جسيمتان ، وانتهى بأن قال لصميده :

ــ طيب ، لا مانع عندى ، يمكنك أن تتكلم فى موضوع الزواج .

وأسرع صميده بالخروج من غرفة معاونى الشرطة وتوجه الى غرفة نائب المأمور ثم عاد وأسر فى أذن صالح أنه مدعو فى اليوم التالى لتناول الغداء فى بيت السيد المأمور ..

وذهب صالح الى بيت المأمور فى اليوم التالى ، وبعد أن تبادلوا أطراف الحديث فى مواضيع تمس العمل فى المركز ، أطرى صميده ونائب المأمور كفاية « الأستاذ » صالح واستعداده للتفوق فى أعمال الشرطة ثم فتح صميده موضوع الزواج وهو يستحث صالحا بنظراته التى كان ينقلها بين المعاون الشاب والمأمور على أن يبدأ الحديث فى موضوع الزواج وتشجع صالح بعد تردد فأبدى تشرفه بالانتساب الى السيد المأمور ، ثم تنــاولوا الغداء بعد أن قرءوا الفاتحة .

ولاحظ صــالح بعد ذلك تغيرا محســوسا فى معــاملة المأمور وفى كمية العمل التى تحال عليه ، فلم يعد المأمور .. يقابله

بذلك الوجه العبوس وتلك السحنة المكفهرة ، بل بدأ يتودد اليه ، ويثنى عليه أمام باقى موظفى المركز ثناء عاطرا ، وذاعت اشــاعة قرب زواجه بابنة المأمور فأصبح كتبة المركز يتملقون صالحا تملقا ظاهرا ، وصار اللقب الذى ينادونه به على الدوام هو « حضرة الباشمعاون » وهو لقب سر له المأمور كثيرا وأصبح ينادي به صالحا دائما ويؤكد له أنه أحق معاونى المركز به نظرا لدراسته الجامعية وأخلاقه الفاضلة ونزاهته فى عمله نزاهة يشهد بها كل شخص ، وكثيرا ما كان يقول له أمام وكيل النيابة ومفتش صحة المركز وهو يتكلف الظرف والرقة :

ـــ اننى معجب بك يا « حضرة الباشمعاون » ، لقد عمل معى عشرات المعاونين ولكننى لم أر مثلك أحدا تقــدم بهذه السرعة وفهم العمل فهما صحيحا كما فهمته أنت .. انك تفهمها وهى طائرة ..

وانتهت الشهور الستة وهى مدة العقد الذى عين بمقتضاه صالح اسماعيل ، وأرسلت المديرية الى مأمور مركز الواسطى لتستنير برأيه فيما اذا كان يوافق على تجديد العقد لمدة أخرى ، وعندئذ أجابها المأمور بأنه يوافق على تجديد العقد لما أبداه المعاون من نشاط ، وكفاية ، واستقامة .

وانقضى شهر آخر ..

وتردد صالح على بيت المأمور وهو يتحين فى كل مرة

الفرصة لرؤية ابنته التى ستصبح زوجته عما قريب ، ولكنه لم يوفق ، وأخيرا أرسل فى استدعاء والدته من القاهرة ، ولما حضرت صارحها بجلية الأمر ، بأنه تورط فى خطبة ابنة المأمور دون أن يراها ويخشى أن يعقد عليها دون أن تراها هى على الأقل ..

وذهبت والدته الى بيت المأمور بحجة زيارة زوجته ، وتمكنت هناك من رؤية ابنته ، ثم عادت مسرعة الى ابنها وقالت وهى تلطم صدرها بكفيها :

ــ ما هذه المصيبة ؟! أيزوجونك عانسا فى سن أمك ؟

فسألها فى لهفة :

ــ مالها ؟

ــ بنت مصفرة الوجه ، بارزة العظام ، غائرة العينين ، لها لثغة كريهة كلثغة أم سيد بلاتتنا ! أألحقناك بهذه الوظيفة لكى نوقعك فى هذه النكبة ؟

ــ وماذا عملت ؟

ــ لم أستطع السكوت ، قلت لأمها اننى كنت قد خطبت لابنى بنت خاله وقرأت الفاتحة مع أخى أبيها عندما كان ابنى وابنته فى سن الطفولة دون أن يعرفا ، وقبل أن أسمع أى رد

غادرت البيت ، لم نخاف ، أيمكن أن يعلقونا فى المشنقة لأننا رفضنا الزواج من ابنة المأمور ؟!

وفى اليوم التالى وردت التقارير السرية الخاصة بموظفى المركز وهى التقارير التى يبدى فيها المأمورون آراءهم فيمن يعمل تحت رئاستهم ، فدخل الكاتب المختص يحمل هذه التقارير الى مأمور مركز الواسطى على المصرى ، وظن أنه يتملق المأمور بقوله :

ــ كلنا نشهد لـ « حضرة الباشمعاون » الأستاذ صالح بأنه فى منتهى الكفاية والاستقامة .

ولكن المأمور قاطعه بأن خبط على المكتب بقبضة يده خبطة عنيفة وقال :

ــ هل عينتك الداخلية مأمورا بدلا منى فى هذا المركز ؟

ثم أسرع وتناول التقرير الخاص بصالح اسماعيل وكتب فيه ما يأتى :

« كنا نظن فى هذا المعاون خيرا ، ولكن اتضح لنا أنه مهمل فى عمله ، وأنه يتردد كثيرا على المقاهى ويسهر فى المحلات العامة الى ساعة متأخرة من الليل ، وان له علاقات مشكوك فيها يغادر بسببها مقر عمله كثيرا الى القاهرة بدون اذن ، وقمنا بعمل تحقيق معه وسترسل الأوراق للمديرية للنظر » .

وبعد أيام صدر الأمر بنقل صالح اسماعيل الى مديرية المنيا ، وكانت والدته قد أسرعت فأتمت معدات زواجه بابنة خاله حتى لا يتعرض مرة أخرى لما تعرض له فى بدء حيـــاته الحكومية ..

الضحيّة الجديدة

٥

غادر مكتبه حوالى الساعة الثامنة مساء وهو يعتزم أن يذهب الى موعد مع صديق له فى مطعم بقلب القاهرة ثم يتخذ طريقه مباشرة الى منزله ليكتب قصته التى كانت قد تأخرت عن موعدها المعتاد ، ووصل فى الموعد المحدد فوجد صديقه جالسا فى احدى غرف المطعم الداخلية ومعه سيدتان قدمه اليهما فتبادلوا عبارات المجاملة المألوفة وجلس بجانب احدى السيدتين ، وهى التى علم اذ ذاك أن اسمها سيلفيا .

ودار الحديث كما يدور عادة فى مثل هذه الظروف التى تجمع بين شابين وشابتين ، وانتقل بهم الحديث من مصر الى الخارج ، وذكرت السيدة الأخرى قصة زواجها من تاجر أمريكى وطلاقها وعودتها من أمريكا ، وانتهز هو هذه الفرصة ليشترك فى الحديث مجاملا وأبدى عدة آراء متطرفة حاول أن يسترضى

بها التى جلست الى جانب صديقه والتى اتضح له من سياق الحديث أنها يونانية وأن اسمها فرناندا ، فقال :

ــ لا أدرى لم أحقد حقدا شديدا على هذا الصنف من الأزواج ، يكاد يخيل الى أن المرأة تذهب ضحيتهم دون ذنب جنته ، ان الزواج فى هذه الحالة نكبة تصاب بها المرأة ، فهى تهب قلبها واحساسها وعاطفتها وجسمها الى الرجل موقنة بأنها سوف تسعد الى جانبه مدى العمر ، ولكنها لا تلبث أن تشعر بالملل من الحياة معها يتسرب الى نفس شريكها بعد حين ، ويشتد هذا الملل مع الزمن حتى تناديها كرامتها أن تتركه ، أو يغلو هو فى القسوة فيطردها ، انها نكبة ولا شك ..

ألقى هذه الكلمات فى لهجة خطابية متحمسة ، وهو يشير بيده ويرفعها ثم يهوى بها على حافة المقعد الأزرق الكبير الذى كان جالسا عليه ، وكان ينتظر أن يحدث كلامه أثرا ما فى نفس السيدتين ولكنه لاحظ أنه فاز بذلك الأثر بالنسبة الى فرناندا أما الأخرى ، سيلفيا ، التى كانت ترتدى ثوبا قاتما وقد وضعت ساقا على الأخرى ، وخلعت قبعتها السوداء اللامعة فأمسكتها بيدها واتكأت بمرفقها على مسند المقعد ، فلم تتكلم بل ظلت تنصت الى كلماته وهى مسبلة جفنيها ، مقطبة جبينها وكأنها تنصت الى قصيدة معقدة مملة ..

ولفتت هذه الحال نظره فأخذ يشخص اليها ، كانت شابة في نحو العشرين أو الثانية والعشرين من عمرها ، طويلة القامة، نحيفة البنية ، خمرية البشرة ، قيل له انها يونانية هي الأخرى ولكن ملامحها كانت تنطق بجمال عربي فاتن ، عينان واسعتان ، وأهداب طويلة ترتفع وتهبط في روى رزين، وشفتان ظلتا مطبقتين طول الوقت في صمت حزين ، ثم ذلك الأسى الذي كان يشملها ويحيط بها ، أسى المرأة التي تعبس لها الحياة حينا وتعبس للحياة أحيانا . ولو في سن العشرين ، لم يدر لماذا ألح عليه ما خطر له منذ وقع بصره عليها .. ان دماء عربية تجرى في عروقها ..

وشعر من أعماق نفسه بميل غريب الى معرفة الكثير عنها ، عن سيلفيا الصامتة الحزينة ، وخشى ألا تكون قد فهمت ما قاله فاتجه اليها مبتسما وقال في صوت حنون :

ــ مالك ياسيدتي ؟ أخشى أن أكون قد ضايقتك !

ــ لا .. أبدا .. انني متعبة قليلا .

وأسرعت زميلتها فرناندا اذ ذاك فانحنت عليها وقالت :

ــ تكلمي يا سيلفيا .. يكفي ما عملته في البيت ، أتنوين أن تقضي بقية عمرك ملصقة خدك بكفك حاملة هم الدنيا ؟

وعندئذ نظرت اليها نظرة طويلة وهزت رأسها ثم قالت وهي ترفع الكأس التي أمامها وتدنيها بيد مرتجفة الى شفتيها :

ـــ اعذرینی ، شیئا فشیئا ، أنت عارفة ، لم أعتد بعد ..

ولاحظ « هو » اذ ذاك أن سيلفيا تنظر الى المكان نظرات حائرة ذاهلة وكأنها تعيش فى جو غريب لم تعهده من قبل ، أو كأنها نقلت فجأة الى محيط لا تطمئن اليه ، الغرفة الضيقة ، والنور الأحمر الخافت ، الخمر التى صفت على المائدة ، وضجيج السكارى فى الغرف المجاورة ، وانحنت فرناندا على صديقه وهمست فى أذنه ففهم من همسها أن صديقتها سيلفيا كانت متزوجة من شاب مصرى يشغل احدى الوظائف فى الحكومة وأنها طلقت منه فى اليوم السابق فنزلت ضيفة عند صديقتها فرناندا .

وانقضت فترة لم تشترك أثناءها سيلفيا فى الحديث ، وأراد « هو » أن يدفعها الى الكلام فعاد الى اللهجة التى استخدمها فى أول الأمر وهاجم الرجال من جديد ، هاجم الأزواج الذين يدفعهم السأم الى التماس المتعة عند امرأة جديدة ، أية امرأة غير الزوجة ، ولكنه فى هذه المرة لم يكد ينتهى من كلامه حتى تحركت سيلفيا فى مقعدها ورفعت صدرها ثم لمعت عيناها ببريق حاد وقالت :

ـــ لم هذا الهجوم ؟ .. الزواج .. ماله ؟ ما ذنبه ؟ هو أحلى أمنية ، هو الهناء ، هو الراحة .. انما ..

وخفضت سيلفيا رأسها الى أرض الغرفة الزرقاء وتمتمت في صوت خافت :

ـ انما يجب أن يكون مبنيا على الوفاق •

وألقت الفتاة التى خيل اليه فى بادىء الأمر أنها يونانية تلك الكلمات فى لهجـة مصرية صميمة ، ألقتها كما تلقيها أية مصرية أخـرى ، فزاد ذلك من دهشـته ، وكأن فرناندا قد أحست اذ ذاك بأن صديقتها سوف تفشى سرا لا ترى هى الوقت مناسـبا لافشائه ، فسـارعت بتغيير مجرى الحديث ، وعلت ضحكات الحاضرين مرة أخرى ، ثم عادت سيلفيا الى صمتها الحزين ، وأقبل أصدقاء آخرون امتلأت الغرفة بهم فاحتلوا المقاعد الوثيرة وتبادلوا النكات مهللين فرحين ، واقترح أحدهم أن يكون جلوس السيدتين متسقا مع وفرة عدد الرجال الجالسين •• وتغير مكانه فانتقل الى المقعد المجاور تماما لمقعد سيلفيا ، وبدأت الشابة حديثها معه فجأة وكأنها كانت تتلهف على شخص تفضى اليه بما يثقل صدرها ، لعل هذا الافضاء يخفف شيئا من ذلك الثقل المرهق ••

سردت له قصتها ، القصة التى بدأت قبل سبع سنوات اذ كانت سيلفيا لا تكاد تناهز الخامسة عشرة من عمرها تتعلم فى احدى المدارس اليونانية الخيرية بعد أن توفى والدها عنها وعن أختها الصغيرة « عاملة النافذة » فى دار من دور السينما

الكبيرة بشارع عماد الدين ، وتعرفت سيلفيا بزوجها حامد فى قاعة من قاعات الرقص الشعبية فى شارع شريف ، تودد اليهـا ودعاها الى العشاء بعد ذلك فكان مثال الشاب المهذب ، ثم تلاقيا فى اليوم التالى فاعترف لها بحبه ، وأكد لها بأغلظ الايمان وفاءه واخلاصه ، وتطورت العلاقة بينهما ، أحسـت الفتاة بأن هناك قلبا يخفق بجانب قلبها ويعطف عليها بعد موت أبيها ، فتعلقت به وبادلته الحب ، وعلمت أسرتها بذلك وهى أسرة يونانية متعصبة لم تكن تميل قط الى أن تخرج على تقاليدها مهما كان فقرها وعوزها ، وحاول عمها الذى كان يعولها ويعول أمهـا وشقيقتها بعد موت أبيها أن يرغمها على ترك صديقها حامد والعودة الى حياتها العادية فأبت .

وعلم حامد بما أقدمت عليه من أجله ، كان حبه اذ ذاك لا يزال متأججا فى صدره فعرض عليها الزواج ، ولكنه من جهته صارحها بمعارضة أسرته له فى ذلك واشترط عليها أن تهجر دينها كما هجرت أسرتها فقبلت ، ثم عرض عليها أن تهجر اسمها، اسمها اليونانى المحبوب الذى كانت تعتز به فى طفولتها والذى كانت تدللها به أمها وشقيقتها وتتفنن كل منهما فى التدليل فتقتصر عند مناداتها على المقطع الأول منه أو المقطع الأخير فقبلت أيضا ، وفرض عليها أن تتخذ اسم خالته اسـترضاء لوالدته فقبلت ، وأصبحت سيلفيا اليونانية زوجة مصرية مسلمة تحمل اسم سميحة

وتعيش مع زوجها حامد فى بيت مصرى يختلف جوه فى كل شيء عن الجو الذى اعتادت أن تعيش فيه من قبل •

وانقضت سبعة أعوام على تلك الحياة الزوجية •• انقضت بنعيمها وشقائها ، كان أقسى ما يحز فى نفس سميحة انكار أسرتها لها واعراضها عنها ، فكانت أمها تأبى أن تحييها اذا صادفتها فى الطريق ، وكانت شقيقتها تنكر صلتها بها اذا سئلت عنها ، ولكنها احتملت كل ذلك فى سبيل صديقها وزوجها حامد ، وفى سبيل الحب الذى كان يصل بين قلبيهما صلة كانت تخالها باقية بل خالدة الى الأبد ، لم تكن تهتم قط بتدهور ثروة حامد فقد كان ينفق عليها عند بدء زواجهما عن سعة ولكنه عبث بتلك الثروة حتى بدد أكثرها واضطر الى قبول وظيفة كتابية بسيطة فى احدى مصالح الحكومة بمرتب لا يتجاوز بضعة جنيهات فلم تتغير معاملة سميحة له ، بل شعرت اذ ذاك بأن واجبها هو مشاركته الشقاء كما شاركته النعيم • وأخذت تقوم له بما كان يقوم به الطاهى والخادم ، وتمكنت من أن تعيش معه بذلك المرتب الضئيل فى قناعة راضية ، حريصة على الا تمس عزته أو تجرح احساسه ، الى أن أقبل شقيق زوجها فى أجازة قصيرة ورأى أن ينزل فى أثنائها ضيفا على شقيقه •

وخرج حامد ذات صباح الى عمله وترك زوجته تعنى بشقيقه الضيف ، وأرادت هى أن تبالغ فى اكرام شقيق زوجها فظن

هو ذلك فرصة سانحة يستطيع أن ينتهزها ، وأشار الى النكبة التى حلت بشقيقه حامد والى ما يعانيه من ضنك مالى شديد ، ولوح أمامها بالثروة والراحة ، ولكنها لم تكد تفهم منه ذلك حتى أوقفته عند حده وذكرته بواجبه نحو شقيقه الذى استضافه ، ولم يكن من الطبيعى أن يتلقى الشقيق هذه الصفعة صاغرا خاضعا ، ولم تعرف سميحة تماما ما دبر لها فى الخفاء ، ولكن كل ما عرفته أنها لاحظت بعد ذلك تغيرا ظاهرا فى معاملة زوجها حامد لها ، فقد ساءت هذه المعاملة الى حد أنه أخذ يضربها ، وبدأ يذكرها بالمكان الذى عرفها فيه للمرة الأولى منذ سبعة أعوام وبالتضحيات المتوالية التى بذلها من أجلها ، صارحها بأنه كان غبيا يوم قبل أن يتزوجها وأن يخرج على ارادة أسرته ، ثم انتهى بأن طلقها وطردها من المنزل ، طردها طردا بعد أن أوغر شقيقه صدره عليها وأقنعه بضرورة العودة الى حظيرة الأسرة وقبول الزواج من احدى بناتها التماسا لاصلاح حالته المالية ، واستقرار حياته فى وضعها الطبيعى المألوف ..

أفضت اليه سميحة بكل ذلك وهى جالسة الى جانبه بينما كان الباقون ومعهم فرناندا يتابعون الضحك والضجيج ويرفعون الكئوس عالية فى الهواء متبادلين الأنخاب ، وسكتت سميحة قليلا وكأنها كانت تعدو فى سباق شاق مدى سبعة أعوام انتهى الى خيبة مرة أليمة ، وثارت فى نفسه اذ ذاك غريزة القصصى

فسألها وهو يتخيل تلك الليلة التى كانت خاتمة حياة حب متبادل دام سبعة أعوام :

ـ كيف دار آخر حديث لكما قبل أن تغادرى بيتك ؟

وهنا ابتسمت سميحة ابتسامة فاترة وأجابت :

ـ سهرنا طول الليل كعادتنا ، لم يضربنى ولم يشتمنى كما كان يفعل بعد أن سافر أخوه ، كان طيبا معى ليلتئذ ، حاولت أن أغريه على النوم ليستريح فلم يرض ، قال لى : ياسميحة أود أن تحدثينى عن أيام قاعة الرقص ، الأيام التى كنا نهرب فيها ، أنت وأنا اما الى حديقة الأسماك أو الى ذلك المقهى الخشبى فى أقصى ساحل روض الفرج لكى نختفى عن أهلك وأهلى .. حدثته طويلا عن ذكرياتنا ، وفرحت اذ خيل الى أنه عاد الى ما كان عليه ، وسهرنا حتى الصباح ثم تركته لأعد له طعام الافطار ، وبعد أن تناولناه معا تلقى خطابا من أسرته بطنطا ، ولم يكد يقرؤه حتى اصفر وجهه ونهض واقفا وهو يصيح فى : سيلفيا ! يجب أن تتركينى ، كفى ، لا أستطيع أن أقاوم أكثر مما قاومت ، لقد أفلست ، لم يعد لدى ما يقوم بأودنا ، أهلى يرغبون فى أن يزوجونى من ابنة عمى ، انها تملك ستين فدانا ، من مصلحتك أن تنتهى حياتك معى لكى تجربى حظك مع رجل آخر ، مازلت شابة فى مقتبل العمر ، ربنا يسهل لك ! ، وقد استمعت اليه يلقى فى وجهى بتلك الكلمات وأنا مذهولة محمومة ، واستجمعت ما

بقى من قواى ثم سألته : أين أروح يا حامد ؟ أنت تعرف أننى هجرت أهلى منذ صممت على الحياة معك ، الى أين أروح الآن وأنا مقطوعة من شجرة ؟ .. وكأنه خشى أن يضعف فأسرع يدفعنى خارج الباب وهو يصرح : لا شأن لى بهذا كله ، لم أضربك على يدك لكى تهجرى أهلك ! أخرجى ، لا يمكن أن أعيش معك ، أنت طالقة منذ يومين .. ، فجمعت ثيابى وخرجت .. همت على وجهى فى الطريق ، خيل الى أن الجيران كلهم قد فتحوا نوافذ دورهم وأشاروا الى : الطالقة .. المطرودة .. تمنيت أن أرى أختى ولكننى خفت أن تطردنى اذا ذهبت اليها ..

واغرورقت اذ ذاك عينا المرأة الشابة بالدموع فحاولت تجفيفها بمنديلها الصغير ، وأحس « هو » اذ ذاك أن هناك ثورة دامية تضطرم فى صدرها ، وحاول أن يخفف عنها فقال لها فى حنو شديد :

ــ لم تبكين بهذه الحرقة ؟ أأنت أول امرأة طلقها زوجها ؟

فرفعت منديلها عن عينيها ، وبرقت هاتان العينان الواسعتان الجميلتان ، وخيل اليه اذ ذاك أنها سوف تجيب مباشرة على سؤاله ، ولكنها أجالت بصرها فى الغرفة الضيقة وقد تلبد دخان السجائر غيوما كثيفة فى جوها ، وتناثرت أطباق « المزة » على الموائد الخشبية العديدة ، وتعالى رنين الكئوس وهى تلتقى وتنفصل فى شبه قبلات سريعة ، ووقف بصرها برهة

عند مقعد صديقتها فرناندا وقد رفعت كأسها وأخذت تجيب كل سائل ، وتحيي هذا بنكتة وذاك بنظرة ، وهي بين لحظة وأخرى ترسل الضحكة تلو الضحكة في نشوة ، وانتبهت سميحة الى أنه كان قد وجه اليها سؤالا فضحكت ضحكة جافة لا حياة فيها وقالت :

ـ لا .. لست كغيري ، المرأة ، أية امرأة غيري عندما يطلقها زوجها تروح الى بيت أبيها أو بيت أخيها أو بيت أمها ، أما أنا فلا أب لي ولا أخ ولا .. ولا أم ، لما طردني حامد من بيته ومشيت في الشـــوارع ساعة .. وساعتين .. وثلاثا .. جعت .. تذكرت أني لكي آكل يجب أن أشتغل وأنا لم أتعلم صنعة آكل منها لأن حامد تزوجني وأنا بعد في السادسة عشرة ، ولم يكن معي نقود أنفق منها أو مصاغ أرهنه أو أبيعه ، ولكني مع ذلك لقيت كثيرين ينظرون الي ويبتسمون ، واحد منهم أوقف سيارته أمامي وفتح بابها وهو يقول في رقة : تفضلي نتناول الغداء معا .. فجريت .. وتذكرت فرناندا اذ ذاك فاعتزمت أن أذهب اليها وأرجوها أن تقبلني ضيفة الى أن أتبين قدري ، نفسي صعبت علي ، ما من أحد يرضى أن يطعمني الا اذا كان لغرض ، لا ، لا يا ســيدي ، لست كغيري ، انني أتعس منهن جميعا وأشقى ..

واغرورقت عيناها بالدموع مرة أخرى ، ولحظت صديقتها

فرناندا أنها أطالت الكلام معه فأصبحا منعزلين عن باقى الجالسين، وكانت قد ثملت اذ ذاك فصرخت فيها قائلة :

ـ أفهمتك قبل أن نخرج من البيت انك لا يجب أن تضجرى الناس وهم فى مجال البهجة والسرور •

وكأن سميحة قد خشيت اذ ذاك أن تغضب صديقتها ومضيفتها فمدت يدها الى الكأس التى أمامها وأسرعت فسكبت ما فيها في فمها ، وكانت كئوس الباقين اذ ذاك قد ارتفعت فتناولت أقرب كأس كان صاحبها قد غادر الغرفة لأمر ما فشربتها أيضا ، ثم أجالت بصرها فى الدخان المتكاثف مرة أخرى وسألته فى لهجة ذاهلة وقد شحب وجهها :

ـ كم الساعة الآن ؟

ونظر الى الساعة ثم أجابها :

ـ اننا فى منتصف الليل •

ولم يكد ينطق بذلك حتى انتصبت واقفة ، وفغرت فاها ، وبان الرعب على ملامح وجهها الجميل الفاتن ، ثم قالت وهى ترفع يديها تحاول أن تحجب بهما عينيها :

ـ نصف الليل •

وقبل أن يجيبها حانت منها نظرة الى مصابيح الغرفة وقد

انعقد الدخان حولها ثم أطلقت ضحكة متقطعة • خشنة ، وقالت وهى تعود الى مقعدها وتتجرع كأسا أخرى :

ــ أنا خارج البيت لغاية نصف الليل •• ! ياسلام •• ! صدقنى ، طيلة السنين السبع الماضية لم أخرج وحدى بعد غروب الشمس الا هذه الليلة ، عندما كنت أعود من حفلة نهارية باحدى دور السينما كنت أحس بأننى سرقت سرقة شائنة فأغض من بصرى أمام الجيران وأنا أدخل بيتى •

وأراد أن يسرى عنها فقال :

ــ ياشيخة •• ربنا تاب عليك ، ماذا تعنى هذه العيشة النكدة التى كنت تعيشينها ؟ ••

فقاطعته وهى تضرب بيدها على مسند المقعد :

ــ لا •• أبدا •• ما من شىء أفضل من البيت ، ماذا نفعل نحن الآن ، كله كلام فارغ ، ليت ربى يتوب على ويهبنى بيتا يأوينى ولو آكل فيه عيشا وملحا ، انه على أى حال أفضل من أن أتلطم فى بيت الغرب •

ثم هزت سميحة رأسها اذ ذاك هزة حزينة وتمتمت :

ــ يا ترى ماذا يفعل الآن حامد ؟ لا بد أنه نائم على السرير ، سريرنا الذى فى صدر الغرفة القبلية ، غرفتنا الحلوة الصغيرة التى ظللت أرتبها سبع سنين صباح كل يوم وبعد الظهر كل يوم ••

واختنق صوتها ، لم تستطع أن تقاوم فأجهشت بالبكاء ، وأحست صديقتها فرناندا بذلك فخشيت أن تنتهى الليلة بسوء وعندئذ استأذنت الجالسين وأخبرتهم أنها مضطرة الى أن تعود مع سميحة الى منزلها بالجيزة ، وتوسلت اليه « هو » أن يصحبها مع صديق آخر الى أقرب موقف من مواقف سيارات الأجرة .

وبدا أن سميحة لا ترغب فى العودة الى منزل فرناندا بالجيزة الذى نزلت به ضيفة ، وخيل اليه « هو » ان قلبها كان لا يزال مثقلا بشجون تود أن تفضى بها اليه ، ولكنها تذكرت أنها لا حق لها فى الاعتراض فقامت تجر جسمها جرا وقد أثرت فيها الخمر التى شربتها فى غير وعى ولا دراية ، ولما خرجوا الى الشارع الذى احتشدت فيه السيارات والعربات وارتفعت أصوات الخارجين من المسارح ودور السينما والملاهى ، لاحظ «هو» أن جسد سميحة ينتفض وأن شفتيها ترتجفان وأن خطاها تختل وتضطرب ، ووصلوا الى أحد مواقف سيارات الأجرة فأراد أن يساعدها على صعود احداها ولكنها أبت وأصرت على أن تتابع السهرة .. وحاولت فرناندا أن تقنعها بالعودة الى منزلها بالجيزة. ولكنها أصرت على وجوب البقاء فى القاهرة ، وظن أنها فى حاجة الى استنشاق الهواء فأركبها عربة سارت بهم قليلا ، فلم تكد ترى مطعما ايطاليا بشارع توفيق حتى استوقفت السائق وطلبت منه ومن فرناندا أن يدخلا معها الى ذلك المطعم لأنها تشعر بالجوع ،

فلما استقروا حول احدى موائد المطعم صفقت تطلب خمرا ، وحاول «هو» أن يمنعها عن ذلك ولكنها لم تعبأ به ، وبدأت تهذى فقالت لصديقتها :

ــ اسمعى يا فرناندا ، أنا نفسى كبيرة •• اذا كشرت أمك فى وجهى الليلة فاننى سأترك بيتك توا ، سأعود الى هنا سيرا على قدمى ، سأهيم فى الشوارع حتى الصباح •• أما هذا الثوب الذى أعرته لى فخذيه ، خذيه الآن ••

وأخذت بعد ذلك ترجوها أن تنشد لها قطعة «ليلة الوداع» وألحت فى ذلك الحاحا شديدا فأطاعتها ، وأخذت الصديقتان تنشدان تلك القطعة ، ولاحظ « هو » أن سميحة كانت تكرر كلمات الأغنية « ليلة الوداع طال السهر ، وقال لى قلبى ايه الخبر ، قلت الحبايب هجرونى » فى نشوة قوية ، ثم انفجرت فى بكاء حاد ومدت يدها الى منديلها فغمرته بالدموع •

واتفق مع صديقه على وجوب أن يعودا بها الى المنزل ولو بالقوة ، ولكن لم يكد صديقه يمـــد يده ليعينها على الوقوف حتى نفرت منه وقد تنمرت أسارير وجهها وقالت :

ــ لا •• أنا لا أخون حامدا الآن ، لابد أن أجـــوع •• ان أتضور جوعا حتى أفكر فى خيانته ••

خيل الى سميحة أن ذئاب الدنيا أحاطت بها ، وان كل يد تمتد اليها تضمر لها السوء ، ثم أجالت بصرها فى المطعم وتمتمت وهى تضحك ضحكة جنونية :

ـ غرفتى أوحشتنى ، اعذرونى ياناس ..

وتغلبوا عليها أخيرا وأوصلوها الى سيارة تحركت بها وفرناندا الى الجيزة ، كان التعب قد نال منها ، واشتد شحوب وجهها ، وارتعشت أطرافها ثم أخرجت رأسها من نافذة السيارة وحاولت أن تتفادى سخرية السائق وزملاءه الذين ازدحم بهم الموقف ولكنها لم تستطع وأفرغت مافى معدتها أمام جمهور العائدين الى دورهم فى تلك الساعة المتأخرة من الليل من رواد ملاهى الليل والحانات .

واستلقت سميحة على ظهرها وهى تئن من الألم حتى وصلت الى منزل صديقتها بالجيزة فحملها الجميع حملا الى الطابق الثالث حيث تسكن فرناندا .

وعاد « هو » الى منزله ليلتئذ وهو يفكر فى سميحة المسكينة ..

لقد استقبلت حياتها الجديدة بالجلوس مع قوم لاتعرفهم، وتعاطى الخمر الى ذلك الحد المرهق ، وبالسهر حتى مطلع الفجر وبافراغ مافى المعدة أمام سائقى سيارات الأجرة وجمهور السكارى ورواد الملاهى والحانات وغانياتها ، وبالمبيت فى بيت لا تطمئن الى عطف أهله ..

ولما نشر « هو » قصته ، كانت حياة الليل فى القاهرة ،

حياة الزوبعة المدوية والصخب الدامى ، قد طوت « دوامتها » الضحية الجديدة ..

ولا تزال الدوامة ، الدوامة الرهيبة ، تطـوى كل يوم ضحايا جديدة ..

الوحل

لم تكن سعاد ابنة ابراهيم عبد السلام تاجر الخشب بالسبتية عندما زلت قدمها قد تبينت الفرق بين ورد الدنيا .. ووحلها ، فقد كانت اذ ذاك ترى الدنيا كلها ورودا ناضرة حمراء .. نشأت فى بيئة رقيقة الحال يجاهد أفراد أسرتها فى سبيل العيش جهادا عنيفا . وكانت أسرتها قد أعدتها لزواج سعيد تهدأ فيه الفتاة التى اكتملت أنوثتها فى سن مبكرة بعد أن علمتها تعليما مدرسيا يعد لمن كان فى مستواها كافيا وفوق الكفاية ، ولكن سعاد أحست منذ طفولتها بأنها لن يمكن أن تهدأ الى بيت زوجية يسير وفق قواعد معينة ثابتة عليها أن تحترمها كما سبق أن احترمتها والدتها وشقيقاتها الكثيرات .

وأحس سكان حارة الحطابة التى كانت تسكنها أسرة

ابراهيم عبد السلام أن سعاد كانت تحاول دائما أن تتعالى على زميلاتها من فتيات الحارة ، فكانت تطل من نافذة المنزل فى صباح كل يوم لتطلب من بائع الصحف بصوت عال صحيفة أو اثنتين من صحف الصباح ، وكانت تعود فى معظم الأيام الى منزلها من المدرسة وهى حاملة مجلة من المجلات التى تكون قد ظهرت فى السوق ، بل لقد كانت تثير دهشة جيرانها من الشبان طلبة كليات الجامعة عندما يرونها تحمل فى يدها بعض المجلات الشهرية الدسمة التى تستعصى على مداركهم ، وكانت شقيقات أولئك الطلبة من صديقات سعاد يسخرن منها عندما يرينهاتعنى عناية خاصة بقصائد الشاعر الشاب حماد عبد الله وهو الذى كان يغمر احدى تلك المجلات عند بدء صدورها بكتاباته التى كان يرمى بها الى ايجاد نوع من القصة الشعرية فى الأدب المصرى الجديد ٠

وكثيرا ماجلست سعاد فى شرفة منزلها تقرأ وتقرأ حتى تتعب عيناها من القراءة ، عيناها اللتان كانتا رغم ضيقهما تنم نظراتهما عن عاطفة ثائرة وروح متمردة ، كما كانت وجنتاها المنتفختان وصوتها الممتلىء الجاف وحركات أهدابها السريعة تكشف عن شخصية لا تثير الانتباه ٠ أو تلفت النظر ، وكانت تحاول وهى بعد فى مستهل عمرها ، أن تصطنع لنفسها لونا خاصا اختلط فيه الترفع بالعناد ٠

وأتاحت لها القــراءة الطويلة فى ذلك العــدد الكبير من المجلات فكرة عن مستقبلها ••• المستقبل المجهول الذى •• وان ظل غامضا مبهما الا أن روحها الشابة كانت تحيطه باطار من الورود ••الورود الناضرة الحمراء أبدا ، وفى نوبة سخرية عاصفة زلت قدمها مع شاب من جيرانها لم يكن قلبها قد خفق يوما بحبه ، ولكن علاقتها به كانت أقرب الى اللهو العابث منها الى أى شىء آخر ، وثارت أسرة ابراهيم عبد السلام تاجر الأخشاب ثورتها المعتادة ، وأظلمت الدنيا فى عينى سعاد •• لم تعد ترى الورود الحمراء الناضرة •• ذبلت وتساقطت فى محيط أسود هائل من الوحل ••

(٢)

ــ أين أنت رائحة ياسميرة ؟

ــ رائحة الى المرقص ياسوسو ••

ــ المرقص الذى تعملين فيه ؟

ــ نعم ، أين تريدين منى أن أروح ؟

وقطبت سعاد جبينها قليلا ، ثم قالت وهى تهز شـــعرها المنكوش وتضم أطراف ردائها استعدادا للخروج :

ــ طيب خذينى معك ••

ـ ولو رآك أحد هناك ؟

ـ لا يهمني ، أهلى تبرءوا منى ، ومع ذلك .. ما الخير الذى رأيته منهم حتى الآن ..

وأرسلت سعاد ضحكة ساخرة ، وحملت معها بضع مجلات ثم رافقت صديقتها سميرة الى المرقص الذى تعمل فيه كمطربة فى شارع عماد الدين ، وكانت فى الصباح قد قرأت قصة مترجمة فى احدى المجلات عن فتاة متعلمة غنية أرادت أن تختبر الحياة عن كثب فاشتغلت عاملة فى أحد المسارح لدرس وجوه الداخلين كل ليلة الى الملهى ..

وكانت ليلة من ليالى الشتاءالقارسة البرد وسماء القاهرة تمطر بغزارة سخية ، واختمرت الفكرة فى صدر سعاد ،فانتهزت فرصة الصداقة التى نشأت مع المطربة سميرة التى كانت تسكن معها فى نفس المنزل الذى أقامت به عقب زلتها وانقطاع علاقتها بأسرتها ، فتشبثت بوجوب ارتياد ملاهى العاصمة لكى تعب من تلك الحياة التى طالما قرأت عنها ولم تتذوقها ..

ودخلت سعاد المرقص فبهرتها الأنوار الساطعة التى كانت تضىء قاعته ، وأحست بدفء الأنفاس الحارة المخمورة التى كانت تتصاعد من شباب الطلبة والموظفين الذين تكدسوا على مقاعد القاعة ، واستراحت أذنها الى الضجيج وصفير الاعجاب

اللذين كانا ينطلقان فى أرجاء الملهى الضيق كلما خطرت راقصة نصف عارية لتؤدى رقصتها ، أو كلما ارتقت خشسبة المسرح الصغير ممثلة تلقى مقطوعة صغيرة •

ولاحظت سعاد عند دخولها شـابا طويل القـامة عريض الكتفين يتخذ مكانه دائما بجانب الباب يراقب تذاكر الداخلين ويلقى بنظره بين كل فترة وأخرى الى الزبائن وكأنه يتـأهب لطارىء ما ، ومالت على صديقتها سميرة تسألها :

ـ من هذا ياسميرة ؟

وضحكت الأخرى :

ـ انه يعمل هنا •

ـ ماذا يعمل ؟

ـ كما ترين ، يقف عند الباب لو دخل أحد من غير تذكرة يمنعه ، ولو أسرف سكران فى الصراخ أو التهريج يخرجه ـ ورمقته سعاد بنظرة أخرى ثم سألت هامسة :

ـ ولكنه أنيق ووسيم ، أيتقاضى أجرا كبيرا ؟

ـ لا ، أى أجر •• ان بنات المرقص لا يهمهن أجره ، كلهن له عاشقات ، لا حديث بينهن الا عن سليمان ••

وأعادت سعاد نظرها الى الشاب ، ثم أجالت بصرها فى

أنحاء المرقص ، وتفحصت ثياب الراقصات والفتيـات وكئوس الخمر أمامهن ، ورنت فى أذنها ضحكاتهن المرحة فخفق قلبها، وخيل اليها أنهن سعيدات سعادة لا تشعر بها فتيات حارة الحطابة بالسبتية فأحست بما يشبه الغيرة منهن •

وطغى على سعاد اذ ذاك شعور متوحش بالتمرد ، وبدا لها أن تنشب أظافرها فى أرض المرقص وأن تلتصق بتلك الأرض •

واندفعت فجأة الى الباب الخـارجى تحدق فى سليمان ، الشاب الواقف بالباب الذى قالت عنه صديقتها سميرة انه محط اعجاب بنات المرقص ، ولحظ الشاب ذلك فرمقها بنظرة طويلة تكلف أن يودعها كل مافى وسعه من اغواء واغراء •

وكانت السماء اذ ذاك تمطر بغزارة ، وقد تراكمت أوحال الطريق بجانب الافريز ، وفتحت سـعاد أنفها فخيل اليهـا أن رائحة الوحل التى يحملها الهواء البارد رائحة تثير فى صدرها احساسا لذيذا •• كان للوحل عبق ! •

وتذكرت سعاد ما كانت تذيعه حارة الحطابة عن قدرتها على اثارة اعجاب شبان الحارة والعبث بعواطفهم فاعتزمت أن تنافس بنات المرقص وأن تنتزع منهن عامل الباب •• سليمان •

ولما غادرت سعاد المرقص ليلتئذ وهى على موعد مع سليمان ، توجهت الى غرفتها فى نزل متواضع باحدى الطرقات الضيقة المتفرعة من شارع عماد الدين واستلقت على فراشها ثم أضاءت المصباح الأزرق الصغير الموضوع بجانب الفراش وفتحت احدى المجلات فوقع بصرها على قصة للشاعر الشاب حماد عبد الله ، الشاعر الذى طالما أعجبت به وهى لا تزال فى بيت أسرتها ، قرأت القصة فى لذة ساحرة ، وأطفأت نور الغرفة .. أغمضت عينيها فحملتها الذكريات الى الماضى القريب فراقت لها فكرة الشاعر فى قصته ، حاولت أن تستعيد فى خيالها الصورة التى كانت قد رسمتها له ، صورة الشاب الحنون الوديع ، وعقدت فى خيالها مقارنة بين حماد وبين سليمان ، بين الشاعر القاص وبين عامل باب المرقص ، انها لم تعرف كلاهما بعد حق المعرفة ، ولكنها أحست بأن سليمان يأسرها كرجل ، ونظراته أثارت فى أعماقها نشوة خفية ، رغبة فى أن تقف الى جانبه ، أن تسأل عنه ، وتعنى به ، وتستمع اليه ، وانتهت الى أن الأمر بالنسبة للآخر لايعدو اعجاب قارئة اعجابا ساذجا بلون من ألوان الكتابة ، بل انها تبينت ــ بعد أن رأت سليمان ــ أنها رغم اعجابها بقصص حماد لا تروقها الصورة التى رسمتها له فى خيالها ، الى أن أقبلت صديقتها سميرة فانتزعت منها المجلة وتجاذبتا أطراف حديث عادى عن المرقص وسليمان عامل الباب ، حتى غلبهما النعاس .

(٣)

وانزلقت قدم سعاد فى حياة القاهرة الليلية ، أصبح من العادى المألوف أن تتردد سعاد على مقاهى عماد الدين وحاناتها ومراقصها ، السيجارة فى فمها والكأس لا تكاد تخلو مائدتها منها وتكاثف الكحل فى عينى الفتاة ابنة حارة الحطابة فأصبح الأحمر الموضوع على شفتيها الغليظتين أغمق من ذى قبل ، وعرف عن سعاد أنها « رفيقة » سليمان تبدو معه فى كل مكان ، ويفخر هو بسيطرته عليها سيطرة ظهرت فى كل تفاصيل حياتها •

وجرفها السيل مرة أخرى ، فاعتادت أن تحتمل ارتفاع الحياة وانخفاضها ، ومرنت على حياة الكفاح القاسى ، كفاح المرأة التى لا تملك شيئا ومع ذلك عليها أن تسد جوعها وجوع شخص آخر الى جانبها ، هو الشخص الذى تحبه •

وعادت سعاد ذات ليلة الى البيت عقب سهرة تأخرت فيها الى مطلع الفجر ، ودخلت الى غرفة النوم تتمايل لا تكاد تستطيع أن تحفظ توازنها ، فهب سليمان يسألها :

ــ أين كنت ؟ ــ وشعرت اذ ذاك بأنها يمكن أن تنكر حقه فى الرقابة عليها •• ومحاسبتها فأجابته وهى تستجمع قواها :

ــ مالك أن تسألنى • ــ وعندئذ تطاير شىء أشبه بالشرر

من عينيه ورفع يده ثم هوى بكفه على وجهها ولما سقطت الى الأرض ركلها بقدمه ثم أسرع فارتدى ثيابه وغادر البيت وهو البيت وهو يقول :

ـ احمدى ربنا لأنى رضيت بأن أعيش معك ، كل من عرفت عيرنى بك •

وسمعت سعاد صوت الباب يغلق بشدة خلفه ، وتجالدت ثم أسرعت الى الباب لتناديه ولكنه لم يجب فتقدمت الى النافذة تفتحها وتصرخ منها :

ـ يا سليمان •• سليمان •• تعال ـ ولكنه هز كتفيه وسار فى طريقه دون أن يجيب •

وكان الندى •• ندى الفجر يتساقط على أرض الطريق الضيق الذى تطل عليه الشقة المتواضعة التى تسكنها سعاد وقد بدأ من بعد شارع عماد الدين تلمع صفحته من أثر مياه الرش التى خلفتها عربات مصلحة التنظيم ، وتذكرت سعاد أول ليلة وقع بصرها على سليمان ، الليلة المطرة التى تراكم فيها الوحل على جوانب الطريق ، وعاودها نفس ذلك الاحساس البهيمى ، الاحساس بأن للوحل عبقا •• خفيا •• فشخصت الى الأرض وشهقت نفسا طويلا •• وخيل اليها لو أن سليمان جذبها من شعرها الى الشارع ودق رأسها بقدمه ومرغها فى ذلك الوحل لاستراحت الى تلك القسوة ••

ولكن شبح سليمان اختفى فى طريق قنطرة الدكة ، وبدأت الشمس تلقى خيوطها الذهبية الرفيعة على ذلك الحى العجيب من أحياء العاصمة ، وأغلقت سعاد النافذة ثم اتجهت الى فراشها وتمددت عليه تريح جسمها المتعب المضنى ، وفى حركة ذاهلة مدت يدها فتناولت من أحد الأدراج القريبة أول كتاب صادفها ، وفتحت الكتاب فوقع بصرها على قصيدة للشاعر حماد عبد الله عنوانها « العائدة » وهى قصيدة نشرت فى ذلك الكتاب الذى لم يكن الا مجموعة من قصائد الشاعر وقصصه ، تذكرت سعاد توا أنها كانت قد قرأت تلك القصيدة عند ظهورها فى احدى المجلات قبل ذلك ببضعة أعوام وأنها أعجبت بها اذ ذاك ، فأعادت قراءتها ، وطغى عليها اذ ذاك احساس جديد ، خيل اليها أنها ترتفع بكل ما يحيط بها من أثاث وثياب وموائد الى جو آخر ، جو أنقى وأرحم ، شعرت بحاجة قصوى الى البكاء ووضعت أصبعها على بيت من القصيدة يصف فيه الشاعر حالة امرأة بائسة تعودت حياة السجون بعد أن قضت فيها مدة طويلة اثر الحكم عليها فى تهمة قتل ضرتها بالسم فى جريمة من جرائم الغيرة فكانت تطوف حول أقرب سجن اليها تنظر اليه وتحييه كما تنظر الى أعز الذكريات ..

وتذكرت سعاد أنها توقن بأن شقاءها يعود الى حياة الحانات والمراقص ، ومع ذلك فان قدمها تسوقها اليها كل ليلة

وكأنها تحوم حول الشقاء وتستلذ الركون اليه ، وتدحرجت دمعتان كبيرتان على خديها •• ثم تمتمت : أيمكن أن يكون قد كتب هذا الكلام من أجلى أنا ؟ ـ وتلفتت حولها فخيل اليها أن الشاعر حماد واقف فى وسط الغرفة ينظر اليها بعينين فاحصتين ، وأصابتها نوبة حادة •• فضحكت ضحكة هستيرية وحدثت نفسها كمجنونة وهى تخفى عينيها بيديها فى خزى : لا •• لا يمكن أن يكون قد كتبه لى •• من يصدق أن فتاة مثلى أنا تفهم شعرا كهذا الشعر ؟

وكان التعب اذ ذاك قد اشتد بها •• فأغمضت عينيها •• وقد احتضنت الكتاب •• وراحت فى نوم عميق ••

(٤)

وذهبت سعاد ذات يوم لزيارة صديقتها سميرة فى منزلها ، ولشد ما كانت دهشتها عندما أخبرتها سميرة أنها عرفت الأستاذ حماد عبد الله منذ مدة قريبة وأنه جالس فى غرفة الطعام التى اتخذتها سميرة فى نفس الوقت غرفة للاستقبال •

وخفق قلب سعاد لدى سماعها اسم الشاعر ، وازدحمت الذكريات فى صدرها ازدحاما عنيفا ، أيام الدراسة فى حارة الحطابة بالسبتية •• سخرية زميلاتها من قراءة قصائده التى

كانت تقصها من المجلات وتجمعها حتى اصفر ورقها •• زلتها •• حبها لسليمان •• وفجر ذلك اليوم العاصف الذى اعتدى عليها فيه وخيل اليها أن قصيدة « العائدة » قد كتبت عنها •

واشتد خفقان قلبها •• وتوسلت الى سميرة :

ـ أرجوك أن تقدمينى له •

ـ ادخلى ـ وتقدمت سميرة الى حيث جلس الشاعر حماد عبد الله ، وقدمتها اليه فوقف حماد فى رقة يحييها ويذكر ـ فى أسلوب تقليدى ـ أنه سعيد بمعرفتها •

ولم يكن حماد يتصور وهو يتقدم لزيارة سميرة أنه سيلتقى هناك بقلب يخفق لسماع اسمه ، بل ما كان يخطر له أن هناك امرأة فى الوجود ظلت تفكر فيه مدى خمسة أو ستة أعوام ، وأن هذه المرأة هى تلك الجالسة أمامه فى ثوب أسود بسيط •

وتجاذب الشاعر مع الصديقتين أطراف حديث عادى •• عن الجو •• والموسيقى •• والغناء •• وسألته سعاد وهى تنظر الى عينيه نظرة طويلة :

ـ أأنت الذى كتبت هذه القصائد ؟

وظن الشاعر أنها تمزح فضحكت ضحكة ساذجة وأجاب :

ـ يقولون ذلك ••

ـ ياسلام •• متى كتبت كل هذا الكلام ؟

ـ لست أدرى .

وعادت سعاد تطيل النظر الى وجه الشاعر الشاب ، وتقدر عمره ، وتدهش من ذلك الانتاج الغزير الذى أنتجه فى ذلك الأمد القصير .

وخرج حماد يومئذ بعد أن ودع سعاد وهو لا يزال خالى الذهن مما دار فى خيالها عندما وقع بصرها عليه وما كان يدور فى ذلك الخيال قبل ذلك .

وبعد أسبوعين زارته سميرة ، ولشد ما كانت دهشته عندما فاجأته بقولها :

ـ ما العمل مع صاحبتك يا أستاذ ؟

فسألها :

ـ صاحبتى من ؟

ـ صاحبتك سعاد .

ـ سعاد من ؟

ـ ألا تذكر الفتاة التى عرفتك بها عندى فى غرفة الطعام ؟

وعاد حماد بذاكرته الى ذلك اليوم ، وتذكر بصعوبة شكل تلك الفتاة ذات الثوب الأسود التى كانت جالسة فى الظلام تنظر اليه نظرات طويلة شاردة ، وسألها :

ـ مالها ياسميرة ؟

ـ كلما قابلتني انهالت على أسئلتها : هل رأيت حمادا ؟ متى سترين حمادا ؟ اذا زارك حماد ناديني • حتى كدت أجن •

وزادت دهشة الشاعر فسألها :

ـ وما قصدها ؟

فأجابته وهي تغمز بنصف عين في صـــوت خافت ونغمة ممطوطة :

ـ عاشقة •• تقول انها تحبك من زمن بعيد ، وانها منذ قابلتك عندي لا تدري ماذا جرى لها ، لقد تحولت الى شاعرة لا هم لها الا الكلام عن رجل واحــد •• عن نظراته ، ودفء صوته ، وايماءة يده ، وأشياء أخرى كثيرة أنت بها أدرى يا أستاذ ••• أنا عارفة ••

وضحك الشاعر الشاب ساخرا ، ولم تكد سميرة تغادر الغرفة حتى عاد الى عمله وكاد ينسى كل شيء •

(٥)

ـ آلو •• آلو ••

ـ منزل الأستاذ حماد عبد الله ؟

ـ نعم ، من ؟

ـ أنا سعاد ...

ـ سعاد من ؟

ـ سعاد ابراهيم .. ألا تذكرنى يا أستاذ ؟

وتذكر الشاعر حماد ما حدثته عنه المطربة سميرة : وأيقن اذ ذاك أن التى تحدثه هى تلك الفتاة الشاذة التى رآها فى بيت سميرة ، فأراد أن يختصر الحديث ، ولكن سعاد تطرقت من سؤاله عن صحته الى مواضيع أخرى مختلفة ، واضطر هو أن يترفق معها فاسترسلت فى الحديث وعادت تؤكد اعجابها القديم به ، بل صارحته ـ فى صوت مرتجف منتحب ـ ان عينيه تركتا فى روحها أثرا عميقا لم يمحه الشهر الطويل الذى انقضى على رؤيتها له ..

واستراح الشاعر الى حديث تلك الشخصية ، شخصية قارئة لم تنل من التعليم الا قسطا يسيرا : نشأت فى حارة من حارات القاهرة ، ثم انتقلت الى حياة القاهرة الليلية الماجنة .. تتذوق القصة الشعرية وتتحدث عنها بوعى . وادراك .

وأعطته سعاد رقم التليفون .. وعنوان منزلها ، ورجته فى الحاح أن يزورها .

وعادت بعد قليل تحدثه مرة أخرى ، وأصبح من المألوف أن يدق جرس التليفون فى بيت الشاعر الشاب مرات عديدة

كل يوم فى نوع من الهوس ، وفى كل مرة يسمع صوت سعاد تكرر له عبارات اعجابها القوى ، وتكشف عن رغبتها الشديدة فى أن تسمع صوته •• وفى أن تتحدث اليه • وأمنيتها أن تراه وترسل اليه بين كل جملة وأخرى قبلة أو بضع قبلات متلاحقة

وأحس حماد بعد فترة برغبة فى أن يجيب دعوة تلك الفتاة •

فلما ذهب لزيارتها قابلته فى بيتها المتواضع مقابلة تتناهى حرارة ورقة ، وجلست الى مقعد مجاور وهى أشد ما تكون قلقا واضطرابا ، ولكنها لم تستطع أن تقاوم طويلا وغلبت عليها طباع الحياة الجديدة التى انحدرت اليها فطوقته بذراعيها وغمرته بقبلات طويلة •• ملتهبة •• ثم بان عليها التعب •• فألقت برأسها الى كتفه وهزت رأسها هزات بطيئة حسرى ، وفتحت جفنيها فى تثاقل فكشفت عن عينيها اللتين أجهدهما السهر الطويل والعبث العاصف ، ثم تمتمت فى نوع من الذهول كلاما لم يفهمه فسألها وقد بدأ يتأثر لمنظرها :

ـ مالك ياسعاد « هانم » ؟ ـ فرفعت يدها الناعمة تداعب شعره وأدنت فمها من فمه ورجته فى حنان وديع :

ـ ولم هذه الـ « هانم » ؟

وابتسم الشاب ثم سألها :

ــ طيب ، مالك ياسعاد ؟ ــ فزفرت زفرة حادة وأجابته ووجهها يتهلل بشرا وفرحا :

ــ أحبك يا حماد ، أحبك يا روحى ــ وتهدج صــوتها وارتفع صدرها فى خفقات سريعة ثائرة وعادت تتمتم :

ــ ياروحى ياحماد •

واشتدت دهشة الشــاعر الشــاب من ذلك الحب السريع الجارف ، وعن له أن يسألها عما كانت قد أخبرته به صديقتها سميرة ، وعن علاقتها بعامل باب المرقص سليمان الأسمر •

ولكن سعاد لم تكد تسمع اسم « رفيقها » حتى استجمعت قواها ورفعت رأسها واعتزمت أن تقوى على تلك الذكرى التى تجرح كبرياءها أمام الشاعر الذى تتمنى أن تنتزع اعجابه بها كما أعجبت هى به طيلة الأعوام السابقة ، فقطبت جبينها وقالت :

ــ لا •• أبدا ، سميرة كلامها كثير ، لقد طردته ، كان مرضا شفيت منه ــ ومدت يدها الى خصر زائرها تطوقه وتدعوه الى مشاهدة بيتها ••

(٦)

وانقضى يومان •• لم تنقطع أثناءهما دقات التليفون فى بيت الأستاذ حماد عبد الله ، ولم يسمع فى كل تلك الدقات

الا صوت سعاد يكرر عبارات الحب والهيام ، ورق قلب الشاعر لتلك الفتاة ، وفطن الى ما تعانيه فى حياتها القاسية ، خطر له أن يحاول السير بها بعيدا عن الجو الذى تحيا فيه ، فدعاها فى اليوم التالى لتناول العشاء فى مطعم من مطاعم شارع الألفى .

وارتدت سعاد ثيابها بسرعة وهى تحس فى أعماق روحها بأن علاقتها الجديدة بالشاعر الشاب قد ارتفعت بها الى .. الى تلك الحياة التى كانت تحلم بها فى طفولتها ، الحياة المحاطة باطار من الورود الناضرة الحمر ..

وتأبطت ذراع صديقها الجديد وهى فخورة به مزهوة ثم تقدمت الى المطعم وكأنها تبدأ حياتها المنشودة .

ولم تكد سعاد تتناول بضع كئوس من « الويسكى » حتى ارتفع صـــوتها ، وتعـــالت ضحكاتها ، فالتفت الجالسون والجالسات حول الموائد القريبة ، الى حيث جلس الشاعر مع صديقته ، وأيقن حماد أنه لو أن بين هؤلاء الذين حوله من كان يقرأ له معجبا فلا شك أنه قد صدم برؤية الشاعر فى صحبة مثل .. هذه الفتاة ، وفهمت سعاد ما جال بخاطره ولكنها ، مع ذلك ، طوقته بذراعها وقبلته قبلة سريعة وهى تقول :

ــ مهما فعلت فلن تنجو من نقد هؤلاء الناس ومع ذلك فأنت الليلة لى ، لى أنا وحدى .

وتبين أنه لم يكن من اللائق أن يدعو تلك الفتاة الى مطعم له بيئته الخاصة .

فلما صحبها بسيارته الى منزلها تشبثت به لكيلا يسرع بالانصراف وسألته عن الموعد الذى يمكن أن تراه فيه مرة أخرى، تردد وحاول أن يعتذر .

فأدنت وجهها من وجهه وعادت تسأل :

ـ ماذا تريد أن تقول ، لن أراك بعد ؟

ـ أظن .

ـ لم دعوتنى اذن الليلة ؟

ـ دعوتنى الى بيتك فرددت الدعوة .

ـ وانتهى ما بيننا ؟

ـ لم يبدأ بيننا شىء حتى ينتهى .

فأحست سعاد اذ ذاك بذلك الاحساس القديم يتحرك فى صدرها .. الاحساس بعبق الوحل .. خيل اليها أن تستفزه لكى يصفعها .. خطر لها أن تجلس على الأرض وأن تتشبث بساقيه ولكنها أيقنت أنه لن يبقى .. لم تدر ماذا تفعل ! هوت على يديه تقبلهما وتغمرهما بأنفاسها الحارة ، فقال لها وهو يربت على وجنتيها برقة وحنان :

ـ قلت لك انك تتوهمين أن بيننا ما يدعو الى هذا الموقف،

سوف تتبينين أنه ليس بيننا ما تندمين عليه وتتأثرين له ، الوداع .

ونزلت سعاد متهالكة من الضعف وانطلقت السيارة عائدة بصاحبها الى داره ..

واعتقد حماد أن المرأة سوف تثأر لكرامتها فلا تعود تعنى به أو تسأل عنه ؛ ولكن لشد ما كانت دهشته فى اليوم التالى عندما لمحها تقبل فى عربة الى بيته ، الى بيته الذى لم يكن يعرف أنها اهتدت الى عنوانه ..

وخرج للقائها .. لم تعاتبه على موقفه السابق منها بل قالت بعد تردد طويل :

ـ تكلم ، قل شيئا ، أى شىء .

وتحركت فى الشاعر الشاب مرة أخرى عاطفة الشفقة نحو الفتاة المسكينة فتناول يدها وسألها فى لهجة رقيقة :

ـ ماذا تريدين ؟

ـ لا شىء . كنت أريد أن أسمع صوتك .

وفكر الشاب قليلا .. استمع الى نداء قلبه فوجده يفيض بطائفة من العواطف الرقيقة نحو الفتاة التى الى جانبه ،عواطف اختلطت فيها الشفقة بالرثاء والعطف ، فدعاها الى الدخول فى بيته ، وقدم لها كأسا ثم أخرى وشعرت سعاد وكأنها ارتفعت من بئر عميقة ، وتلفتت حولها فى ذهول فوجدت نفسها بين

ذراعي الشاعر حماد عبد الله الذى طالما تخيلته فى أحلامهـا ، ووقع نظرها على مكتبته المنظمة الرشيقة الملأى بكتب الأدب ، وأدارت بصرها فى لوحات الصور الفنية المعلقة على الحـائط فأحست بأنها تعيش فى جو لم تعتده ، أحست بأن الهواء الذى تستنشقه فى غرفة الشاعر ، وقد اختلط فيه دخان « البيبة » وعطر باقة « البانسيه » الموضوعة على المكتب ورائحة الكتب المكدسة فى المكتبة الزجاجية ، ليس بالهواء الذى تستريح له رئتاها ، وفجأة تذكرت الليلة التى وقع بصرها فيها على سليمان عامل الباب فى المرقص ، ورائحة الوحل التى كانت تتصاعد من أرض الطريق . خيل اليها انها تفتقد أريج الوحل وعبقه !

واشتد بها الضيق ، أخذت ترفع ساعديها فى الهواء ثم تخفضهما وكأنهـا تريد التشبث بشىء مرتفع فلا تقوى ، وكان الليل قد أقبل وبدأت أنوار الميدان الواسع الذى تطل عليـه غرفة الأستاذ حماد تسطع فى الظلام ، وطرق سمعها وقع حوافر الجياد تجر عربات الأجرة ، وأصوات أبواق السـيارات التى تحمل الهابطين الى قلب المدينة لقضاء السهرة ، كأنه نشيد يعزف تحية الليلة الجديدة .

وهزت رأسها فى حسرة ثم قالت وهى تنظر الى عينيه :

ــ أتخسر كثيرا اذا قلت لى .. أحبك ؟

وتبين حماد أنها تتأهب لاستجماع قواها فابتسم ابتسامة تكلف أن تكون ساخرة ، وعندئذ وقفت سعاد ورفعت رأسها وقالت في صوت مرتجف :

ــ لم تبتسم هكذا ؟.. أنت لاتحب ، ليكن ، ولـكنني أحب .. أحب .. أحب .. سليمان ..

وضحكت ضحكة هستيرية ثم غادرت الغرفة مسرعة ..

وسمع حماد وقع خطاها المضطربة على درج المنزل

(٧)

بعد سبعة شهور كان الشاعر حماد عبد الله مارا في طريق من الطرق الضيقة المتفرعة من شارع هدى شعراوى فرأى ازدحاما أمام أحد المنازل وسيدة هزيلة تستغيث من رجل يعتدى عليها بالضرب ، ولما دقق النظر اليها عرفها ، كانت سعاد ، وكان الضارب رجلا لا يعرفه ..

وأسرع حماد خطاه خشية أن تراه فتخجل ..

لقد أرادت أن ترتفع الى المستوى الذى كانت تحلم به.. ولكنها كانت قد تسممت بسم الشارع ..الشارع الذى احتشد فيه الناس والعربات والبهائم .. وتراكم على جوانبه الوحل .

ورجع الشاعر حماد عبد الله الى مكتبته يعيد قراءة قصة

« العائدة » ويصقل ألفاظها ويحور معانيها ، بينما كانت سعاد في نفس الوقت تدور فى غرفتها المتواضعة وقد تهدلت الثياب على كتفيها من أثر الضرب ، تبحث بشراهة عن تلك القصيدة.. كأنها تبحث عن عزائها الضائع ..

وطرقت سمع سعاد اذ ذاك جلبة عربات الرش وهى تقذف بمياهها الى الافريز الذى يقع عليه باب مسكنها ، فترتطم المياه بأسفل الجدران المتداعيةوتندفع الىالبالوعات جارفة القاذورات والتراب ومخلفات آثار الأقدام ، فتوقفت سعاد عن البحث عن قصيدتها ، وتقدمت الى النافذة ففتحتها ثم استنشقت هـواء الطريق الضيق .. استنشقت فى شراهة نهمة ..

وأرقت نعمت

أرقت نعمت بعد أن عادت الى غرفتها الصغيرة بشارع البستان من رحلتها الليلية فى ملهى « الانشراح » •

كانت قاعة الملهى ليلتئذ خالية من الجمهور تقريبا ، لم تدر ما السبب ، لعله لأن الشهر قد اقترب من نهايته وخلت جيوب الموظفين والطلبة مما يدفعونه ثمنا للدخول وللخمر يحتسونها أو يدعون الراقصات الى احتسائها ••

كم هو مؤلم أن ترقص نعمت أمام الموائد والمقاعد الخالية !

كان يخيل اليها وهى ترتدى ثوب الرقص فى الغرفة الخشبية الضيقة التى الى يسار المسرح الصغير أنها تتقدم بذلك الثوب المزركش الى خشبة النعش ، ولما بدأت رقصتها

أراد صديقها علاء أن يشجعها على الرقص فأخذ يصفق فى حدة وعنف ، ولمحت مائدة أخرى جلس اليها رجل تعرفه من موظفى مصلحة السكك الحديدية يحييها بالتصفيق ، وتبينت وهى تخطو على المسرح أن أمامه على المائدة بضع كئوس من الخمر ، والى جانبه زميلتها خيرية التى تؤدى معها ثنائيا راقصا فى نفس الملهى فالتفتت اليه وأجابته بابتسامة ، ولما دارت دورتها المعتادة التى تستلزمها رقصتها الشرقية لاحظت أن صديقها علاء قد استاء من طريقة تحيتها لذلك الموظف فتجهم وجهه وامتنع عن التصفيق ثم أخذ يتجرع ماأمامه دفعة واحدة فى حركة عصبية متشنجة ، كان يظن أنه بذلك يخيفها ويهددها ، فلم تجد مناصا من أن تغيظه ، وغمزت بعينها اليسرى للآخر ثم دارت دورة سريعة وغادرت المسرح ..

ولما ارتدت نعمت ثيابها خرجت من الغرفة الضيقة وقد أشعلت سيجارة وأخذت تنفث دخانها فى الهواء ، مرت بجانب مائدة علاء دون أن تعيره اهتماما ، وتوجهت الى مائدة الموظف الذى لم يكد يراها حتى هب واقفا ، وحياها فى حرارة ثم دعاها الى الجلوس معه فقبلت متظاهرة بأنها لم تلحظ غضب خيرية ، وتبادل معها بضع كلمات تعمدت أن تضحك لها ضحكا عاليا حتى تلفت نظر علاء ، ولكنها تنبهت بعد قليل الى أنها نسيت اسمه ، ولحظ هو ذلك فسألها :

ــ أنسيت اسمى ؟

وعندئذ أجابته فى سرعة وهى تدنو بمقعدها منه :

ــ أعقلى دفتر ياأخى ؟.. ماأسمك ؟.. عارفة انك فى السكة الحديدية .. أليس كذلك ؟

ــ نعم يانعمت .

ــ أتريد أن تنهب ؟.. يكفى أن نعمت تذكر صنعتك

وأحست توا أن كلماتها جرحت كبرياءه ، فقد وجم قليلا وأطرق الى الأرض ، وأسرعت خيرية فتداركت الأمر وقالت له وهى تضع يديها على وجهه :

ــ عيب يانعمت ، أنسيت اسم مفيد الذى لم بتخلف مرة عن مساعدتنا فى توزيع تذاكر الفرق التى نعمل بها !.. لا .. مفيد صديق الفنانات ، مفيد على سن ورمح ، ربنا يخليه لنا .

وسر مفيد من تلك اللهجة ، ولكن نعمت لم تتمالك نفسها من أن تتكلف الاشمئزاز منها فرفعت كتفها اليسرى ، ورمقته بنظرة هادئة طويلة ، ثم قالت فى صوت خافت تعمدت أن تضفى عليه مسحة من الزهو والكبرياء :

ــ ربنا يخليه لنفسه ولأهله ..

وخشيت خيرية مرة أخرى أن تضيع عليها فرصة كسب سريع من مفيد ، وكان الساقى اذ ذاك قد أحضر لنعمت ما طلبه

مفيد فضحكت خيرية وقالت لها وهى تشير الى مائدة صديقها علاء من طرف خفى :

ـ يحق لك مادام علاء الفيومى يحبك ويتردد كل ليلة نيصرف عليك دم قلبه ، قومى ياشيخة الجدع قاعد وحده لاهم له الا النظر اليك من تحت لتحت ..

فأشاحت بوجهها عنها وقالت وهى تلوى شفتيها استهزاء:

ـ ماذا يمكن أن أعمل ؟.. هل اشترانى ؟.. صنعتى أقعد مع من يدعونى ، وهو حاكم على أنه مادام هنا فلا أكلم غيره ، ولا أحيى غيره ، وطول النهار مكفر عيشتى بالحب والعشق والغرام ، لو استطاع لحطنى أمامه وظل ينظر لى ليل نهار دون أن ألتفت هنا ولا هناك ..

وضحكت خيرية ساخرة ولكن نعمت ذكرت لها حادثة تدل على مقدار تعلق ذلك الشاب الثرى بها .. كانت الى جانبه وهو يقود سيارته الخاصة ، وكان بعض أقاربه وأصدقائه جالسين فى المقعد الخلفى ، وحدث فى انحراف مفاجىء أثناء سير السيارة أن سقط معطفها عن كتفها وبان جزء من جسمها على ضوء مصباح الشارع ، وخيل اليه اذ ذاك أن أقاربه وأصدقاءه قد رأوا ذلك الجزء العارى من كتفها فلم تشعر الا وهو يدفعها بيده فى كتفها بقوة ، فاختل توازن السيارة اذ

ذاك واصطدمت باحدى الأشجار القائمة على جانب الطريق وأصيبوا جميعا بجروح عدة ، ولما انتهت نعمت من سرد هذه الحادثة نظرت خيرية اليها فى ذهول وسألتها :

ــ الى هذا الحد ؟

ــ أعدم عينى ان كل ماذكرته لك صحيح ، لو قلت لك انه يغار على من نفسه لما كنت كاذبة •

ــ ولكن لا تنسى يانعمت أنه غنى ، من منا الآن لديها صديق يملك ورشة سيارات وعمارة فى ميدان التحرير ؟•• تحملى والا خطفه غيرك ••

فأجابتها فى لهجة حازمة :

ــ أنت لاتعرفينه ، اذا غضب فلا دواء له غير البرود وعدم الاكتراث الى أن يروق ويعود من تلقاء نفســه ، لو رحت له وصالحته فلن أعرف بعد أن أكلمه •

ونفذت خطتها فعلا ليلتئذ ، فتركت صديقها علاء الفيومى جالسا مع أصدقائه يتجرع كأسا تلو الأخرى الى أن غادر الملهى دون أن تعبأ به ، ثم أرادت أن تغلو فى الثأر منه فقبلت دعوة الدكتور حسنى ، الطبيب بمصلحة السجون الى تناول العشاء بعد مغادرة المرقص ، ومكثت معه حتى الساعة الرابعة صــباحا

دون أن تندم على هذه الساعات التى استراحت فيها من سماع كلمات الحب والهيام التى اعتاد أن يصدعها بها صديقها الآخر .

استعرضت نعمت ذلك الشريط لتتغلب على أرقها بعد أن استلقت على فراشها ، أحست أنها ملت هذه الحياة الحاشدة بالمتناقضات ، انها تبيع كل شيء رخيصا مهما تفننت فيه ، حتى الثأر من صديقها علاء ..

ولم تستطع ــ ليلتئذ ــ أن تتغلب على أرقها ..

(٢)

وانقضت أيام .. بضعة أيام وليال ، حاولت «أم نعمت» وصاحبة ملهى « الانشراح » أثناءها أن تصلحا بين نعمت وعلاء الفيومى فأبت .

وذات يوم انتهرتها والدتها فى لهجة حادة :

ــ أنا عارفاك طول عمرك مجنونة ، تفضلين البقاء بهذا الفستان القديم العرة على الصلح مع من يقدر على أن يسعدك .. ذنبك على جنبك .

وزادت صاحبة المرقص على ذلك قولها :

ــ لن تجدى فى هذه الدنيا الواسعة يانعمت من يقرك

على أن تتركى هذا الشاب الغنى وتفضلى عليه الذى لا يملك غير مرتبه ، عشرون أو أربعة وعشرون جنيها ستكفيه للأكل والشرب والسكن والملبس أو ستكفيكما هنا فى المرقص أو خارجه اذا دعاك الى غداء أو عشاء !

كانتا تشيران الى حسنى الذى بدأ يتودد اليها أخيرا بعد أن توترت علاقتها بعلاء الفيومى . وقد زادها هذا التدخل اصرارا على تمكين صلتها به ، فقالت لهما فى لهجة حاسمة :

ـ ليس لأحد كلمة عندى ، الغنى الذى تتحدثان عنه أنا لا أحبه ـ وكانت نعمت فى الواقع صادقة ، اذ أنها ملت تلك الطريقة الغريبة التى كان يعاملها بها علاء الفيومى . لم تكن تشعر معه بأنها امرأة لها احساس وأعصاب ورغبات كامنة. كان يعمد دائما الى تحويلها الى صنم جامد يسجد أمامه ولا يدع أحدا يقترب منه ، حتى ولا هو نفسه ..

أما حسنى فقد أشعرها منذ الليلة الأولى بأنه رجل .. رجل يفرض ارادته .. أرادت ، ذات مرة ، أن تتخلص منه وتذهب الى منزلها خلسة فخرجت من الباب الخلفى للمرقص ، كان المطر ينهمر رذاذا خفيفا ، لم تكد تخطو بضع خطوات فى الطريق المظلم حتى أحست بخطى تتبعها واذا به حسنى أقبل مسرعا ، فجرت ولكنه جرى خلفها حتى وصلا الى الطريق العام ، كانت تظن أنه سوف يخجل من المارة . ولكنه لم يعبأ بل

أوقفها بجانب باب أحد المحلات التجارية فى شارع عماد الدين ووقف أمامها •• وقد أدنى وجهه من وجهها وأخذ يضيق عليها الخناق لكى تقبل دعوته الى تناول العشاء ، ثم مد يده فجذبها بقوة ودفع بها الى أول عربة مرت ثم أمر السائق أن يتجه الى مطعم عينه ••

شعرت اذ ذاك بالفرق بين حسنى وعلاء الفيومى ••

لم تقارن بين ثروة الاثنين ، ولذا لم تكد والدتها وصاحبة المرقص تفاتحها فى الموضوع حتى ثارت وتركت لهما المرقص وهى تشيع من فيه باللعنات ••

وقضت نعمت بضعة الأيام الأخيرة مع حسنى ، كانت فترة هادئة استراحت أثناءها من عناء العمل فى المرقص ، ولكنها لاحظت أنه لم يكن يميل الى الخروج معها ، مع أنها كانت ــ وبخاصة فى اليومين الأخيرين ــ أشد ما تكون شوقا الى المرور فى شارع عماد الدين ، والتمتع بأنواره ، والتسكع على مقاهيه وحاناته •

وضاق صدرها أخيرا فارتدت ثوبا للخروج ، ولكنه لم يكد يراها حتى أسرع اليها وقد تجهم وجهه وتقطب جبينه وصاح بها :

ــ ماذا تفعلين ؟

فأجابته فى هدوء :

ـ ألبس .

ـ لم ؟

ـ لأننى أنوى الخروج

ـ تنوين الخروج وأنا جالس معك ؟

فضحكت وهى تتقدم الى الباب ثم قالت :

ـ من أجل ذلك أود الخروج .. ضقت منك يا حسنى وأنت قاعد وجهك فى وجهى طول الليل وطول النهار ، ألم تضق أنت الآخر ؟

فأجابها مسرعا :

ـ أبدا .. لو قعدت هكذا طول عمرى لما ضقت ، مايضايقنى أن تخرجى الآن ، وأن يراك أهل الحى من جديد ، بعد أن هدأت واستقرت حياتك هنا ، فيقبل عليك من يحييك ومن يسأل عن سبب الغياب ومن يتسكع ويفتعل حديثا سمجا ثقيلا .

فدهشت نعمت من تلك اللهجة الغريبة التى لم تكن تعهدها فيه والتى ذكرتها توا بعلاء الفيومى ، وسألته :

ـ ايه ؟.. أيضايقك هذا حقا ؟

ـ طبعا .

ـ لم ؟.. أين عرفتني ؟.. ألم تعرفني في ملهى أرقص نصف عارية أمامك وأمام سواك ؟

وأطرقت برأسها قليلا ، استعرضت ذكرى الأيام التي قضتها مع علاء الفيومي ، ثم قالت في صوت هامس :

ـ كلكم سواء ، ستغار أنت الآخر .. !

وقد لاحظت نعمت أنه وافق على النزول معها مرغما ، وتوجها الى أحد مقاهي عماد الدين .. لم تكد تدخل الى المقهى حتى تبينت في وجوه الجالسين والجالسات شيئا من الدهشة ، وأسرعت بتحية من تعرفه منهم ثم جلست الى احدى الموائد القريبة من الباب وبجانبها حسني .. الذي كان يجيل بصره بين زبائن المحل في حركات عصبية ثائرة ، وبعد قليل اقترب زميل لها من الذين كانوا يلقون الأغاني في المرقص وجلس الى جانبها بعد أن استأذن من حسني ثم همس في أذنها :

ـ ماذا دهاك يانعمت ؟.. أمجنونة أنت حتى ترفضي النعمة بيدك ؟.. سمعت أن علاء الفيومي سيتزوج .

وقد دهشت لهذا الخبر .. وخفق قلبها .. وانقضت فترة دون أن تنطق ، ولكنها انتبهت فجأة الى أن حسني كان يراقبها فقالت له :

ـ لم لا يتزوج ؟.. علاء فى مقتبل العمر ومن حقه أن يكون بيتا وأسرة .

ـ ولكن هل أنت ناوية أن نظلى هكذا بدون عمل .. ماآخرتها ؟

ـ هل العمل مقطع بعضه ؟

ـ تعاقدت مع فرقة مسافرة الى بيروت وأستطيع أن ألحقك بها ، فكرى فى الموضوع .

قال ذلك ثم تركها وابتعد ، وتبينت توا أن حسنى قد اكفهرت أسارير وجهه وأراد أن يعرف ماذا كان يهمس به زميلها فى أذنها ، كان يظنه صديقا أو عاشقا ، ولذا ماكادا يعودان الى المنزل حتى أخذ يوجه اليها أسئلة تعمدت أن تجيبه عليها اجابة باردة فاترة ، فاشتد فى لهجته وعنف واضطرت أن تشتد هى الأخرى ، وتطور الأمر الى شجار حاد انتهى بأن قالت له وهى تغادر المنزل :

ـ لم تكفرنى فى عيشتى ؟.. لقد تركت صاحبى الغنى لأنه كان يسرف فى الغيرة على ، جئت أنت تسألنى وتحقق معى كما لو كنت قتلت قتيلا ، كنت عاقلا عندما عرفتك ، أما الآن فقد أصبحت كغيرك ـ وأطلقت ضحكة ساخرة وهى تتقدم الى الباب قائلة : أرى وجهك بخير ..

وبعد قليل كانت نعمت في الشارع لاتحمل الا ثوبها وبضعة قروش في حقيبتها ، ففكرت برهة ثم أسرعت لمقابلة زميلها الذى حدثها عن الفرقة التى تعتزم السفر الى بيروت .

(٣)

وقفت نعمت فى محطة الاسماعيلية تنتظر القطار الذاهب الى بور سعيد فى طريق ابحار الفرقة الى لبنان ، بعد أن أحيت بضع حفلات فى السويس وبور توفيق والاسماعيلية ، كان البرد شديدا الى درجة قارسة ولما شعرت بالجوع بحثت فى حقيبتها فلم تجد الا مايكفى لشراء ثلاث قطع من « الكبد » من بائع متجول يحمل على رأسه « طبلية » كبيرة مستديرة ، ودخلت الى عربة الدرجة الثالثة بالقطار قبل موعد تحركه بكثير التماسا للدفء وأقفلت النافذة وبينما كانت تلتهم قطع الكبد فى نهم سمعت دقا خفيفا على زجاج النافذة من الخارج ولما التفتت وقع بصرها على مفيد الذى جالسها فى المرقص مع خيرية ليلة أغضبت صديقها علاء الفيومى ، وقد وقف على افريز المحطة مرتديا زى موظفى محطات السكك الحديدية يشخص اليها والى قطع الكبد وقد افتر فمه عن دهشة عظيمة ، ثم دخل الى العربة وصافحها ، كانت يدها متثلجة فشملها بنظرة سريعة فهم

منها سبب رعدتها تحت ثوبها الخفيف الذى لا يقى من البرد فى ليلة من ليالى الشتاء القارسة على ضفة الصحراء •

وسألها مشفقا :

ــ مالك يانعمت ؟•• ماالذى جاء بك هنا ؟

فضحكت ضحكة جافة لاحياة فيها وأجابته :

ــ مسافرة الى لبنان ، اتفضل كل كبده ــ فهز رأسه : وحدثها عن علاقتها بعلاء الفيومى ، وصارحها بأنها ضحت بحياة رغدة هانئة من أجل نزوة لم تقدها الا الى العمل الشاق ، الى نوع من التشرد ، وتغيب قليلاثم عاد ومعه لفافة كبيرة رجاها ألا تفتحها الا فى الطريق ، وظل واقفا أمام نافذة القطار حتى تحرك •

ولما فتحت اللفافة وجدت بها « بطانية » من الصوف وبعض مأكولات جافة ، كانت حقا فى حاجة الى الدفء والشبع ••

ولكن رحلة الفرقة الى لبنان خابت خيبة مرة ، فعادت نعمت الى الملهى الذى كانت تعمل فيه أولا ، وقوبلت عند ظهورها على خشبة المسرح الصغير بعاصفة من التصفيق الحاد ، كان المترددون على الملهى قد فسروا تضحيتها بعلاء الفيومى تفسيرات لم تكن قد خطرت لها على بال ، بل لن تخطر

لها على بال ، ذهب البعض الى أنها فضلت الشقاء فى سبيل الفن على الراحة فى كنف رجل غنى ، وأحاطها آخرون بهالة من القسوة والرغبة فى تعذيب الضحايا من عشاقها ، وزعم نفر بأنها سكيرة ، عربيدة ، متهتكة ، لا تستريح الا الى حياة الليل الساهرة الصاخبة •

ماذا فعلت نعمت حتى أثارت اهتمام المترددين على المرقص ؟

لقد أحبها شخص وأوحى اليها هو نفسه بأن تقسو عليه وأن تتنكر لأنوثتها فتمتهن رجولته ، ولما ملت تلك الحياة وجدت شخصا آخر أطلعها على لون آخر من ألوان الحياة تبعته ، ثم تبينت أن هذا اللون قد بهت ، حتى كاد يحاكى اللون الأول ، فزهدته ••

وذات ليلة قدمتها صاحبة المرقص الى موظف شاب فى وزارة الداخلية فهمت أن له بعض النفوذ فى الرقابة على الأغانى التى تلقى فى الملاهى ، لاحظت نعمت أنه يتودد اليها توددا كبيرا ، ولم يلبث طويلا حتى حدثها عن المستقبل الذى ينتظرها لو اشتغلت بالسينما ، وأشار الى شعرها ، ودفء نظراتها ، وتفجر الأنوثة من شفتيها ، فاستمعت اليه حتى انتهى ، وأطلقت ضحكة ساخرة وهى تغمز بعينها اليسرى قائلة له :

ـ ماذا تقول يا أنت ؟.. هذا الكلام أنا شبعانة منـه ؛ ما من أحد قال لي انني قبيحة أبدا ، أتظنون أنني لا أنظر الى نفسي في المرآة قط ؟

وكأنه دهش لذلك فقال لها مسرعا وقد احمر وجهه خجلا :

ـ أؤكد لك أن كل ما قلته لك صحيح ، انك تستازين عن كل من يشتغل هنا ؛ مثلا ..

فأرادت أن تغلو في السخرية منه ونكشت شعرها حتى ارتفع عاليا في فوضى واهمال ، وأحنت رأسها على كتفهـا ثم نظرت اليه نظرة طويلة هادئة لم تكد تطمئن الى أنها أثرت فيه حتى عادت تضحك وتغمز بعينها وهي تقول له :

ـ لا وجه للمقارنة بين خيرية وبيني ، على الأقل شعرها ليس أكرت كشعري ..

ونهضت اذ ذاك واقفة ثم اتجهت الى مائدة أخرى جلس حولها بعض أصدقائها القدامى .

وعندما جاء دورها مرت أمام المائدة التي جلس اليها موظف الداخلية ، كان يبدو عليه أنه يتوقع منها كلما مرت به أن تحييه بابتسامة ، فلما لاحظت نعمت ذلك رمقته بنظرة حادة من تحت جبين مقطب وكأنها تنكر معرفته ، أو كأنها لم تكن جالسة بجانبه منذ برهة ، ثم اتجهت الى الغرفة الخشبية الضيقة المعدة لارتداء ثياب الرقص ..

ولما غادرت المرقص عند الفجر فى طريق عودتها الى بيتها لمحت الدكتور حسنى واقفا بجانب الباب يشخص ببصر زائغ الى الخارجين ؛ ولما رآها تهم بركوب عربة مع صاحبة المرقص وبعض أصدقائها هز رأسه وحرك عصاه الصغيرة فى الهواء ..

(٤)

ضحكت نعمت كثيرا عندما تلقت رسالة بالبريد المستعجل من موظف الداخلية الذى جالسها فى المرقص يبثها حبه ويعاتبها على أنها نظرت اليه عند مرورها أمامه « نظرة ملتهبة » ..

لقد حاولت أن تفهم ذلك التعبير فلم توفق ، وجاءها بعض أصدقائها فعرضت عليهم الرسالة واشترك الجميع فى الضحك ..

ولما ذهبت الى المرقص فى الليلة التالية دعاها اسماعيل أحد ضباط مصلحة السجون الى الجلوس معه فقبلت ، كان شابا رياضى القامة ، وسيم الطلعة ، فاتن العينين ، يصغرها ببضعة أعوام ، فعرضت عليه أن تقضى معه نهار اليوم التالى فى الفيوم ، ولكنها لاحظت أن حسنى الطبيب بالسجون كان يسترق النظر الى داخل المرقص من خلف الباب ولم يكد ضابط السجون ينصرف حتى تقدم اليها الدكتور حسنى وسألها فى صوت مرتجف

ــ ماذا تنوين أن تفعلى بى يانعمت ؟ أضاقت الدنيا ولم يبق الا أصحابى وزملائى •• ؟

وخشيت أن يخبره زميله بانها طلبت منه أن يصحبها الى الفيوم •

فاقتربت منه •• وغمرت وجهه بأنفاس حارة •• وألقت برأسها على كتفه ثم قالت له فى لهجة حنون تتكلفت فيها البراءة والاستكانة :

ــ ماذا يمكن أن أفعل يا حسنى ؟ طلبنى وظل يرجونى أن أصحبه باكر الى الفيوم •• ــ ولما سألها :

ــ هل يعرف صلتى بك ؟ ــ أجابته :

ــ أظنه يعرف ، ولكن •• هل حرم على كل من يعمل فى السجون أن يدخلوا هذا الملهى لأننى كنت صديقة لك ؟

وانقضت ليال أخرى ••

وترامى الى رواد المرقص أن الدكتور حسنى تشاجر مع زميله الضابط اسماعيل شجارا أجرى بشأنه تحقيق ترتب عليه نقل الاثنين من القاهرة ، حسنى الى سجن قنا واسماعيل الى سجن أسيوط ••

وليلة عرفت نعمت بخبر نقلهما دعاها حمدى وهو شاب يعمل بالسلك السياسى العربى فى الخارج لتناول كأس معه • ولم يكد يتبادل معها حديثا قصيرا حتى تبينت أنها أمام طراز

جديد من الرجال ، أخبرها بأنه سمع شيئا عن اهتمام رواد الملهى بها ولكنه صارحها بما لم تسمعه قبل من غيره ، أشار الى شعرها الخشن ، الأكرت ، وذكر أن هناك أكثر من وسيلة لاخفاء عيبه •• وأشار الى ضحكاتها العالية التى تشبه ضحكات الحشاشين ، وحركات يديها وتقلصات أصابعها فى غير رقة ولا أنوثة ، والتثنى المتكلف فى مشيتها ، ونصحها بأن تعمل على التخلص منها ••

وانحرف الحديث بعد ذلك وجهة أخرى ••

وانتقلت الى مائدة أخرى فارتدى حمدى معطفه عندما أزف موعد انتهاء العمل فى المرقص واتجه الى الباب فأسرعت نعمت اليه وسألته :

ــ الى أين ؟

فأجابها :

ــ الى البيت ••

وانتظرت أن يدعوها الى قضاء بعض الوقت فى مكان آخر ، أو الى الغداء فى اليوم التالى ، ولكنه حياها وخرج ••

ولما عادت الى بيتها وقفت برهة أمام المرآة ، أطالت النظر الى شعرها •• عالجت عدة أوضاع مختلفة له •• تحدثت الى نفسها بصوت خافت دون أن تحرك يديها •• ثم ضحكت

ضحكة حاولت أن تكون رقيقة لاتشبه ضحكات الحشاشين ..
ولكنها ، مع ذلك ، نقمت على نفسها أنها لم تثأر لها من حمدي ، كيف احتملت الاستماع اليه ؟

ونكشت شعرها ثانية ثم أطلقت ضحكة عالية ..

(٥)

وتتابعت رحلات نعمت الليلية الى المرقص ..

الى أن كانت ليلة الأمس ، فلم تكد تدخل الى القاعة حتى رأت صديقها القديم علاء الفيومى جالسا مع عروسه فى ركن من الأركان البعيدة المنزوية عن الجمهور ، كانت عروسه تنتمى الى أسرة كبيرة من أسر الاسكندرية ، ولما صعدت خيرية لتؤدى رقصتها صفق علاء لها بشدة واشتركت زوجته فى الاعجاب بها ، بينما نظر الى نعمت عندما مرت به فى طريقها الى المسرح ، نظرة باهتة وكأنه لم يسبق له أن رآها ، وما أن صعدت الى المسرح حتى التفت الى زوجته وأخذ يتحدث اليها دون أن يأبه لها ، فأسرعت بانهاء رقصتها ونزلت الى القاعة .. كان مفيد جالسا مع خيرية يشيران الى نعمت والى علاء الفيومى وعروسه ، وكان حسنى جالسا مع زميله اسماعيل بجانب صاحبة المرقص يضحكون ويمرحون..

وأجالت نعمت بصرها في أنحاء الملهى •• خيل اليها أن أنواره التي تعهدها زاهية ، مرحة ، ضاحكة ، قد شحب لونها • واصفر أجالت بصرها فلم تعد ترى حولها الا هذا اللون الشاحب الباهت، اللون الأصفر ، لون واحد ، كئيب ، بشع ، يحبس النفس ويقبض الصدر ، شعرت بأن جوه يخنقها ، ولما عادت ، قبيل الفجر ، الى غرفتها الصغيرة بشارع البستان نظرت الى المرآة قبل أن تخلع ثيابها ، كانت شعرة بيضاء تلمع في رأسها ، حاولت أن تخفيها •• أن تدفنها ، ولكنها مالبثت أن تسللت من الشعر الأسود الأكرت وانطلقت كضحكة من ضحكات الحشاشين الساخرة • ولمحت بعض تجاعيد سود خفيفة اجتمعت تحت عينيها •• فأسرعت باطفاء النور واستلقت على فراشها ••

وأرقت نعمت •• أرقت حتى الصباح ••

كبرياء امرأة

تحدث منذ برهة بالتليفون مع قاسمة ، كان صوتها كعادته رائقا حنونا تحمله الأسلاك الى غرفة مكتبه التى تطل على الميدان المضطرب الهائج كأنه نغمة موسيقية أعدت لكى تبعث الراحة والدعة الى نفسه الحائرة .

لم يكن هناك شىء جديد يحدثها عنه ، ولكنه مع ذلك نظر الى ساعته الصغيرة الملقاة على مكتبه منذ يومين بعد أن تمزق رباطها الجلدى ، وكانت قاسمة قد حاولت أن تقرأ « الماركة » المنقوشة بخط دقيق تحت عقاربها فلم يقبل وقاوم حتى تمزق الجلد ..

نظر الى هذه الساعة التى لم تفارقه منذ عهد الدراسة فوجد .. وجد أنه تحدث نحو ثلاث ساعات ..

ومع ذلك فقد مرت الساعات الثلاث كأنها دقائق يقضيها المرء في سماع قطعة موسيقية مثيرة .. انهـا ميزة من أعجب مزايا قاسمة ، فهى قادرة على أن تصنع حوارا طويلا . شيقا . مثيرا . من لا شيء . عن لا شيء وأن تديره فى رقة ومهارة بحيث لا يشعر بالملل أبدا ، ان الملل يهرب من الغرفة اذا دخلت اليها قاسمة بقامتها المهيبة ، أو اذا حملت سماعة التليفون صـوتها الحنون ..

ولكن .. ماذا بقى من حديثها فى أذنه بعد هذه الساعات الثلاث ؟

لاشيء .. اللهم الا اعجابها بالقطعة الموسيقية التى ألفهـا وعزفتها سيدة سورية من أسرة كبيرة فى احـدى الحفـلات الخيرية .. ولكن اعجابها لم يخل من سخرية ، فقد قالت له قاسمة وهى تضحك ضحكة عالية :

ـ منذ عرفتنى وأنت تتقدم تقـدما سريعـا ، أتذكر ، يارشدى ، أيام أن كنت تجيء عندى فى بيتى بحلوان وتقعد أمام « البيانو » وتقول لى : قفى الى جانبى ياقاسمة . سألعب لك قطعة من تأليفى ، ثم أفاجأ بك تلعب قطعة مسروقة من « أسمر

ملك روحي» ؟ .. ظللت الى جانبك تارة ووراءك تارة أخرى .. أضحك مرة .. وأنكت مرة الى أن جعلتك محل اعجاب الناس كلهم ، أصبحت بحق تؤلف أروع موسيقى فى مصر ، أتنكر هذا كله ؟

وسكت صوتها قليلا .. وعاد بذاكرته الى تلك الأيام التى كان يستقل فيها قطار حلوان فى المساء ليظل عندها ، عند قاسمة ، الى مابعد منتصف الليل ، ويغادر منزلها بعدعناق طويل يغمر رأسها وفمها وعنقها ويدها وصدرها ، بقبلاته ..

تذكر تلك الأيام ثم ضحك ضحكة هادئة .. فيها كل معنى الاعتراف .. هذا كل ماذكره من حديث قاسمة الطويل .. أو على الأقل هذا ما بقى فى ذاكرته بعد أن جاشت فى صدره ذكرى أيام حلوان ..

عاد مساء من زيارة قاسمة فى بيتها الصغيرة بغمرة ، لقد جلس الى جانبها ساعتين على المقعد الجلدى الكبير فى غرفة الاستقبال ، ضحكت كعادتها وطوقته بذراعها العارية ، وعبثت بشعره ، وغمرت وجهه بأنفاسها الحارة ، ولكنه مع ذلك أحس بأن هناك شيئا فى قرارة نفسها لاتريد أن تفضى به اليه، شيئا يؤلمها أشد الألم الا أنها تستعين عليه بذلك المظهر المرح من الضحك الطائش الأرعن والعبث الجرىء بشعره وصدره وأزرار ملابسه !

وانتهز فرصة ظهر عليهـا التعب فيها من الضحك فقـال لها وهو يشير الى « البيانو » الصغير فى ركن الغرفة :

ـ قاسمة .. أسمعينى شيئا ، أى شىء .. ـ ولكنهـا أسرعت فمدت يدها وجذبت وجهه فلم يتمكن من النظر الى « البيانو » وأدنته من فمها ثم قالت فى صوت هامس مرتجف:

ـ ماذا يعجبك فى هذا البيانو ؟

وفجأة لمعت عيناها الواسعتان بالدموع وأخرجت منديلها الحريرى وأغرقت فيه وجهها ثم أجهشت بالبكاء ..

وسألها عما بها ولكنها هزت رأسـها نافية وهى لا تزال تبكى .. الى أن تمالكت نفسها قليلا فرفعت المنديل وتكلفت ابتسامة فاترة ، ثم وقفت وسألته :

ـ ألا تشعر بضيق ؟ .. ـ وقبل أن يتمكن من اجابتها أسرعت الى غرفة النوم وهى تقول : اننى أريد أن أستنشق الهواء .. انتظرنى دقيقتين حتى أرتدى ثيابى ـ ولم تـكد تغلق عليها باب الغرفة حتى اقتربت منه خادمتها العجـوز أم حسن وأخبرته فى صوت هامس وهى تتلفت حولها أن سيدتها قاسمة قد تغيرت أحوالها فى المدة الأخيرة وأنها خرجت أمس فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل فى عربة مكشـوفة الى الهرم ولم تعد الا بعد مطلع الشمس .

وعادت قاسمة فى ثوب أبيض جميل ، واصطحبهالمشاهدة قصة فى احدى دور السينما لم ينتبه لفرط اضطرابه الى عنوانها ، ولكنه يذكر أنها كانت تدور حول شخصية امرأة ضحت بحبها من أجل كبريائها .

وذات يوم وهو يضع قطعة موسيقية فكر كثيرا فى قاسمة حتى عاقه التفكير عن مواصلة وضع القطعة ..

لم يدر سر الشغف الغريب الذى استحوذ عليه يومئذ بأن ينقب عن خطاباتها القديمة .. والتى كانت تلقبه فيها بالطفل الكبير .

وإتاه فى تفكير مضطرم عنيف ، حاول أن يصل الى سر تلك المرأة العجيبة .. أنه يعلم تماما أنها من أسرة كبيرة فى الاسكندرية ، ولقد كفته جلسة واحدة مع قاسمة منذ سنتين لكى يتبين توا من حديثها ، ومن مبلغ ثقافتها ، وذوقهاالموسيقى السليم قيمة الوسط الذى نشأت فيه ، ويعلم الى جانب ذلك أنها ورثت شيئا عن والدها يكفيها للظهور بالمظهر الذى تريده لنفسها والذى ينتظره المجتمع منها ..

فما الذى يؤلمها ذلك الألم الذى تحاول أن تدفنه فى صدرها الجميل لكى تخفيه عن الناس .. حتى عنه هو ؟ .. هو الذى لا يشك لحظة فى أنها أحبته حبا يكفى دليلا عليه

وقفتها الطويلة بجانب باب المستشفى ساعات طويلة تحت سيل المطر المنهمر فى ليالى الشتاء القارسة تنتظر خروج والدته من عنده لكى تدخل الى غرفته تواسيه وتحمل بيدها قدح الليمون المعصور ، بابتسامة عريضة ، وعينين دامعتين ، وهى تغمرالغطاء الأبيض الناصع الذى يستر جسمه بقبلاتها غير عابئة بابتسامة السخرية التى كانت توجهها اليها الممرضة المكلفة بخدمته .

وبينما هو يفكر .. دخلت فجأة أم حسن خادمة قاسمة، فرفع رأسه مدهوشا ، انها لم تزره فى مكتبه من قبل ، وظن أن سيدتها قد أصابها سوء ، ولكنها أسرعت فقــالت له وهى تجلس على أقرب مقعد :

ــ جئت دون أن تعرف سيدتى ، أتوسل اليك ألا تخبرها

ولما هدأت قال لها :

ــ أهلا وسهلا ياخالة أم حسن .. خير ؟

ــ نعم ياسيدى ، أنا عارفة مابينك وبين سيدتى قاسمة، عارفة كله ولو أنها دائما تخفى عنا ، ولكن أنت لاتعرف قاسمة كما أعرفها أنا ، لقد ربيتها على يدى ، وأرضعتها من صدرى هذا ، طبعها غريب ياسيدى ، نفسها كبيرة وعمــرها ماذلت ، نشأت فى بيت نعمة فلم تتعود الشقاء ولكن ...

وهنا خفضت المرأة بصرها ، وتقطب جبينها ، وكاد يفهم ماترمى اليه فسألها :

ـ ولكن ماذا جرى ؟

ـ الدنيا غدارة ياسيدى ، وكل من يعرف قاسمة ، بنتى مغشوش فيها وفاكر ان القبة تحتها شيخ ، وهى ياحسرة تقاوم على قدر جهدها ـ فدهش لذلك ثم سألها :

ـ ولكن لم تصارحنى وأنا كل يوم معها ؟

ـ هذا هو مايسممها ، انها لاتهتم بأحد كما تهتم بك أنت ، أنت وحدك ، لاتطيق أن تطلع أنت على حقيقة ضيقها وأزمتها ، ان المسكينة تبكى بحرقة ساعات بأكملها وهى تحدث نفسها كمجنونة : أموت ولا أنزل من عين رشدى .. ـ وبكت أم حسن اذ ذاك وتأثر هو لذلك فسألها :

ـ ولكن أجدت عليها هذه الأزمة ؟

ـ لا من زمن .. أثاث البيت محجوز عليه منذ شهرين ، والبيانو ، البيانو الذى تراه كلما زرتها ليس ملكا لها ، البيانو الذى دخلت به مع جهازها باعه زوجها ، أول بختها ، كما باع مصاغها .

وسكتت الخادمة العجوز قليلا ثم استمرت فى صوت هادىء متزن وهى تتأهب للخروج

ـ جئت لأننى لا أود أن تفضح قاسمة أمام الغير • أمام من يساوى ومن لا يساوى دون أن تدرى أنت •

وخرجت دون أن يحس بها ، واشتدت به الدهشة من قاسمة ، من تلك المرأة العجيبة فى كبريائها ، ونظر من النافذة فرأى أم حسن تعبر الطريق حذرة خشية أن يراها أحد خارجة من عنده ، وشعر اذ ذاك برغبة عنيفة فى أن يسمى قطعته الجديدة « كبرياء امرأة »

ولما توجه الى منزل قاسمة مبكرا فى صباح اليوم التالى وفى جيبه مبلغ اعتقد أنه يكفى لانقاذها من شدتها تعمد ألا يجرح عزتها وألا يسىء الى أم حسن فتظاهر بأنه لايعلم شيئا عما تحدثت به اليه وقابلته قاسمة كعادتها فرحة ضاحكة ، وجلست بجانبه على المقعد الجلدى الكبير ، وكان يحمل مجلة نسائية كانت قد طلبتها منه فانتهز فرصة اشتغالها بترتيب القطع الموسيقية التى على المائدة بجوار «البيانو» ووضع النقود داخل المجلة ثم قدمها اليها وهو يقول :

ـ صور هذا المجلة رائعة ياقاسمة •

وتناولت منه المجلة وحاولت أن تقلب صفحاتها فخطفها منها ووضعها الى جانبها قائلا :

ـ جئت لأتحدث اليك لا لأراك تقرئين ، انك تستطيعين قراءتها عندما أخرج •

ورضخت قاسمة •• وظل معها قليلا ثم غادر منزلها وقد استرد بعض الراحة •

ولكنه لم يكد يعود الىمكتبه حتى سمع جرس التليفون يدق بشدة فلما أجاب سمع قاسمة تصيح فى صـوت هائج ، مرتجف ، مذبوح :

ـ هو أنت ؟

ـ نعم •• ماذا بك ؟ •• ـ فأجابته بعد تنهد حار أحس معه بأن صدرها قد تمزق

ـ لا أريد أن أراك بعد اليوم ـ وسألها :

ـ ماذا بك ؟

ـ ماذا بك أنت حتى تفعل بى مافعلت !•• لم أسيءاليك قط حتى تجرحنى هذا الجرح يا أستاذ •

وشعر بانقباض ، « يا أستاذ ! » انها تخاطبه كما كانت تخاطبه فى أول علاقتهما منذ ثلاثة أعوام ، وعادت تقول فى صوت مذبوح حاولت أن تكسـوه كثيرا من الرهبـة •• والكبرياء :

ـ اسمع ياسـيدى •• اننى من أسرة ليسـت أقل عزة وجاها من أسرتك •• وهذه الأسرة لم تعلمنى الاستجداء من

الناس مهما كانوا أعزاء على قلبى ، لست فى حاجة الى مالك الذى وضعته فى المجلة خلسة وقد أعدته اليك اليوم بالبريد ، أعدت لك المال الذى ظننت أننى فى حاجة اليه ــ ودهش من لهجتها ، انه موقن من شدة حاجتها ، فقال لها :

ــ ولكنى مادمت أحبك فمن الواجب أن أساعدك ..

وقبل أن يتم جملته صاحت به :

ــ اننى أرفض هذه المساعدة ، كنت أقبل أن تحبنى ولكننى لا أقبل أبدا أن تعطف على ــ وضحكت ضحكة جافة متمزقة ثم قالت :

ــ أقسم لك أن لهجتك فى مخاطبتى قد تغيرت، أصبحت تخاطبنى بأنف مزكوم يارشدى ، لك حق ، لقد ظننت أن قاسمة أصبحت أسيرة عطفك وفضلك ، لا .. لن أمكنك من هذا ولو مزقت قلبى الذى أحبك حتى العبادة .. بأظافرى .. أتذكر أظافرى الطويلة المدببة التى طالما عبثت بشعرك ؟ ... .. ثم وضعت السماعة وهى تزفر زفرات محمومة .

وأعاد اليه البريد المجلة ومعها المبلغ الذى وضعه بين صفحاتها وكلمة وداع من قاسمة .

ثم علم أن قاسمة سافرت الى الاسكندرية ، وقد فكر فى أن يتصل بها ليعتذر لها ، ولكن أحد أصدقائه الذين لاحظوا

اضطرابه أسر اليه بأشياء عن حياتها الخاصـــة وعلاقاتها جعلته يعدل عن فكرته ، وقد ألح أصدقاؤه وهم يثنونه عن العودة اليها على نقطة الضعف التى طالما وخزوه بها .. على أنها تكبره بأكثر من عشر سنوات .

ومرت الأيام والموسيقار رشدى يحـاول جهده أن ينسى قاسمة ، وأخذت تترامى اليه أخبار متناثرة عن الضيق الذى تعانيه وحياتها الجديدة .. حياة السهر المضنى التى أصبحت تحياها لكى تستعين بها على مجالدة العيش ..

وأمس كان يقضى السهرة فى ملهى من ملاهى شارع الهرم فحانت منه التفاتة الى المائدة المجاورة له ، فرأى قاســمة مع رهط من الناس يبدو عليهم أنهم من أغنياء الصعيد .

وفجأة عزفت الفرقة الموسيقية قطعة الموسيقى التى كان قد وضعها منذ عامين واختار عنوانها « كبرياء امرأة »

وتدفق الراقصون والراقصات الى حلقة الرقص ، وانسابت الموسيقى فى رقة هادئة حنون ، والتقى بصراهما لقاء طويلا ، عاش الاثنان بعيدا عن الناس فى ذكرى حلم جميل .. ولمعت الدموع فى عينيها على ضوء المصـــابيح الحمر الخافتة ولكنها

سرعان ما تمالكت نفســها وكأنها خشيت أن يشمت ، فضحكت ضحكة عالية جافة ورفعت كأسها ثم أفرغتها فى جوفها .

ولما غادر الملهى كان الهواء البارد يحمل الى سمعه رنات ضحكات ثملة كادت تطغى على موسيقى .. « كبرياء امرأة » .. وكان يبكى ..

حياة صفراء

أخذت سميحة تتقلب فى فراشها الضيق المنخفض بغرفتها المتواضعة منذ دخلت اليها بعد منتصف الليل . لقد قاومت طويلا لكى تنام فلم توفق . كانت كلما نظرت الى المصباح الأصفر الصغير الموضوع على مائدة خشبية مهشمة فى أقصى الغرفة تنبهت أعصابها ومرت أمام عينيها حياة عجيبة عاشتها مدى ثلاثين عاما ..

أحست فى بادىء الأمر وهى تستعرض تلك الحياة على ضوء المصباح الأصفر شيئا من الخوف فتقلبت وأعطت وجهها للحائط التى استند الفراش اليها .. بل انها ألصقت وجهها بتلك الحائط ولكنها خيل اليها أنها سمعت صوتا يناديها .. صوتا صادرا من جوف المصباح الأصفر فعادت الى وضعها الأول ..

وحملقت بعينيهـا الى الضـوء الأصـفر الذى يرسـم على الحائط رأس شيطان تهتز فى بطء رهيب .

وفجأة رأت سميحة غرفتها الضيقة التى لم تكن تسـع فراشها الا بكل مشقة وقد امتد فيها فراش آخر .. فراش رقدت عليه شقيقتها الكبرى ثريا ، وفتح باب الغرفة بسرعة ثم دخل والدها .. والدها الشيخ عبد الله خليفة مدرس الخط باحدى المدارس الابتدائية فى شارع السد البرانى .. لم تكن قد رأت والدها يبكى قبائذ قط ولكنه كان اذ ذاك ينتحب بحرارة وقد جلس على حافة الفراش الذى رقدت عليه شقيقتها ثريا ثم نادى بصوت مختنق وهو يضم أطراف عباءته فى وقار خاشع .

ـ سميحة ! .. أنا قادم من المستشفى .. أمكم تعيشون أنتم .. ياولاد ماتت .

وأسرعت سـميحة اذ ذاك بمغـادرة فراشها .. طفلة فى العاشرة من عمرها .. وتقدمت الى أبيها الشـيخ فضمها الى صدره المتهدج وهو لا يزال يبكى كطفل .

ـ البركة فيكم ياولاد .. ربنا يهـديكم ويسـتركم ـ وصاحت سميحة اذ ذاك كملاك طاهر أفاق من غفوة طويلة .

ـ أمى ماتت .. لم ماتت ؟

ـ ارادة الله يابنتى .. ارادة الله يا حبيبتى ..

واهتز الضوء الأصفر اذ ذاك أمام بصر سميحة .. خيل اليها أنه ارتفع .. ارتفع الى أن جاوز الباب لكى ينير الطريق لنعش يخرج من الغرفة .. وقد تصاعدت أصوات نواح من كل جوانبها ؛ ثم تلاشت تلك الصورة من أمامها .

وساد الغرفة سكون رهيب .. فأغمضت عينيها ورفعت يديها ثم وضعتهما على وجهها لكى تحجب عنهما ذلك الضوء المخيف .. ولكنها لم تحس الا وهى تدع بين كل أصبع وآخر فرجة تنظر منها خلسة الى الضوء . الى رأس الشيطان التى تهتز فى بطء رهيب ..

وأخذت صورة أخرى تتجسم أمامها .. خلف الشجرة العالية التى كانت فروعها تتدلى حتى تصل الى شرفة منزل والدها القديم بشارع الخليج .. المنزل الذى ورثه عن أبيه والذى ظلت الأسرة تحافظ عليه كتراثها الوحيد .. خلف تلك الشجرة بدت أمامها صورتها وهى شابة فى السابعة عشرة من عمرها وقد وقفت تتحدث الى ابن عمها سليمان خليفة الطالب بكلية الصيدلة . فى صوت خافت خشية أن ينتبه اليهما أحد . وهى تنظر الى عينيه فى وله مجنون على ضوء مصباح الغاز

الأصفر المهشم من أحجار المظاهرات التى كانت تسير كل يوم تحت نافذة المنزل منادية بجلاء الانجليز فى عام ١٩٥١ • لقد خيل اليها أن ذلك المصباح الذى كان يهتز أمامها على المائدة الخشبية المهشمة هو نفس مصباح الشارع الذى كان يقوم فيه منزل والدها القديم • أنها لا تزال ترى شبحها وشبح ابن عمها سليمان واقفا كضابط جميل يغمر وجهها بنظراته الولهى •• وقد ألقت رأسها على كتفه ثم سألته فى لهجة حنون •

ــ أتحبنى يا سليمان ؟ ــ فأجابها :

ــ كأنك لا تعرفين ياسميحة •

ــ بعد أمى ليس لى فى هذه الدنيا غيرك • لا تتركنى •

ــ مجنونة !

ــ لو تركتنى لتلطمت •

ــ كيف أتركك وأنت •• زوجتى ؟

ــ أنا زوجتك يا سليمان أليس كذلك ؟

ــ أمام الله انت زوجتى • أما العقد على يدى المأذون الذى يصر أبى على الا يتم الا بعد تخرجى فسوف يتم كما يشاء• لم تبق الا بضعة شهور •

وارتفع الضوء الأصفر الذى كان يرسله المصباح الصغير• وكبر واتسع واستحال الى لون أحمر • وارتعدت فرائص سميحة فقد وصل الى أذنها صوت طلقات نارية متتابعة تنطلق من جوف

المصباح ومن كل جوانبه . وكان النور الأصـفر ينطفىء ثم يضىء النور الأحمر .. وينطفىء ليضىء مرة أخرى أشد سطوعا وتوهجا . كفوهة مدفع . كانت سميحة اذ ذاك تعيش فى ليلة من ليالى شتاء عام ١٩٥٢ . وكانت تذكر تماما ليلة جاءها نعى ابن عمها سليمان مقتولا برصـاصة أحد الجنود الانجليز أثناء اشتراكه مع بعض الفدائيين من طلبة الجامعة فى الهجوم ليلا على ثكنة بريطانية فى منطقة القناة . وظلت سميحة تبكى بحرارة ، فقد فقدت الرجل الذى أحبها وأحبته والذى أعدت نفسها لكى تشاركه الحياة ، فقدته الى الأبد . ولكنها فقدت الى جانبه شيئا آخر .

كانت تعلم انه زوجهـا أمام الله وان أبى أبوه أن يقر ذلك الزواج أمام الناس ، ولذا أسلمت له نفسها . وعندما جاء خبر موته كانت أحشاؤها تتحرك بابن سليمان ..

واقترب موعد الوضع . وكانت شقيقتها ثريا تعلم خبر الحمل فاحتارت ولم تجد وسيلة الا محاولة اقناع شقيقها سميحة بأن تتخلص من أثر الزلة فى الخفاء حتى يظل رأس أبيهما الشيخ عبد الله خليفة مرفوعا أمام الناس كما كان ولكن سميحة أبت .. أن تقتل ابنها من سليمان ولم تجد ثريا مناصا من أن تصارح أباها بالأمر .. فجن المدرس الشيخ .. واقتحم غرفة سميحة . وأطبق على عنقها وهو يصيح :

ـ أخرجى من بيتى . أخرجى يا نجسة .. لا أنت بنتى ولا أعرفك .. أنا متبرى منك .. ليوم القيامة .

ولما حاولت أن تطلعه على العقد العرفى الذى يشهد بزواجها من ابن عمها سليمان مزق ذلك العقد وألقاه فى وجهها وهو يقذف بها الى خارج البيت ..

ولحظت سميحة اذ ذاك أن الضوء الأصفر قد تمزق وتبعثر قطعا صغيرة صفرا فى جو الغرفة . وأحست بأن تلك القطع من الضوء الرهيب تطاردها كذباب مفترس .

والتصقت تلك القطع المبعثرة من الضـــوء فى الحائط . وتراءى لسميحة (كازينو الجيتيه) الذى اشتغلت به عقب تركها لبيت أبيها . ملهى قائم فى نهاية مصر الجديدة . لقد ضاقت الدنيا فى وجهها فلم تجد الا أن تكسب رزقها من العمل فى ذلك الملهى . العمل الذى لم يكن يتعدى الجلوس مع الزبائن وتبادل الأحاديث معهم .. أيا كانت تلك الأحاديث مادامت تسر الجالس الى جانبها وترضيه .. ومرت فى ذاكرتها سحب الدخان المتكاثفة حول المصابيح الصغيرة المبعثرة فى أنحاء الملهى وجموع الزبائن الذين يترنحون . ويتصايحون . ويهرجون .

وتوقفت ذاكرتها اذ ذاك عند الدكتور عزت المنياوى . دخل الى الملهى وتقـــدم فى هـــدوء الى ركن منعزل وجلس يدخن

سيجارا • ومرت هى من أمامه • فدعاها عزت الى الجلوس ولما استدعى « الجرسون » الذى انحنى بأدبه التقليدى وهو يفرك يديه لم تشعر سميحة الا وهى تطلب « كوبا » من الشمبانيا ، « كوبا » فقط • لا زجاجة بأكملها كما تقضى بذلك تعليمات مدير الملهى •

ـ يخيل الى انك حديثة العهد بالعمل هنا •

ـ عشرة أشهر •

ـ مبسوطة ؟

وفكرت قليلا • ثم سألته •

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أقصد • هل أنت مرتاحة فى العمل هنا ؟

فرفعت رأسها الى سحب الدخان المتكاثفة ثم تنهدت وقالت:

ـ هه ! يعنى •• وأنت •• هل أنت مرتاح فى عملك ؟

فضحك عزت وهو يقول •

ـ كيف ؟

ـ اذا كانت راحتى تهمك فلم يدهشك أن أهتم براحتك ؟ لست أول من يوجه الى هذا السؤال •• لاحظت أن المترددين على هذه الملاهى يستريحون الى سماع شكاوى الفتيات العاملات

فيها مع أنه قد يكون بينهم من هم أشد رغبة منا فى الشكوى . وأكثر حاجة منا الى من يستمع الى شكواهم .. الدنيا ملآنه بلاوى .. البلاوى ليست قاصرة على ملاهى الليل ..

وسادت فترة صمت .. أطال عزت أثناءها النظر اليها . ثم قال لها .

ـ معك حق .. مادفعنى الى هذا المكان الليلة الا اننى متضايق ..

ـ ولذلك حاولت أن تلتقى بآخرين يعانون مثل هذا الضيق ..

ـ ربما .

ـ وماذا يضايقك .. ؟

ـ أشياء كثيرة .

ـ أهمها ؟

ـ لم تحرصين على أن تعرفى .. ؟

ـ ولم حرصت انت على أن تسألنى .. ؟

فضحك عزت وقال لها ..

ـ أهمها .. ماذا أقول لك ؟ أهمها أننى بعد اتمام دراستى هنا فى الجامعة وتعيينى فى احدى الوظائف صممت على السفر الى الخارج للحصول على درجة علمية أعلى .. وتغيبت ثلاث سنوات . ولما عدت أحمل تلك الدرجة اتضح لى أن زملائى

الذين لم يحصلوا عليها قد نالوا ترقيات وعلاوات جعلتهم رؤسائي في العمل •

ــ هذا يحصل في كل يوم •• أنا أيضا •• زميلاتي في الدراسة باحدى مدارس البنات في السيدة زينب • كلهن نلن حظا أسعد •• منهن الطبيبة •• أو المعلمة •• ومنهن من تزوجت وأصبحت أما • وسيدة بيت •• احداهن أراها أحيانا تقود سيارتها متجهة الى بيتها الجميل على مقربة من هذا الملهى •• أما أنا •• ــ واختلج صوتها •• وانتظر أن تتم جملتها ولكنها أطرقت الى الأرض فسألها :

ــ مالك ؟

ــ كل منا عنده ما يكفيه من أسباب الضيق •• يا •• نسيت أن أسألك • ما اسمك ؟

ــ عزت ••

ــ ياعزت •• ــ وساد صمت آخر •• ــ وأقبل «الجرسون» يهمس في أنها أن تطلب «كوبا» آخر وهو يغمز بطرف عينه الى مدير الملهى مشيرا الى خشيته من غضبه اذا لم تطلب ذلك الكوب فنظرت اليه معتذرة وهي تطلب كوبا آخر • ثم همست •

ــ تسمح ؟ ــ فأجابها وهو يربت على يدها •

ــ بكل سرور •

ــ انني مضطرة الى هذا الطلب ؟

ـ بكل تأكيد .. بل أحس بأنك متألمة .

ـ أتحس حقا بألمى ؟

ـ لم يخطر ببالى عندما غادرت بيتى هذا المساء أن أقضى السهرة فى ملهى .. لم أكن أعلم أن ملهى قد افتتح فى هـذا المكان .. لم يكن موجودا عندما سافرت منذ خمس سنوات .. لم تكن المساكن قد امتدت الى هذه الناحية . كانت صحراء مقفرة .. سعيت اليهـا الليـلة هربا من النـاس . ولكننى وجدت رجلى تقودنى الى هنا .. اليك .. فدعوتك .. كنت أحاول الهرب من الناس فلما رأيتك .. عجبا ! لما رأيتك شعرت أننى فى حاجة .. فى حاجة .. ماذا أقول ؟ فى حاجة الى التحدث اليك ..

وساد صمت آخر . كانت موسيقى الملهى تعزف بصخب ولكنهما لم يهتما بها . كأنها لم تطرق سمعهما . كانا يعيشـان نظرة طويلة وصدرين متهدجين .. وعاد عزت يربت على يدها وهو يتمتم .

ـ حدثينى قليلا عن نفسك .. عن حياتك .. أتعيشين .. وحدك أو مع ..

ـ لا . أعيش وحدى . وأنت ؟

ـ وحدى .. ـ وتردد . ثم حـدق فيها وتمتم ـ لم لا نعيش معا ؟

وأطرقت سميحة الى الأرض . رفضت من قبل أن تعيش مع رجل لانها كانت تريد أن تعنى وحدها بتربية ابنها الصغير . ولكن ابنها مات منذ بضعة أسابيع . أصبحت فى حاجة قصوى الى شىء من العزاء فقبلت أن تعيش مع الدكتور عزت .

وعادت سميحة تطيل النظر الى المصباح . خيل اليها أن غلالة زرقاء قد كسته . أضيفت الى المقاعد المهشمة فى غرفتها بعض قطع الأثاث الجديدة . وانمحت الصور القديمة كلها وحلت محلها صورة .. مشرقة باسمة .

عزت جالس الى جانب النافذة وهى مستلقية بجانبه . تقرأ له قطعا من كتاب (العبرات) للمنفلوطى ، كان ذلك الكتاب يعيد الى خيالها بعض ذكريات حياتها فى بيت أبيها بشارع الخليج . طالما قرأته على ضوء مصباح الشارع القريب من نافذة غرفتها بعد أن تغلق بابها وتطفىء نورها خشية أن يحس والدها الشيخ عبد الله بأنها تقرأ شيئا غير كتب المدرسة .

وبدا لها عزت وهو يخرج معها من المنزل . المنزل الهادىء فى أقصى شبرا يتأبط ذراعها . يكاد يحملها حملا الى أقرب محطة من محطات الترام لكى يذهبا سويا الى أحد المسارح أو احدى دور السينما وهو يكاد يلتهمها بنظراته التهاما .

وعاد المصباح الأصفر يضىء بقوة وعنف . وسمعت سميحة

أنينا خافتا صادرا من جوفه • ورأت عزت ممددا على الأرض فأسرعت اليه تسأله :

ـ مالك ؟ مالك ياعزت ؟

ـ لا شيء • أثناء عملي بالمصلحة اليوم • شعرت بألم في صدري • ولما اشتد الألم وأحسست أن خناجر تمزق صدري استدعوا طبيبا قرر بعد فحصي أنني مصاب بذبحة ونصح بنقلي فورا الى البيت • أعرف هذه العلة في قلبي فقد انتابتني من قبل مرتين أثناء دراستي في الخارج ولكنني أخفيت ذلك عنك ••

وقتم ضوء المصباح الأصفر • رأت سميحة صديقها عزت راقدا على الفراش يتأوه •• وطبيب شاب كان يتلقى العلم معه في ألمانيا يفحصه •

لقد اتضح أن القلب الشاب مصاب بجلطة ! وسمعت سميحة اذ ذاك صوت كسر • ولمحت المصباح الأصـــفر وقد سقط من المائدة الى الأرض وكسر زجاجه • خيل اليها أن الضوء الأصفر قد سال • سال على الأرض • قاتما • كئيبا •

وعادت صورة عزت ممددا على فراشه وهي الى جانبه تسكب من زجاجات الأدوية جرعا ونقطا يتناولها في مواعيد محددة كانت تحرص كل الحرص على أن تقدمها له فيهـــا •• زجاجة من تلك الزجاجات كانت تحتوي على سائل أصفر اللون •

كان المسكين يصده عن فمه كلما حاولت أن تساعده على تناوله . فلما ذاقته هي تبينت انه شديد المرارة .. ولكنها شجعته على تناوله بأن تناولت هي منه جرعة أخرى .. ولما بلعت ريقها شعرت بالمرارة القاسية تسري في كيانها كله .

كان الدكتور عزت المنياوي الاخصائي الشاب في الكيميا الصناعية موظفا بعقد وقد حاول رؤساؤه أن يتساهلوا في السماح له بأطول مدة ممكنة من الأجازات التي تسمح بها اللوائح .

واستطاعت سميحة بالنقود التي كانت قد اقتصدتها من مرتب عزت أن تنفق على علاجه . ولكن النقود نفدت .

وعادت سميحة تشخص في رعب الى ضوء المصباح الأصفر . فقد هزل لونه وبدا باهتا شاحبا .. لم تستطع أن تقاوم رغبة شرهه في أن تعيد النظر الى صورة عزت وهو مستلق على فراشه يتأوه . ورفع عزت عينيه اليها .. عينيه اللتين أذبلهما مرض دام خمسة شهور دون أن يوفق الأطباء الى علاجه .. خمسة شهور قضتها سميحة الى جانبه تعني به وتشجعه وتدلله . وتبعث الأمل في صدره المتهدج الضعيف . وتمتم عزت .

ــ يصعب على أن تتعذبي هكذا من أجلي . ماذنبك يا مسكينة ؟

ــ ماذا جرى لي حتى أصعب عليك ؟ أجننت ؟ ليتني

مرضت بدلا منك • انك أقدر على العناية بى •• اننى أدعو الله في كل لحظة أن يسرع بشفائك •

واغرورقت عيناه بالدموع ثم همس •

ــ شفائى • ! لن أشف يا سميحة •

ــ بعد الشر • أنت في عز شبابك • ستشفى وترجع لعملك وتترقى • سأراك باذن الله مدير المصلحة •• نم • نم ياروحى • استرح ولا داعى لهذا الكلام الذى لامعنى له • لقد قال لى الطبيب ان عزت لا يجب أبدا أن يجهد نفسه •

وجذبت سميحة غطاء الفراش فغطت به رأس عزت وأغلقت نوافذ الغرفة لكى تريحه من ضجة الشارع • وانتظرت حتى خيل اليها أنه استغرق فى نومه فتسللت من الغرفة على أطراف أصابع قدميها ولكنه أحس بها فصاح •

ــ رائحة الى أين ؟

وارتبكت سميحة اذ ذاك • فقد كانت الحيرة قد بلغت بها أشدها بعد أن تبينت فى الصباح أنها أنفقت آخر جنيه كان لديها فى شراء الأدوية التى أشار بها الطبيب المعالج • وخطر لها أن تصارحه بأنها تريد أن تخرج لتبحث عن نقود • أى نقود • لتخلق النقود خلقا • ولكنها لم تشأ أن تؤلمه • فقالت له :

ـــ رائحة الى بيت أختى ثريا •• علمت أن ابنها مريض منذ عدة أيام •• ولم أشــأ أن أخبرك الا اليوم بعد أن تحسنت صحتك • لن أتغيب أكثر من ساعة •• ساعة واحدة • ثم أعود مسرعة •

وأزاح المريض غطاء الفراش عن وجهه ثم أجال بصره فى الغرفة وقال :

ـــ كم الساعة الآن ؟

كان الليل اذ ذاك قد بدأ يغمر القاهرة بالظلمة • وكان بصيص من مصابيح الشارع يتسلل من نوافذ الغرفة المغلقة • فأسرعت سميحة وجذبت غطاء الفراش محاولة أن تغطى عينيه وهى تقول :

ـــ لا زلنا قبيل العصر • ولكن فى السماء بعض غيوم •• نم واسترح حتى أعود اليك •• لن أغيب عنك أكثر من ساعة • مسافة السكة حتى بيت أختى • أنت تعلم ياعزت أنها ليس لها فى هذه الدنيا الا أنا • أخشى أن يصعب عليها ألا أعود ابنهـــا المريض • وحيدها •

وغادرت سميحة المنزل بعد أن ألقت نظرة حانية على عزت•• نظرة سابحة فى الدموع • وفجأة وجدت نفســها فى وســط الشارع • وحدها •• لم يكن عزت الى جانبها • افتقدت ذلك

الذراع الذي اعتاد أن يحملها حتي محطة الترام •• وسارت في شارع شبرا الواسع وهى تتلفت كريفية قدمت الي القاهرة أخيرا دون أن يكون لها معرفة سابقة بها • وركبت الترام وهى لا تدرى أين تقودها قدماها ••

ووصل الترام بها الى ميدان رمسيس •
كانت ساعة المحطة تشير الى العاشرة مساء •• !

وخيل لسميحة اذ ذاك أن تلك الساعة تنظر اليها ساخرة •• وأن عقاربها تتجمع لتشير للناس عليها •• !

ووقفت برهة علي الرصيف الذى تلتقي عنده قطارات الترام القادمة من أحياء العاصمة المختلفة والذاهبة الى أحياء أخرى من العاصمة التى كانت يقظة الى تلك الساعة من الليل •• !

وأقبل ترام •• الترام الذى يمر بشارع خيرت بالسيدة زينب •• حي طفولتها • كان الترام خاليا ••

ان سكان هذا الحى لا يسهرون الى تلك الساعة من الليل• لقد كان الشيخ عبد الله خليفة مدرس الخط العربى يقول لابنته دائما •

ــ البركة فى الساعات التى ننامها بين العشاء والفجر •

ودمعت عينا سميحة المسكينة •• عندما تحرك الترام متجها

ليدور دورته حتى السيدة زينب •• وليمر من أمام المسجد الطاهر الذى طالما زارته لتتبرك به • وطالما وقفت أمامه من بعيد تقرأ الفاتحة •

وأدارت سميحة ظهرها للترام • لم تعد جديرة بأن تذكر ذلك الحى الذى شهد طفولتها الطاهرة البريئة •• ومر قطار المترو اذ ذاك من أمامها مزدحما بسكان مصر الجديدة العائدين الى دورهم • فصعدت اليه وهى شاردة • ولم تكد تخطو الى الداخل حتى رأت رجلا يقوم من مقعده ليخليه لها وهو يقول :

ــ سميحة ظهرها للترام • لم تعد جديرة بأن تذكر منذ غبت عنه ••

ونظرت اليه سميحة فتذكرت •• أنه اسماعيل عبد الكريم أحد زبائن ملهى « الجبيتيه » الاثرياء • وجلست مكانه شاكرة • وأخذ يتبادل معها حديثا قصيرا الى أن وصل المترو الى مصر الجديدة فدعاها لتتناول كأس فى شرفة أحد فنادقها •

كأس ؟ مع رجل غريب ••

ترددت سميحة فى بادىء الأمر ولكنها تذكرت •• تذكرت أنها تركت عزت مريضا فى المنزل وأنها نزلت لكى تحضر نقودا • من أين لها النقود ؟ انها كذبت عندما أدعت أنها تنوى أن تزور شقيقتها • فقد أنكرتها الأسرة الى الأبد •• !

وقبلت سميحة دعوة اسماعيل .. وجلست معه فى شرفة الفندق . وشربت .. شربت . كلما أراد لها أن تشرب . ولم تشعر الا وهى الى جانبه فى سيارته .. خارج مصر الجديدة فى طريق السويس .. !

وعادت سميحة وفى حقيبة يدها عشرة جنيهات ، ولما مرت بالسيارة فى ميدان رمسيس كانت الساعة تشير الى الخامسة صباحا .. وكانت نفس العقارب تتجمع لتسخر منها . ودخلت سميحة الى الغرفة التى رقد فيها عزت تسير بحذر على اطراف أصابع قدميها خشية أن يستيقظ ولكنها ذعرت عندما رأته واقفا فى وسط الغرفة .. عزت المريض بقلبه الممنوع من أن يتحرك كان واقفا فى وسط الغرفة يبحث عنها وفى يده المصباح الصغير الذى تركته بجانبه على المائدة . ولم يكد يراها داخلة حتى ألقى المصباح فى وجهها وهجم عليها يمسك بكتفيها ويصيح ـ من أين جئت الآن ؟ ـ وأمسك بعنقها وأدنى رأسها من ضوء المصباح الملقى على الأرض وحدق فى عينيها وهو يصرخ فى حشرجة رهيبة .

ـ كنت عند أختك . لغاية الصباح ! أيسهرون عند أختك .. حتى طلوع الشمس . لقد سمعت أذان الفجر منذ مدة ـ وأدنى أنفه من فمها ثم صاح ضاحكا كأنه أصيب بنوبة جنون ـ ها !

ها ! سكرانة ! تركتني مرميا . نصف ميت . على الفراش . وخرجت لتسهرى وتسكرى ..

ورفع عزت المصباح ثم هوى به على رأسها وهو لا يزال يصيح :

ـ أخرجى .. أخرجى من بيتى .. اغتفرت لك ماضيك . قبلت أن تعيشى معى فى بيتى . ظنا منى أنك تطهرت .. ولكن .. ولكنك لم تستطيعى .. لم تطيقى الحياة فى بيت شريف .. اشتقت الى ماضيك القذر يا .. نجسة !

واستجمعت المسكينة قواها ثم قالت له وهى ترفع يدها لتتقى نظراته .. وتمتمت .

ـ لم أطق أن أراك فى حاجة الى دواء يخفف ألمك دون أن أحضر لك هذا الدواء . لم أحتمل أن أراك تتعذب بين يدى دون أن أحاول ..

وهنا صرخ المريض الشاب بكل مافيه من قوة باقية وركلها بقدمه وهو يصيح .

ـ ليتك تركتنى أمــوت شريفــا .. أخرجى .. ارجعى للرصيف الذى جئت منه ؟ .. أخرجى . ـــ واختفت تلك الصورة من أمام سميحة . وعادت تحدق فى المصباح الأصفر فرأت أنه

يتدحرج على الأرض •• وهو يسكب ضوءه الرهيب •• وسمعت أصواتا تعلو ثم سادت الظلمة •• وسكن كل شيء ••

•• •• •• •• ••

فى صباح اليوم التالى لاحظت السيدة اليونانية العجوز التى تدير شقتها فى الدور الخامس من احدى عمارات الخديو بشارع عماد الدين كبنسيون تؤجر غرفه للراقصات أن الغرفة التى تسكنها الراقصة سميحة ظلت مغلقة الى الظهر على خلاف عادتها • وأن رائحة (الغاز) تفوح من غرفتها الضيقة فأسرعت بفتح النوافذ وعندئذ رأت سميحة مستلقية على فراشها جثة هامدة وعلى أرض الغرفة مصباح أصفر من المصابيح التى توضع على الموائد الصغيرة بجوار الاسرة كان لا يزال مضيئا • وفطنت الى أن أنبوبة « الغاز » الملتصقة بحائط الحمام الصغير الملحق بغرفة النوم كانت مفتوحة • فأبلغت الشرطة •

وفى مساء ذلك اليوم صدرت احدى الصحف وفى ناحية نائية من الصفحة الأخيرة نشر الخبر التالى بلا عنوان :

« تلقى قسم الأزبكية بلاغا بوفاة شابة فى نزل تديره سيدة يونانية بشارع عماد الدين وقد اتضح أن المتوفاة المدعوة سميحة خليفة قد انتحرت بفتح أنبوبة الغاز فى غرفتها لضيق ذات يدها ونقلت جثتها الى القصر العينى لتشريحها » •

.. ..

.. ..

ولما رفضت أسرة عبد الله خليفة مدرس الخط العربى أن تستلم جثة سميحة حملتها احدى عربات المستشفى الكبير وألقت بها الى مقبرة صغيرة بمدافن الصدقة فى صحراء القاهرة .. الصفراء .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٠٠ قرش